

حول تاريخ الوطن

عبدالله الصالح العثيمين







سلسلة الأعمال المحكمّة (١١٧)

عبدالله الصالح العثيمين

حول تاريخ الوطن

شوال ١٤٣٣هـ (سبتمبر ٢٠١٢م)

ⓒ مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، عبدالله الصالح

حول تاريخ الوطن . / عبدالله الصالح العثيمين . - الرياض ، ١٤٣٤هـ

٢٣٨ص؛ ٢٤سم

ردمك: ٠-٠٣-٨١١٨-٦٠٣-٩٧٨

١ـ السعودية ـ تاريخ أ. العنوان

ديوي ٩٥٣,١١ ١٤٣٤/٤١٨

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٤١٨

ردمك: ٠-٠٣-٨١١٨-٦٠٣-٩٧٨

الرياض ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

ص.ب: ٨٦٤٨٦ الرياض ١١٦٢٢
هاتف: ٠٠٩٦٦١-٤٩١١٣٠٠ فاكس: ٠٠٩٦٦١-٤٩١١٩٤٩
www.kapl.org.sa

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الموضوع	صفحة

تصدير

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. . . وبعد

مكّتبةُ الملك عبدالعزيز العامة بالرياض مؤسسةٌ خيريّةٌ توثيقيّةٌ معلوماتيّةٌ ثقافية، تضطلعُ بدور مهمٍّ في المجتمع، بوصفها جسراً ممتداً بين الباحثين ومحبي القراءة والاطلاع من جهة، وبين المعلومة والثقافة والمعرفة من جهة أخرى، كذلك تسعى المكتبةُ إلى اقتناء الجديد والمفيد في جميع حقول المعرفة الإنسانية، جنباً إلى جنب مع استخدام التقنية، وخصوصاً أنَّ المكتبةَ الحديثة لم تعد مجرد أداة لاختزان الكتب ومصادر المعلومات الأخرى، بل رافدٌ من روافد الثقافة في المجتمع، ولديها برنامج طموح في نشر الأعمال الجادة والمتميزة، التي تمس أكبر شريحة من المستفيدين والباحثين والقرّاء بشكل عام، وقد بلغ عدد الإصدارات التي تبناها هذا البرنامج منذ إنشائه نحو (٢٢٠) عنواناً، تنوعت موضوعاتها ما بين تاريخ الجزيرة العربية، والحرمين الشريفين، وأدب الرحلات، والأدب واللغة العربية، والدراسات الأندلسية، ومجال المكتبات والمعلومات، ومجموعة من الاصدارات الخاصة بالطفل، يقدر عددها بنحو (٧٠) إصداراً، وبعض المجلات المتخصصة.

عند الحديث عن الوطن وتاريخه، تختلط مشاعر العزة والفخر، وتظهر مشاعر الحب والولاء والانتماء، كيف لا؟ والحديث عن وطننا المملكة العربية السعودية، مهد الإسلام، وملتقى الحضارات، ومهوى أفئدة وقلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، تاريخ الوطن الذي كتب بمداد من ذهب، التاريخ الذي بدأت فصوله بتأسيس هذا الكيان، وتوحيد أرجائه كافة، والذي عدَّه بعض المؤرخين حدثاً بارزاً في التاريخ العربي المعاصر، ونقطة تحول في تاريخ الجزيرة العربية بشكل خاص، والمنطقة العربية على وجه العموم، بل في تاريخ العالمين العربي

والإسلامي، التاريخ الذي فيه سيرة المؤسس والموحّد عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود يرحمه الله، والإمام محمد بن سعود، والإمام محمد بن عبدالوهاب، وغيرهم الكثير من الرجال المخلصين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

إن المتتبع لتاريخ المملكة العربية السعودية، وما تحققت لها من منجزات كبيرة، على الرغم من قصر الفترة الزمنية التي عاشتها مقارنة مع الدول الأخرى، تعد معجزة حقيقية لم يسبق أن تحققت لبلد آخر، بفضل من الله تعالى أولاً، ثم بفضل قادتها وأبنائها الأوفياء، قُدِّمت لهُ التضحيات، والغالي والنفيس من أجل رفعة شأنه وعلوه، حتى رأيناها اليوم وهي في تقدم مضطرد وفي مصافِّ الدول المتقدمة حضارياً وثقافياً واجتماعياً... إلخ، ومن المهام التي تضطلع بها المكتبة والواجبات تقديم لمحة من هذا التاريخ لأبناء وبنات هذا الزمان؛ لمعرفة جوانب متعددة وإضاءات مشرقة لكثير من الأحداث والوقائع التي مرت بها أرجاء الوطن الكبير، وفيه أوضاع وسط الجزيرة العربية قبل ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب يرحمه الله، ونظرات في كتابات رحالة ومستشرقين وتنويريين عن دعوته السلفية، وقراءة في التاريخ الوطني، وتعليقات وقراءات متعددة حول بعض الكتب التاريخية الشهيرة، مثل: كتاب سبز آباد ورجال الدولة البهيّة، وكتاب التاريخ السياسي لإمارة حائل، وكتاب بريطانيا والصراع العربي العربي خلال الربع الأول من القرن العشرين، وغيرها من الموضوعات.

تتطلع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة وتأمل أن يكون في هذا العمل إضافة؛ ليكون مرجعاً ومطلباً للباحثين والمتخصصين، وأن تتحقق منه الفائدة المرجوة بإذن الله تعالى.

والله من وراءِ القصد،،،

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

مُقدمة

الحمد لله رَبِّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نَبِيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قدَّر الله - سبحانه وتعالى - أن تكون دراستي الجامعية في قسم التاريخ بجامعة الملك سعود، وأن تكون دراستي العليا في ميدان تاريخ الوطن العزيز.. المملكة العربية السعودية. وذلك أن أطروحتي التي نلت بها درجة الدكتوراه من جامعة أدنبرا، عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، كانت عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأعماله؛ مشتملة على دراسة الأوضاع في نجد، التي تُمثِّل قلب الجزيرة العربية، قبيل ظهور دعوته، ودراسة لحياته وارتباطه بآل سعود، ومكانته في دولتهم الأولى، التي ناصرت تلك الدعوة وانتصرت بها، وتحليل لما ألَّفه من كتب ورسائل، وأفكاره هو وأنصاره من جهة وأفكار معارضيهم من جهة ثانية حول قضايا دينية في الأصول والفروع.

ولقد يَسَّر الله لي أن أكتب كتباً، وأنشرها، في مجال تخصصي؛ تأليفاً، أو تحقيقاً، أو ترجمة من الإنجليزية إلى العربية. وعناوينها موجودة أمام القُرَّاء الكرام ملحقة بهذا الكتاب.

على أنِّي كتبت كتابات في ميدان تَخصُّصي في أوقات مضت، ولم يسبق أن نُشرت في كتاب يَضمُّها بين دفتيه، فاستحسنت جمعها ونشرها. وأكثر هذه الكتابات - كما سيرى القُرَّاء الكرام - ملحوظات أو تعقيبات على كتابات لمؤلِّفين وكُتَّاب أفاضل. على أني استحسنت، أيضاً، أن أضع، قبل

إيراد تلك الملحوظات والتعقيبات، تلخيصاً أشبه بالتمهيد عن أوضاع وسط الجزيرة العربية قبل ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب. وكل ما أرجوه أن يكون في نشرها ما يفيد.

عبدالله الصالح العثيمين

أوضاع وسط الجزيرة العربية قبيل ظهور
الشيخ محمد بن عبدالوهاب

المراد بوسط الجزيرة العربية، هنا، منطقة نجد المُشتملة على عدَّة أقاليم مُمتدَّة من جبل شَمَّر شمالاً إلى وادي الدواسر جنوباً. وسيكون تركيز الحديث على القرنين السابقين لدعوة الشيخ محمد؛ مُتناولاً علاقاتها بالقوى المحيطة بها، وأوضاعها السياسية، والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والدينية.

نتيجة لظروف الدولة العباسية خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري قامت دولة علوية في إقليم اليمامة من نجد بقيادة محمد بن يوسف المُلقَّب الأُخَيْضر. وظَلَّت قائمة تحت زعامة أفراد من نسله قرابة قرنين من الزمن[1]. وكانت تنتهج المذهب الزيدي، الذي كان مذهب أشراف مكة من بداية حكمهم في مطلع القرن الرابع الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري[2].

وبعد نهاية الدولة الأُخَيضرية، التي لم تَضمَّ - كما يبدو - إلا القليل من أقاليم نجد، ازداد تَفكُّك المنطقة سياسياً، وأصبحت عبر قرون هدفاً للقوى المحيطة بها شرقاً وغرباً. والمُتأمِّل في المصادر المتوافرة يرى أن آل أُجود وصلوا إلى حكم الأحساء والقطيف في النصف الأول من القرن العاشر الهجري. وما إن استقر لهم الحكم هناك حتى بدأت غزواتهم لنجد. وكانت تلك الغزوات مُوجَّهة، في

---

(١) كان محمد بن يوسف إلى جانب أخيه إسماعيل في ثورة ضد الحكم العباسي في الحجاز. ولما توفي إسماعيل بالجدري هناك هرب محمد إلى اليمامة عام ٢٥٢هـ حيث أسس تلك الدولة العلوية. ومن الكتابات عن الدولة الأخيضرية كتابة عبدالله بن يوسف الشبل في مجلة اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس، ١٣٩٦هـ، ص٤٥٩-٤٦٦.

(٢) ريتشارد مورتيل، وترجمة عنوان بحثه: "المذهب الزيدي وأشراف مكة الحسنيون"، في مجلة دراسات الشرق الأوسط الدولية، العدد ١٩، ١٩٨٧م، ص٤٦٨.

معظمها إلى قبائل رُحَّل يبدو أنها كانت تهاجم قبائل متحالفة مع أولئك الحكام أو تَتعرَّض لقوافل مَارَّة بنجد وهي تابعة لهم أو تحت حمايتهم. ومن الواضح أن آل أجود قد مَدُّوا لهم نَوعاً من النفوذ في بعض الجهات النجدية. ولَعلَّ هذا مما دفع المؤرخ السمهودي، الذي كان معجباً بأجود بن زامل كُلَّ الإعجاب، إلى أن يصفه بأنه "رئيس نجد ورأسها"(١).

وكان من حكام آل أجود مُقْرِن، الذي مدحه جُعَيْثِن اليزيدي بقوله:

حَمى بالقنا هجراً إلى ضاحي الّلوى
إلى العارض المنقاد نابي الفرايد

ونجد رعى ربعي زاهي فلاتها
على الرَّغم من سادات لامٍ وخالد

وسادات حَجْرٍ من يزيد ومزيد
قد اقتادهم قود الفَلا بالقلايد

وقد استُشهد مُقْرن وهو يجاهد البرتغاليين الطامعين في بلاده عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م. ثم اَجتمع نَجاح هؤلاء مع الخلافات الأسرية بعد استشهاده مما أدَّى إلى زوال حكم آل أجود(٢).

وبينما كان البرتغاليون يقومون باعتداءتهم على السواحل الشرقية والغربية من جزيرة العرب كان العثمانيون يحرزون انتصارات على خصومهم المماليك. ولما استولى السلطان سليم على مصر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٦م انضمَّت الحجاز إلى الحكم العثماني بطريقة سلمية، ثم دخلت منطقة الأحساء والقطيف تحت ذلك

(١) علي السمهودي، وفاء الوفا بأخبار المصطفى، القاهرة، ١٣٢٦هـ، ج ٢، ص٢٢٨.

(٢) لَعلَّ أوفى دراسة عن دولة آل أجود هي تلك التي قام بها الدكتور عبداللطيف الحميدان بعنوان: "التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية"، مجلة كلية الآداب بجامعة البصرة، العدد ١٦، ١٩٨٠م، ص٣١-١٠٩.

الحكم بعد حوالي ربع قرن من ذلك التاريخ. وبما أن كُلاً من الشام والعراق قد دخلتا، أيضاً، تحت الحكم العثماني فإن نجداً قد أصبحت محاطة بمناطق عثمانية من جميع جهاتها تقريباً. ولَعلَّ هذا مما شَجَّع أشراف الحجاز التابعين للعثمانيين على القيام بغزوات على بعض جهات نجد. وقد بدأت هذه الغزوات بوضوح سنة ٩٨٦هـ، واستمرت بعد ذلك وإن كانت متباعدة في أوقاتها.

ومما يلفت النظر أن أكثر غزوات أولئك الأشراف كانت مُوجَّهة ضد الحاضرة من أهل نجد. وبما أن الحاضرة، عادة، لا يعتدون على قوافل الحجاج، أو القوافل التجارية، فإن من المستبعد أن تكون حماية تلك القوافل سبباً للغزوات الشريفية. بل إنها كانت، فيما يبدو، تهدف إلى بسط نفوذ للأشراف على البلدان النجدية وفرض ضرائب سنوية على سكانها، وكانت البلدة التي لا تفي بما قُرِّر عليها من ضرائب تُعاقَب بشدَّة.

على أن الوجود العثماني في جزيرة العرب ما لبث أن ضعف. وكان أن أُجبرت القوات العثمانية على مغادرة اليمن قبل نهاية النصف الأول من القرن الحَادي عشر الهجري، ثم نجح زعماء قبيلة بني خالد في الاستقلال بمنطقة الأحساء والقطيف عن الحكم العثماني عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٧٠م تقريباً. ونتيجة لذلك اتَّجهت أنظارهم إلى نجد وكأنهم يحاولون إعادة سيرة آل أجود. ولضعف الوجود العثماني في جزيرة العرب عموماً ضعف موقف أشراف الحجاز، وأصبح نفوذ زعماء بني خالد في نجد أقوى من نفوذ أولئك الأشراف؛ وبخاصة في إقليم العارض. وعلى أيٍّ حال فإن النفوذ المشار إليه للقوى المحيطة بنجد لم يكن من القوة بحيث يفرض وجوده على سير أحداث الصراع داخلها بدرجة كبيرة.

والحديث عن أوضاع نجد السياسية الداخلية يقتضي التمييز بين فئتين هما البادية والحاضرة. ومؤهلات الزعامة السياسية لدى الفئة الأولى هي تلك المؤهلات المتوارثة لدى القبائل العربية عبر القرون؛ ومنها الكرم، والشجاعة، والحلم،

وسداد الرأي. ومع أن زعيم القبيلة كان يُختار حسب مؤهلاته القيادية من قبَل رؤساء العشائر - ومن ورائهم بقية أفراد القبيلة - فإن قرب الفرد نَسَباً من الزعيم القديم كان من مُرجِّحات زعامة من يخلفه. ولهذا كانت الزعامة، عادة، مستمرة في أسرة واحدة حتى أصبحت لدى كثير من القبائل وراثية أسرية تقليدية.

وكانت مؤهلات الزعامة لدى حاضرة نجد مشابهة، في بعض جوانبها، لتلك التي لدى باديتها. لكن وصول أسرة الزعيم إلى مركز الصدارة في البلدة، أو الإمارة، كان يَتمُّ بطرق مُتعدِّدة؛ منها أن يكون جَدُّها قد أنشأ البلدة، ومنها أن تنتزعها بالقوة ممن كانوا يَتولَّونها. وفي كلتا الحالين تكون الإمارة وراثية تقليدية في الأسرة، وإن كان من غير الضروري أن تذهب إلى ابن الأمير ذاته في كُلِّ الأحوال.

وكانت علاقة زعيم القبيلة البدوية بأتباعه مختلفة، إلى حَدٍّ ما، عن علاقة أمير البلدة بسكانها. ولَعلَّ من أسباب ذلك اختلاف طريقة مجيء كُلٍّ منهما إلى مركز الصدارة، واختلاف طبيعة ثروة البدوي عن ثروة الحضري. فالزعيم البدوي يأتي إلى الزعامة، عادة، برضا رؤساء عشائر قبيلته واختيارهم؛ ولذا كان الزعيم يُفكِّر في دعم أولئك الرؤساء له، وكان لا بد له من مراعاتهم وتحسين علاقته بهم. ولأنه قد أتى باختيارهم فإنهم كانوا، أيضاً، حريصين على الوقوف معه ومساندته. وثروة البدوي قابلة للنقل. ولو صار عرضة لضيم من زعيمه لأمكنه، بسهولة، أن يطوي خيمته ويسوق إبله وغنمه، ويرحل عن موطن الضيم دون أن يُعرِّض ثروته للضرر الذي ينال، عادة، من ثروته ثابته. وكان من اليسير على مثل هذا الفرد أن يجد ملجأ عند قبيلة أخرى.

أما أمير البلدة فكانت القوة واحدة من طرق وصوله إلى الإمارة. وكان الخوف من الثأر سبباً من أسباب اتِّخاذه، أحياناً، إجراءات احتياطية قاسية. وكانت موارد بعض الأمراء لا تفي بمتطلبات الإمارة كالدفاع والضيافة. وهذا ما كان سبباً في اتِّخاذه إجراءات اقتصادية غير عادلة في نظر الكثيرين. وثروة الحضري - كما

هو معلوم ـ ثابتة كالمزرعة والبيت والدكان. ولهذا فإنه من غير اليسير عليه ـ لو صار عرضة لضيم من أميره ـ أن يتفادى ذلك الضيم دون تعريض ثروته للضرر. ولذلك لم يكن غريباً أن تصف بعض المصادر أولئك الأمراء بالظلم، وأن يقول جبر بن سيَّار، أحد شعراء تلك الفترة، عنهم:

شيوخٍ إلى فكَّرت فيها لكنَّها
ثَعالب طَرفَا تفسد الملك جايره

تَركُّبوا ظلم الرعايا وطَبْعهم
يدلِّك عليه إن مات تشبح بصايره

على أن المصادر الموثوقة أشارت إلى وجود أمراء يسيرون بأتباعهم سيرة حسنة، ويعاملونهم بطريقة شرعية عادلة.

وكان التفكُّك طابع الحياة السياسية في نجد حينذاك. فقد كانت كل بلدة مُستقلَّة بذاتها غير ودُيِّة نحو جارتها رغم القرابة النَسَبية بين أسر إماراتها أحياناً. وكانت القبائل البدوية تتصارع على مواطن الكلأ وموارد المياه. وفي جو مثل ذلك الجو كان الفيصل بين الأطراف المتنازعة هو القوة. ومن هنا جاء المثل المشهور: "نجد لمن طالت قناته"، وجاء قول حميدان الشويعر[1]:

تَرى يا ولدي من ثَمَّن الخوف ماسطا
والانحاس ما خَلَّوا سبيلك طَوعْ

لا شك بالهندي قضَا كُلّ عاجزْ
والشِّرب من دَمِّ الخصيم كْموعْ

(١) كان حميدان من بلده القصب في نجد، وكان من أشهر شعراء زمنه الذين قالوا شعرهم باللهجة العامية، أو بالشعر النبطي.

وقوله:

السيفْ القَاطعْ والعَزْمه
لا رقاب الضِّدّ يهدِّيها

الأرنبْ تَرقد ما تُوذي
ولا شِفت الناس تخلِّيها

والسبع المُوذي ما يرقد
وْلاَ يُوطَا بارضٍ هو فيها

ولقد سبقت الإشارة إلى أن المجتمع النجدي كان ينقسم إلى قسمين: حاضرة وبادية. غير أنه كانت توجد مرحلة انتقالية مُعيَّنة يَمرُّ بها بعض السكان يصعب إلحاق مجتازيها بأيٍّ من القسمين المذكورين. ذلك أن هؤلاء لم يقطعوا الصلة بحياتهم البدوية الَتي كانوا بصدد تركها، ولمَّا يألفوا الحياة الحضرية التي كانوا في سبيل الانتقال إليها.

والدوافع إلى ترك حياة الرعي والتنقُّل وإبدالها بحياة الاستقرار كانت مُتعدِّدة؛ ومن أهمِّها ما كان يعود إلى عوامل مناخية. وكما هو مُتوقَّع جاء استقرار النجديين حول الأمكنة التي تتوافر فيها مصادر المياه اللازمة لقيام الزراعة أهمِّ مُقوِّمات حياة الحضر الاقتصادية حينذاك؛ مثل جوانب الأودية المشهورة والواحات المختلفة.

وقد يكون الموقع الجغرافي؛ مثل كون المكان واقعاً على طريق تجارية، من الأمور المُهمَّة في اختيار موطن الاستقرار، ولـكن صلاحيته للزراعة كانت في الغالب فوق كل اعتبار.

وقد اختلفت البلدان النجدية في طريقة تَطوُّرها واتِّساعها. فبعضها كان قرية واحدة أخذت تنمو شيئاً فشيئاً حتى أصبحت بلدة كبيرة. وهذا هو الغالب بالنسبة

لكثير من بلدان نجد. وبعضها تكوَّن من مجموعة أماكن سكنية أو قرى صغيرة متجاورة أخذت تنمو وتتسع حتى اتَّصل بعضها ببعض وأصبحت في نهاية الأمر مدينة واحدة.

أما تكوُّن القرية ذاتها فإنه اختلف، أيضاً، من قرية إلى أخرى. فأحياناً تكوَّنت القرية عن طريق أحد السكان الحضر - أو مجموعة منهم - بشراء الأرض من مالكها كما حدث بالنسبة للعُيَيْنة، أو بإعطاء المالك الأرض له كما هي الحال بالنسبة للدِّرعية، أو بأخذها من صاحبها بالقوة كما كان من أمر البيْر. وقد يحدث إنشاء القرية عن طريق استيطان أسرة، أو فخذ من قبيلة، حول مورد ماء، ثم البدء بالزراعة حوله وبناء البيوت. على أن المُتأمِّل في نشأة كثير من بلدان نجد، إبان تلك الفترة المُتحدَّث عنها، يرى أنها أنشئت بواسطة الحضر من السكان.

وفي المرحلة الانتقالية من البداوة إلى التحضُّر كان جزء من وقت المنتقلين مُخصَّصاً للرعي وآخر للزراعة. وفي هذه المرحلة بالذات كانت أهمِّية الحِمَى - المرعى أو المَفْلى - كبيرة جداً لاعتماد السكان على المرعى جزئياً.

والواقع أن أهمِّية الحِمَى ظَلَّت مراعاة من قِبَل السكان حتى بعد تلك المرحلة. يُوضِّح ذلك - مثلاً - موقف أهل حَرْمة حين طلَبوا من عبدالله الشَّمَري أن ينزل في أعلى الوادي لئلا يحول بينهم وبين المرعى.

كانت الزراعة أهمَّ مُقوِّمات الحياة الاقتصادية لدى حاضرة نجد. وكانوا يُحبُّونها ويولونها عناية كبيرة. وكان يزاولها العرب الأصلاء وغيرهم ويعتمدون عليها مهما اختلفت مكانتهم الاجتماعية واتِّجاهاتهم الفكرية. فأغلب القادة الذين نشأت بعض البلدان النجدية على أيديهم اهتموا بالزراعة واحتضنوها. وبعض علماء تلك الفترة وقفوا منها الموقف الذي وقفه أولئك القادة. وأقرب مثال على ذلك أن الفقيه المؤرخ أحمد المنقور كان يَتعيَّش من الزراعة.

وبطبيعة الحال لم يكن جميع مالكي الأرض يقومون بزراعتها دائماً؛ بل كان الوضع الاقتصادي هو المهيمن على الموقف. فأحياناً يقوم المالك بالزراعة، وأحياناً يستأجر من يقوم عنه بها. وإذا كان غنياً بدرجة تُخوِّله شراء عبيد فإن هؤلاء كانوا يساهمون في زراعة أرضه. وأحياناً أخرى يُؤجِّر المالك أرضه إلى شخص آخر ليقوم بزراعتها، أو يتَّفق معه على مزرعته بقسم مُعيَّن من ثمرتها.

وكانت نجد تنتج أنواعاً مختلفة من المحصولات الزراعية والخضروات والفواكه. لكن النخيل كانت ـ فيما يبدو ـ أهمَّ تلك الأنواع لدى السكان، كما كانت أحبَّ الأشجار إلى نفوسهم لما تعود به عليهم من فوائد مُتعدِّدة. فإضافة إلى ثمارها المُهمَّة في التغذية كان كل جزء منها يُستخدَم في غرض من أغراض حياتهم اليومية. وليس غريباً متى ما أدركت قيمتها الاقتصادية الكبيرة أن يَتغنَّى بها شاعر مثل حُمَيدان الشويعر بقوله:

تَرى الخَيْر في راسيات الجذوعْ
إلى دَلْبَحَن السنين الحَطَايمْ
توفِّر حلالك وتفرح عيالك
ويكثر نوالك بيوم الصَّرايمْ

وأن يحثَّ على الدفاع عنها بقوله:

احربوا واضربوا دون حُذْب الجريدْ
واذكروا قول حاتم ولا شِ سواه
موتكم بالبَواترْ لكم كبر كار
وموتكم بالتوجِّع عليكم زراه

وفي منطقة جغرافية وفترة زمنية كالمنطقة والفترة المُتحدَّث عنهما كانت هناك أهمِّية اقتصادية لأنواع من الحيوانات. فقد كانت الإبل مُهمَّة بالنسبة للسكان

المستقرين. كان المزارعون يستخدمونها أحياناً لاستخراج الماء من الآبار، وكانت تُعمَل من جلودها المدبوغة غروب لإخراج الماء. وبجانب استخدامها في مجال الزراعة فإنها كانت تخدم التاجر والمسافر والمحارب. وكان لحمها من أهمِّ مصادر اللحوم لتغذية السكان. وكانت البقر ذات فائدة جيدة؛ سواء في المجال الزراعي أو في إمداد الأهالي باللبن واللحوم، كما كانت المَعز تُقتَنى من قِبَل الحضر للانتفاع بألبانها.

أما الخيل فلم تكن كثرتها عند الحضر مثل كثرتها عند البدو لاختلاف الحياة الاجتماعية لدى الطرفين. فقد كانت الغزوات بين الفريق الأول أقلَّ منها بين الفريق الثاني. وفي الغزوات تظهر أهمِّية الخيل الخاصة.

ذلك باختصار ما كان من أمر الزراعة أهمَّ مُقوِّمات الحياة الاقتصادية لدى حاضرة نجد. أما الجانب الحيوي الآخر من جوانب تلك الحياة لديهم فقد كان التجارة. وكان يوجد ثلاثة أنواع من التجارة يمكن أن يُقال عنها: تجارة مَحلِّية وتجارة إقليمية وتجارة خارجية. أما الأولى فقد تَجلَّت في ذلك التعامل التجاري بين السكان الحضر أنفسهم في كل بلدة على انفراد. وكانت المنتجات الزراعية أو المصنوعات المَحلِّية تُباع، أحياناً، بطريقة مباشرة إلى المستهلك، وأحياناً تباع إليه بواسطة طرف آخر يأخذ نصيبه من الكسب من أحد الفريقين، كما كان، أحياناً، يشتري السلعة من المزارع أو الصانع أو يستوردها من خارج البلدة ثم يبيعها إلى المستهلك. أما التجارة الإقليمية فهي تلك التي كانت قائمةً بين بلدتين نجديتين أو بين حاضرة نجد من جهة وباديتها من جهة ثانية. ومن المعروف أن بعض البلدان أكثر إنتاجاً من البعض الآخر. فكان الفائض عند بعض يُصدَّر إلى البعض الآخر المحتاج. ومن المعروف، أيضاً، أنَّ كُلَّ واحد من الطرفين، الحضر والبدو، محتاج للآخر. فالبدوي يأتي إلى البلدان ليشتري مُتطلَّباته من تمر وحبوب وملح وملابس وأدوات وأسلحة، وليبيع ما يزيد عن حاجته من إبل وأغنام ودهن

وجلود وأصواف. وفي أحيان قليلة كان بعض التجار من الحضر يذهبون إلى أماكن وجود البدو ليشتروا ما يجدونه مناسباً لهم ويبيعوا ما قد يكون معهم مما يحتاج إليه أولئك البدو.

أما التجارة الخارجية فهي تلك التي كانت قائمةً بين سكان نجد عموماً وسكان الأقطار الأخرى. فلم تكن نجد تنتج كُلَّ ما يحتاج إليه سكانها. ولذا كان لا بد من استيراد ما كان غير متوافر فيها، أو ما كان غير كاف؛ مثل بعض الأطعمة والملابس والسلاح، لكنها من ناحية أخرى كانت غنية ببعض المنتوجات الحيوانية مثل الإبل والخيل. ومن هنا انطلق التجار النجديون من بلادهم إلى البلدان الأخرى بائعين ومشترين.

لقد بلغت درجة غنى منطقة نجد بالإبل حَدّاً جعلها تُسمَّى "أم البل". وطبقاً لما ذكره أحد الرحالة الغربيين الذين كتبوا حول هذا الموضوع بعد هذه الفترة بقليل كان الرجل من قبيلة عنزة الذي يملك أقلَّ من عشر نوق يُعدُّ فقيراً. وكان مُعدَّل ثروة الأسرة من قبيلة قحطان نحو ستين بعيراً.

وسواء كان التقدير السابق صحيحاً أو مبالغاً فيه إلى حَدٍّ ما فإنه ما من شك أن نجداً كانت غنيةً بالإبل بمقدار يزيد كثيراً على حاجتها. وهذا أمر استمر إلى قرب منتصف القرن الرابع عشر الهجري. وكانت الخيل النجدية تُصدَّر إلى مناطق مختلفة من بينها البصرة. ومنها ما كان يؤخذ من هناك إلى الهند.

ومع أن التجار النجديين ذهبوا إلى مختلف الأقطار القريبة منهم فإن علاقاتهم التجارية بالجهات الشرقية والشمالية الشرقية من جزيرة العرب كانت أعمق من غيرها. وكانوا يستوردون من المنطقة الشرقية، أو عن طريق موانئها، بعضاً مما يحتاجون إليه.

وكثيراً ما ذهب إلى الجهات السابقة مع التجار أناسٌ يبحثون عن العمل؛ سواء في المجال الزراعي أو البحري أو غيرهما. وقد استقر بعض أولئك المذكورين في تلك الجهات، ووصل استقرارهم إلى بغداد حتى أصبحوا فيها قوةً يستعين بها بعض باشوات الأتراك في صراعهم حول السلطة في تلك المدينة.

وعلى أيٍّ حال فإن القوافل التجارية بين نجد وغيرها من الأقطار كانت تَتعرَّض أحياناً، للخطر نتيجة لهجمات رجال القبائل عليها؛ وذلك لانعدام السلطة السياسية القوية القادرة على حفظ الأمن في المنطقة. صحيح أن القوافل كانت تأخذ معها رفيقاً من كل قبيلة يُتوقَّع المرور في منطقتها فَتسلم من مهاجمتها، ولكن القوافل، أحياناً، تُصادَف بفريق من قبيلة ليس معها من ينتمي إليها فتصبح عرضة لنهبها.

وفي مجال الكلام عن الناحية الاقتصادية في نجد تجدر الإشارة إلى الحج وفائدته لأهل هذه المنطقة. فمع أن من أن الأثر الكبير للحج من الناحية الاقتصادية كان في الحجاز؛ وبخاصة مدنها الكبرى، فإن نجداً لم تكن بمعزل عن التأثُّر به من هذه الناحية. فبعض البلدان كانت واقعةً في طرق الحج المُتَّجهة من شرقي الجزيرة العربية وشمالها الشرقي وما وراءهما إلى الحجاز. وكثيراً ما تَوقَّفت قوافل الحجاج في هذه البلدان لشراء ما تحتاج إليه من أطعمة وغيرهما، أو إبدال بعير أجهده السير بآخر. وقد يبيع رجال تلك القوافل شيئاً مما معهم إلى السكان المَحلِّيين.

ولم يكن أسلوب حياة بادية نجد في تلك الفترة مختلفاً عما كان عليه أسلوب آبائهم وأجدادهم عبر العصور التاريخية المختلفة. وقد فرضت عليهم الظروف المحيطة بهم استمرار ذلك الأسلوب وبقاءه. ظَلَّت الصحراء بمراعيها، والخيمة والإبل، أهمَّ مُقوِّمات حياتهم. كان البدوي يرى في الصحراء المكان المناسب

لحياته، كما كان يرى فيها ضماناً للحفاظ على شخصيته وتقاليده. وإضافة إلى كونها مجالاً فسيحاً لتحرُّكه فإنها كانت منطقة دفاعه ضد أيِّ عدوٍّ من خارجها. وكانت الخيمة المأوى المناسب لمن حياته غير مستقرة وظروف معيشته تُحتِّم عليه الانتقال من مكان إلى آخر جرياً وراء المراعي الحسنة؛ إبقاء لحيواناته وتنمية لها؛ وبالتالي إبقاء لحياته الاقتصادية ذاتها.

وبطبيعة الحال كان المطر أهمَّ شيء يُؤثِّر في حياة البدوي تأثيراً مباشراً. وإذا كان مُهماً في حياة الحضري فإنه كان مُهماً جداً بالنسبة لرجل البادية. فهو مصدر سعادته وغناه، كما أنَّ القحط عَدوُّه اللَّدود الذي يضطره إلى الالتجاء إلى المدن والقرى ضماناً لحياته المُهدَّدة بالخطر. والواقع أن عدم نزول الأمطار لم يكن شيئاً غير مألوف في نجد. وكثيراً ما سبب انقطاعه الكثير من المشاكل للبادية بخاصة؛ سواء تلك المشاكل الاقتصادية كتلف الحيوانات أو ضعفها أو المشاكل المُتمثِّلة في الحروب. وذلك أن القبائل التي لم تَحظَ بالأمطار في أماكن نفوذها ستحاول حتماً دخول المناطق التي نزل عليها المطر وإن كانت تابعة لقبائل أخرى. وأحياناً تسمح هذه الأخيرة لها بالدخول إلى مناطقها تَبرُّعاً أو مقابل شيء معلوم، ولكنها أحياناً أخرى لا تسمح لها بذلك، فتقوم بينهما حروب.

وكانت الإبل أهمَّ مُقوِّمات حياة البدوي الاقتصادية وأهم حيوان بالنسبة إليه، فهي مصدر من مصادر اللَّبن واللَّحم لديه، وهي وسيلة مواصلاته، وهي فوق هذا وذاك معيار لكثير من أمور حياته الاجتماعية. فالدِّيات والمهور - مثلاً - كانتا من الأشياء التي تُقدَّر بأعداد مُعيَّنة من الإبل.

وكانت الخيل، أيضاً، كثيرة لدى رجال القبائل النجدية بحيث كانوا يستغنون عن بعضها فيبيعونه، ويُصدَّر، أحياناً، إلى الأقطار الأخرى كما ذُكر سابقاً. وكانت منفعة الخيل للبدوي كبيرة؛ وبخاصة أن حياته كانت مملوءة بمفاجآت

الغزو؛ دفاعاً وهجوماً. وهذا ما يَتطلَّب هذه الحيوانات السريعة. وإضافة إلى منفعتها فإنها كانت من الأشياء التي يُعتَزُّ باقتنائها ويُفتَخَر في المجال الاجتماعي.

وكانت الأغنام، أيضاً، مُهمَّة من الناحية الاقتصادية للقبائل الرُّحل. وكثيراً ما اشتروا من منتجاتها حاجاتهم الضرورية الأخرى كالأطعمة والملابس والأسلحة؛ إضافة إلى عمل بيوتهم من أصوافها، وإمدادها لهم باللَّبن واللَّحم.

وغنيٌّ عن البيان أنَّ حياة البدو الاقتصادية تقوم على الرَّعي. ولكن هناك مصادر أخرى، من أهمِّها الغزو، وهو سلاح ذو حَدَّين؛ فالغني اليوم بسببه قد يصبح فقيراً غداً بسببه أيضاً. ومن تلك المصادر ما كانت تأخذه بعض القبائل من إتاوات على بعض السكان الحضر.

ولقد سبقت الإشارة إلى استفادة حاضرة نجد من مرور القوافل المُتَّجهة إلى الحجاز في منطقتهم. والواقع أن استفادة البدو في هذه المنطقة كانت أكبر من استفادة الحضر. ذلك أن الحجاج كانوا يستأجرون، أحياناً، إبلاً من البدو لنقلهم، وكانوا يعطون رؤساء القبائل هدايا اتِّقاءً لخطر هجومهم عليهم، كما كانوا يدفعون إتاوات مُعيَّنة، أحياناً، مقابل مرورهم بمناطق نفوذهم، وكانوا يستأجرون منهم حَرَساً وأدلاَّء ويشترون منهم أغناماً ودهناً ونحوهما. وفوق كل هذه الأمور كانت تلك القوافل في بعض الأوقات هدفاً لغارات البدو ونهبهم.

وظروف الحياة الخاصة بالبدوي من حيث عدم الاستقرار في مكان دائم، ومن حيث الصراع حول موارد المياه ومواطن الكلأ، جعلته يُحسُّ بارتباطه القوي بقبيلته وولائه لها. وما دام فرداً منها من حيث النَسَب فإنه كان لا يرى فرقاً بينه وبين الأفراد الآخرين منها في مجال النظرة الاجتماعية. وبقي التفاوت في المكانة مبنيًا على صفات شخصية مُعيَّنة كالشجاعة والكرم. وما من شك أن الشخصيات التي كانت قادرةً على تحقيق قدر أكبر من تلك الصفات والتحلِّي بها كانت لها

مراكز الصدارة من الناحية العملية ومن حيث نظرة المجتمع البدوي إليها. وليس غريباً أن كانت الشجاعة والكرم على رأس السجايا المُمهِّدة للقيادة؛ لأن حياة البدو كانت مملوءة بمفاجآت الغزو والضيافة. والذي كان قادراً على القيام بأداء واجبات تلك الظروف كان مؤهلاً لاحتلال المركز القيادي. ومن الشخصيات التي كانت مرموقة في المجتمع، إلى جانب رؤساء القبائل، العُقَداء وقضاة العُرْف وشعراء القبيلة.

الحياة العلمية والدينية

كان التعليم في نجد مَحدوداً من حيث المُتعلِّمين ومن حيث المواد المُتعلَّمة؛ وذلك لانشغال أكثر السكان بالبحث عن لقمة العيش. على أنه قد بُذلت جهود فردية للتعليم حسب الإمكانات المتوافرة حينذاك. ومن الواضح أن العَامل الديني كان له الأثر الأكبر في بذل تلك الجهود، التي كانت لها ثمار جيدة. ولقد وُجد علماء في نجد قبل القرن العاشر الهجري كما تَدلُّ على ذلك الوثائق الشرعيةَ. ولكن المصادر لا تمدُّنا بمعلومات وافية عن أولئك العلماء قبل ذلك القرن. ثم أخذت الصورة تَتَّضح أكثر فأكثر، وتَبيِّن أن الحركة العلمية في نمو. ذلك أن عدد علماء القرن الحادي عشر كان ضعف علماء القرن العاشر، وكان عدد علماء النصف الأول من القرن الثاني عشر يقرب من عدد علماء القرن الذي سبقه كله. وإضافة إلى ذلك فإن عدداً لا بأس به من علماء نجد لم يكتفوا بالدراسة في منطقتهم؛ بل سافروا إلى بلدان أخرى كالشام ومصر لِتلقِّي العلم على أيدي كبار علماء الحنابلة.

وكان أكبر عالم ظهر في نجد خلال القرن العاشر الهجري أحمد بن عَطْوة، الذي درس في دمشق وأصبح المرجع في الفقه لدى النجديين، وألّف عِدَّة رسائل

في هذا الميدان[١]. أما القرن الحادي عشر فقد اشتهر فيه ثلاثة علماء نجديين في ثلاثة بلدان: محمد بن إسماعيل في أُشَيْقر، وسليمان بن علي - جد الشيخ محمد ابن عبدالوهاب - في العُيَيْنة، وعبدالله بن ذَهلان في الرياض[٢].

وكان التعليم مُركَّزاً على مادة الفقه. وقد جاء هذا التركيز منسجماً مع الهدف الأساسي من التعلُّم حينذاك وهو التأهيل للقضاء. وكان هناك اكتفاء ذاتي في هذا المجال. ذلك أن أكثر البلدان النجدية كان لها قضاتها. وكان أكثر القضاة النجديين يَتحلَّون بالعدل والنزاهة. ولهذا كانوا مَحلَّ تقدير المجتمع النجدي بصفة عامة. لكن فئة منهم لم تكن تَتحلَّى بما تَحلَّت به تلك الأكثرية، فأصبحت مَحلَّ نقدٍ لاذع من أشدِّ فئات المجتمع حساسية؛ وهم الشعراء.

على أن الحديث عن القضاء الشرعي خاص بحاضرة نجد. أما باديتها فلم يكن لديهم قضاة شرعيون، وإنما كانوا يتحاكمون إلى العُرْف وتقاليد قبائلهم.

والمصادر غير مُتَّفقة في وصفها للحالة التي كان عليها النجديون من حيث العقيدة والقيام بأركان الإسلام. فالمتحمِّسة لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب تُعطي صورة قاتمة لتلك الحالة. لكن بعضها يختلف عن البعض الآخر في المدى الذي وصل إليه قتام تلك الصورة. فابن غَنَّام أصدر حكماً عاماً على أهل نجد

---

(١) هو أحمد بن يحيى بن عطوة من النواصر من تَميم. وُلد في العُيَيْنة، وتوفي بالجُبَيْلة عام ٩٤٨هـ. ولمعرفة المزيد عنه يمكن الرجوع إلى كتاب الشيخ عبدالله البَسام، علماء نجد خلال ستة قرون، مكة المكرمة ١٣٩٨هـ، ج١، ص١٩٩-٢٠٣.

(٢) محمد بن إسماعيل هو محمد بن أحمد بن إسماعيل من آل بكر من الرَّباب من تميم المنسوبين بالحلف إلى قبيلة سُبَيع. وُلد في بلدة أُشَيقر، وتوفي بها عام ١٠٥٩هـ. انظر عنه المصدر نفسه، ج٣، ص٧٨٨-٧٩٠.

أما سليمان بن عليَ فهو سليمان بن علي بن مُشرَّف من آل وُهَبَة من تَميم. وُلِد في أُشَيقر، وتوفي بالعُيَيْنة سنة ١٠٧٩هـ. المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٩-٣١٣.

وأما عبدالله بن ذَهلان فهو عبدالله بن محمد بن ذَهلان من آل مسحوب من زِغب. وُلِد في العُيَيْنة، وتوفي بالرياض عام ١٠٩٩هـ. المصدر نفسه، ج ٢، ص٦٢٠-٦٢٢.

بأنهم كانوا يأتون كل باب من أبواب الشرك، وأورد تفصيلات عما كان يُفعَل عند قبور بعض الصحابة الذين قُتلوا إبَّان حروب الرِّدة في الجُبَيْلة وما حولها، كما ذكر ما كان يُقام به عند بعض الأشجار هناك. وابن بشر قال: إن الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر قد فشا في نجد، لكنه لم يذكر إلا أعمالاً تعمل عند قُبَّة مبنية على قَبْر يُقال: إنه قبر زيد بن الخطاب، رضي الله عنه، في الجُبَيْلة[1]. ويَتَّفق هذان المؤرخان في تسمية تلك الفترة بالجاهلية. أما الشيخ محمد بن عبدالوهاب نفسه فقد ذكر اعتقاد بعض الجهَّال بأناس مثل تاج وشَمْسان وحَطَّاب وحسين وإدريس، كما ذكر عن أحد خصومه بأنه كان يَتعاطَى الطلاسم، وأنه كان يوجد في معْكال، أحد أحياء الرياض، مُتصوِّفة على مذهب ابن عربي وابن الفارِض[2]. بل الأهمُّ من هذا كله أنه ذكر بأن فئات من بعض القبائل لم تكن تقوم بأركان الإسلام، وأن منها من كفر بالكتاب كُلِّه، وتبرأ من الدين، وأنكر البعث بعد الموت، واستهزأ بالحضر الذين يؤمنون به.

على أن بعض المصادر تبرز نجداً موطناً لعلماء أجلاَّء أكثرهم كان يَتحلَّى بالورع والصلاح، كما أنها تُصوِّر غالبية سكانها من الحضر - على الأقل - مُتمسكة بأحكام الإسلام. مُنفِّذة لواجباته وسُنَنه. والأشعار التي قيلت في تلك الفترة لا تحتوي على ما يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة أو يتنافى مع أحكام الإسلام العامة: بل إن تلك الأشعار تبرز تَمسُّك قائليها بعقيدتهم والتزامهم بإسلامهم، وتُوضِّح أن المجتمع الذي عاشوا فيه كان مجتمعاً مستقيماً في أكثر تَصرُّفاته.

---

(١) كان زيد بن الخطاب، رضي الله عنه، ممن استشهد في معركة عقرباء، التي وقعت بين الصحابة والمرتدين من بني حنيفة في عهد الخليفة أبي بكر، رضي الله عنه.

(٢) ابن غنّام، حسين، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، طبعة أبي بطين، القاهرة، ١٣٦٨هـ، ج ١، ص١٤٧ .

والمُتتبِّع لتاريخ ابن غَنَّام يرى بوضوح تَحمُّسه لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ومعرفة اتِّجاه صاحب المصدر يساعد على تقويم ما أورد من معلومات. وفضل دعوة الشيخ محمد أمر لا يمكن إنكاره، لكن ربما كان تَحمُّس ابن غَنَّام لهذه الدعوة المباركة من الأمور التي دفعته إلى تعميم حكمه على أهل نجد قبل ظهورها ليوضِّح مقدار فضلها.

ومما يلفت النظر أن الأمور التي ذكرها ابن غنَّام كانت محصورةً في إقليم العارض، وأنه لم يشر إلى وجود مثل هذه الأمور في الأقاليم النجدية الأخرى. فهل عدم إشارته دليل على عدم وجودها في تلك الأقاليم أم هو - على الأقل - دليل على عدم بلوغها الدرجة التي وصلت إليها في ذلك الإقليم؟ من المعروف أن الجُبَيْلة كانت موضع قبور بعض شهداء الصحابة، رضي الله عنهم، الذين استشهدوا في حربهم ضد مسيلمة وأتباعه. ووجود قبور أمثال هؤلاء قد يكون سبباً لانزلاق بعض الجهال في تقديسها. والانزلاق في مثل هذه الأمور قد يُؤدِّي إلى التورُّط في أمور أخرى؛ مثل تقديس الأشجار ونحوها. ومهما يكن من أمر فإنه من الممكن القول بأن تعميم ابن غَنَّام من غير المُسلَّم بصحته تاريخياً. ولقد ورد في احدى رسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب نفسه قوله: "أهل القصيم غَارُّهم أنه ما عندهم سَادةٌ ولا قُبَب".

وابن بشر - كما هو واضح من تَأمُّل تاريخه - كان، أيضاً، من المُتحمِّسين لدعوة الشيخ محمد وأنصاره. وموقف كهذا قد يُؤدِّي إلى إصدار أحكام تنقصها الدقة. ولو أخذنا كلامه عما حدث إثر انهيار الدولة السعودية الأولى - مثلاً - لرأينا الدليل على ذلك. فقد قال عن أهل نجد حينذاك:

"فتقاتلوا على سنن ما أنزل الله بها من سلطان، وهجر كثير منهم الصلاة وأفطر في شهر رمضان، وجَرَّ الرباب وأصوات الغناء في المجالس، وسفت

الذواري على المجامع والمدارس، وعمرت المجالس بعد النداء للصلوات، واندرس السؤال عن أصول الإسلام وأنواع العبادات»[1].

ومن الواضح عدم صحة بعض ما ذكره هنا. وهو إنما أورده بمثل ما أورده به إظهاراً لفضل الدعوة وأنصارها أيام الدولة السعودية الأولى، وإيضاحاً للدور الكبير الذي قام به الإمام تركي بن عبدالله فيما بعد. على أن ابن بشر ـ من ناحية أخرى ـ لم يُعمِّم حدوث الشرك عند كافة النجديين قبل ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وإنما استعمل لفظ (فشا) الذي لا يَدلُّ على العموم. ومُتوقَّع من ابن بشر ـ مهما كانت مبالغته ـ ألاّ يُعمِّم الشرك عند أولئك القوم وهو الذي ذكر في سوابقه من الأمور عنهم ما يدل على عدم إمكانية ذلك التعميم.

أما بالنسبة لما ذكره الشيخ محمد عن الطلاسم والمُتصوِّفة فإنه من الواضح أنه خاص بمناوئيه. وقد نص المنقور[2] في كتابه: الفواكه العديدة على أن من علماء نجد من كان لا يكتفي بكراهية الطلاسم وإنما يُحرِّمها مُطلقاً. أما المُتصوِّفة، الذين أشار الشيخ محمد إلى وجودهم في الرياض، فلم ترد أسماؤهم من بين علماء نجد المترجم لهم.

على أن ما ذكره الشيخ حول بادية نجد أمر جدير بالاهتمام. ذلك أنه يُوضِّح المدى الذي وصل إليه جهل فئات من قطاع كبير من سكان نجد بأمور الدين وعدم ممارستهم لواجباته. ولا ينبغي أن يُستغرَب وجود ذلك الجهل. فقد ذكر العَيَّاشي، الرحالة المغربي الذي زار الحجاز في القرن الحادي عشر الهجري، أنه رأى جماعات من البدو تُؤدِّي الصلاة في المسجد النبوي، لكنها لا تعرف كيف

(١) انظر كتابه عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبدالرحمن آل الشيخ، ط٢، ١٣٩١هـ، ج٢، ص٧.
(٢) هو أحمد بن محمد المنقور من بني سَعْد من تَميم. وُلد في حوطة سُدَيْر عام ١٠٦٧هـ، وتوفي بها عام ١١٢٥هـ. وهو فقيه ومؤرخ. البسام، مصدر سبق ذكرَه، ج١، ص١٩٥-١٩٧.

تُؤدِّيها. فأحياناً تُصلِّي ركعات أكثر من ركعات الصلاة، وأحياناً تُؤدِّي بعض الركعات من دون سجود. ولم يكن تَألُّمه من رؤية ذلك الجهل أعظم من تألُّمه من رؤية العلماء يَمرُّون بهؤلاء ويَمضون مكتفين بالابتسام دون محاولة إرشادهم.

ومن المقارنة بين المصادر المختلفة يبدو أن الحالة الدينية التي كانت سائدة في نجد لم تكن بالصورة التي أظهرتها بها بعض المصادر المُتحمِّسة لدعوة الشيخ محمد، وأنها كانت بعيدة عن ادِّعاء بالجريف الذي قال: إن كُلَّ أثر للإسلام كان قد اختفى من نجد، وإن قراءة القرآن والصلاة والزكاة والحج كلها أمور قد نُسيت من قبَل سكانها. غير أن تلك الحالة لم تكن، أيضاً، مستقيمة كما قد يستنتج من المصادر الشعرية. لقد كان هناك جهلة يمارسون أعمالاً شركية. لكن عدد هؤلاء كان قليلاً إذا قورن بمجموع السكان. وكان هناك كثير من البادية الذين لا يقومون بأركان الإسلام نتيجة جهلهم بها. ولكن كان هناك ملتزمون بأحكام الشريعة، وقائمون بأركان الدين الإسلامي وما يأمر به الدين من واجبات وسنن.

وهكذا يَتبيَّن أن نجداً كانت في حاجة إلى دعوة إصلاح دينية تُوضِّح للجُهَّال ما خفي عليهم من أمور الدين وأحكامه، وتزيل ما شاع من أمور لا تَتَّفق مع توحيد الله الخالص. وكانت، أيضاً، في حاجة إلى حركة إصلاح سياسية تجمع شتات إماراتها وقبائلها ليسود الأمن والاستقرار، وكانت المكان الذي يُتوقَّع أن تنجح فيه مثل تلك الدعوة الدينية وهذه الحركة السياسية. ذلك أن الصوفية لم تكن ذات جذور عميقة فيها، وأن باديتها - وإن جهلت فئاتٌ كبيرةٌ منها أمورَ دينها لعدم وجود من يرشدها - كان مُتوقَّعاً ألاَّ تقاوم الدعوة بصلابة؛ وبخاصة إذا كان الجهاد هدفاً من أهدافها. وكانت، أيضاً، المكان الذي يُتوقَّع أن تنجح فيه مثل تلك الحركة السياسية. ذلك أنها كانت بعيدة عن متناول السلطة العثمانية المركزية؛ وبخاصة أن النفوذ العثماني في جزيرة العرب كان قد تَقلَّص إلى درجة كبيرة. وكان في إمكان الحركة السياسية المَحلِّية أن تحرز نجاحاً أوَّليّاً - على الأقل - قبل أن

تلتفت إليها الأنظار الخارجية- وتمتد إليها أيدي الآخرين للقضاء عليها. وهذا ما حدث لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وحكم آل سعود الذي ناصرها كما هو معروف في تاريخ المنطقة الحديث.

نظرات في كتابات رحالة ومستشرقين
عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

قبل الدخول في صلب ما أردت الحديث عنه أودُّ أن أقول بأن تناول المستشرقين يَتَّفق، أحياناً، مع تناول الرَّحالة الغربيين الذين زاروا الأقطار العربية؛ وذلك من وجوه في طليعتها أن كُلاً من هؤلاء وأولئك - إلا من ندر - كانوا يعرفون اللغة العربية، وأن كثيراً من الأمور التي تناولوها كانت متشابهة. والمُتأمِّل في كتابات الفريقين يرى تَأَثُّر بعض أفراد الفريق الأول بكتابات الفريق الثاني تَأَثُّراً واضحاً.

لقد بدأت الرحلات الاستطلاعية الأوروبية إلى الجزيرة العربية منذ مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. وكان في طليعتها رحلة لودفيكو دي فارتيما، التي بدأها سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م. وبدايتها تلك كانت متزامنة مع بداية الغزوات الاستعمارية الأوروبية؛ وبخاصة الغزوات البرتغالية لسواحل البحر الأحمر والخليج العربي. وكانت دوافع من قاموا بتلك الرِّحلات مختلفة؛ فمن الرحالة من قام برحلته بترتيب من جهة أوروبية مسؤولة؛ سواء كانت أهدافها علمية أو استعمارية أو مزيجاً من هذه وتلك. ومنهم من قام برحلته بدافع ذاتي أملته عليه الرغبة المُلحَّة لديه في الاكتشاف والطموح إلى الشهرة.

ولقد جاءت كتابات أولئك الرَّحالة مختلفة من حيث الجودة والضعف، ومن حيث الدِّقة وعدمها، ومن حيث الحياد والتحيُّز؛ وذلك وفقاً لمؤهلات الكاتب الذاتية ودوافع كتابته. على أنه مهما وُجد في تلك الكتابات من نقط ضعف واضحة فإن فيها كثيراً من المعلومات المفيدَة للباحثين في أمور البلاد التي كتبوا عنها وأحوال سكانها.

وكتابات الرَّحالة والمستشرقين عن جزيرة العرب واسعة التشعُّب؛ وذلك لتعدُّد مناطق الجزيرة. وهذا يعني صعوبة الحديث عن تلك الكتابات التي تناولت كل هذه المناطق مهما حاول المُتحدِّث أن يكون حديثه مختصراً. ولهذا رأى كاتب هذه السطور من المستحسن أن يقتصر في حديثه على نظرة عدد من الفريقين إلى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

لقد حظيت تلك الدعوة بكثير من كتابات الرَّحالة الغربيين والمستشرقين. وكان من هؤلاء وأولئك من كتب عنها كتابات تَتَّفق، بصفة عامة، مع أهم أصولها وأحداث تَطوُّرها. ومنهم من كتب عنها كتابات بعيدة كل البعد عن تلك الأصول وهذه الأحداث. وربما كان التحيُّز هو الباعث الأساسي للكتابات الأخيرة، لكن ربما كان الجهل بحقيقتها، أو الاعتماد على أقوال خصومها، هما السبب الأكبر وراء هذه الكتابات. بل إن من الممكن القول بأن سوء عرضها؛ قولاً أو فعلاً، من قِبَل بعض العامة، أو أشباه العامة، المُتحمِّسين لها قد أسهم، أحياناً، في تشويه صورتها.

كان القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، الذي ظهرت في منتصفه دعوة الشيخ محمد، قد شهد ازدياد اهتمام بعض الأوروبيين بمعرفة جزيرة العرب؛ أرضاً وسكاناً. ومن أدلة ذلك الاهتمام وهذه الرغبة اقتراح ميخائيلس، أستاذ علم اللغة في جامعة غوتنجن، إرسال بعثة علمية إلى الجزيرة العربية لمعرفة أحوالها. ولقي اقتراحه ترحيباً من ملك الدانمارك، فريدريك الخامس، الذي عيَّن خمسة علماء للقيام بالمَهمَّة، ووضع تحت تَصرُّفهم الإمكانات اللازمة للسفر، كما قدَّمت إليهم بعض الجهات العلمية ما كان لديها من معلومات.

وكان من أولئك العلماء الخمسة المهندس الألماني الأصل كارستن نيبور، المولود في هانوفر عام ١١٤٦هـ/ ١٧٣٣م، الذي كان يعرف شيئاً من اللغة

العربية. وقد ألّف كتاباً ضَمَّنه ما رآه ودرسه في جزيرة العرب، ونُشِر في كوبنهاجن باللغة الألمانية سنة ١٧٧٢م، ثم ترجمه، آخر الأمر، روبرت هِيرون إلى الإنجليزية بعنوان ترجمته العربية: رحلات عبر جزيرة العرب وأقطار أخرى في الشرق، وطُبِع في أدنبرا في مجلَّدين عام ١٧٩٢م. وقد اعتمد عليه، فيما يبدو، عدد من الأوروبيين الذين كتبوا عن تلك الدعوة فيما بعد. وعندما وصل من اليمن إلى الساحل الشرقي للجزيرة العربية، عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م؛ أي العام الذي توفي فيه الأمير محمد بن سعود، كان قد مضى على البيعة التي تَمَّت بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب وذلك الأمير واحد وعشرون عاماً تَمكَّنت في أثنائها الدولة الجديدة القائمة على أساس تلك البيعة من تحقيق نجاح واضح ضد خصومها داخل نجد.

وإضافة إلى كون نيبور أوَّل أوروبي تُنشَر له كتابة عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فإن من الواضح أن كتابته لم يكن فيها تَعصُّب ضدها. وما ورد من أخطاء في تلك الكتابة مَردُّه، فيما يبدو، إلى الجهل بحقيقة تلك الدعوة. ذلك أنه - كما ذكر - لم تُتَح له فرصة مقابلة أيِّ فرد من أتباع الشيخ؛ بل نقل أخبارها عن أناس ليسوا من أتباعها. ولهذا قال: إنه - نتيجة لذلك - لن يَتمكَّن من إعطاء فكرة مؤكَّدة عن مبادئها.

تَحدَّث نيبور عن دعوة ابن عبد الوهاب في الجزء الثاني من كتابه تحت عنوان: "الديانة الجديدة في نجد". وفي مُستهلِّ حديثه قال (ج٢، ص١٣٠): "إنه يوجد في نجد صابئة ومسيحيون من أتباع سانت جون (القدِّيس يحيى) وقليل من اليهود". ومن المؤكَّد أن هذا القول لا يستند إلى دليل تاريخي؛ إذ لم يذكر أيٌّ مصدر آخر؛ وبخاصة المصادر الموثوقة المَحلِّية منها وغير المَحلِّية، وجود فئة من تلك الفئات في المنطقة المذكورة.

ثم تابع نيبور كلامه، فذكر أن أهل نجد محمديون - وهذا تعبير جرى عليه بعض الكتَّاب الغربيين - وأنهم كانوا سُنِّيين محافظين. غير أنه منذ فترة قصيرة ظهرت في إقليم العارض - أحد الأقاليم النجدية - ديانة جديدة أحدثت ثورة في أسلوب الحكم في الجزيرة العربية، ويحتمل أن تُؤثِّر أكثر فأكثر في حالة البلاد على وجه العموم.

ولقد قال نيبور (ج٢، ص٣٢-٣٣): "إن مؤسس الديانة الجديدة هو عبدالوهاب، مواطن من العُيَيْنة، وإنه إثر وفاته تَولّى ابنه السلطة واستمر في تطبيق آرائه".

وبغضِّ النظر عن التسمية التي سَمَّى بها نيبور دعوة ابن عبدالوهاب فإنَّ مَردَّ الالتباس عليه في مسألة صاحب الدعوة هو أنه في العام الذي كتب فيه ذلك المهندس الرَّحالة كتابه تُوفي الأمير محمد بن سعود، وحَلَّ مَحلَّه في الحكم ابنه عبدالعزيز. ولَعلَّه سمع بوفاة قائد الدولة الجديدة، فَظنَّه صاحب الدعوة، وظَنَّ أن محمد بن عبدالوهاب كان ابناً له.

وعلى أيِّ حال، فإن نيبور ذكر بأن صاحب الدعوة درس في وطنه، ثم قضى وقتاً في البصرة، وقام برحلات إلى بغداد وبلاد فارس. وتُعدُّ إشارته إلى قيام ابن عبدالوهاب برحلات إلى بلاد فارس أوَّل إشارة في أيِّ كتاب في هذا المجال. على أن روايات المؤرخين المُقرَّبين من الشيخ تفيد أن رحلاته خارج نجد لم تتجاوز الحجاز والأحساء والبصرة. ثم مضى نيبور في حديثه عن ابن عبدالوهاب بعبارات فيها الشيء الكثير من الحقيقة التاريخية وصدق التحليل؛ إذ قال:

"إن الشيخ - بعد عودته من أسفاره - بدأ يدعو مواطنيه إلى ما يراه، وإنه نجح في اجتذاب عدد من الزعماء الذين انقادت إليه رعاياهم بالتبعية. وكان أولئك

الزعماء في حرب مستمرة، فأصبحوا بوساطته متصالحين، ووافقوا على ألاّ يقوموا بأيِّ عمل في المستقبل بدون مشورته. وبهذا التحالف اختلّ ميزان القوة في نجد لصالح الدولة الجديدة التي لم تَتمكَّن من الانتصار على خصومها المَحلِّيين فحسب؛ بل صمدت أمام حملتين قام بهما حاكم الأحساء ضدها»[١].

على أن نيبور ما إن تجاوز في حديثه مسيرة الدولة التي قامت على أساس دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى الكلام عن طبيعة هذه الدعوة من الناحية الدينية حتى وقع في أخطاء واضحة. من ذلك أنه قال: إنَّ إعرابياً من الأحساء أخبره أن هناك تشابهاً كبيراً بين مبادىء ابن عبدالوهاب ومبادىء المكْرمي. ويبدو - والكلام لنيبور - أن كلامه صحيح، وإلاّ لما استطاع الأخير عبور نجد بجيش صغير لمهاجمة شيخ الأحساء سنة ١٧٦٤م (١١٧٨هـ)[٢].

والخطأ في الكلام السابق من وجهين: الأول أن ابن عبدالوهاب سُنِّي في الأصول حنبلي في الفروع؛ أي الفقه، في حين أن المكْرمي، الذي كان سَيِّد نجران، إسماعيلي. والثاني أن المكْرمي تَوغَّل في نجد في السنة التي أشار إليها نيبور محارباً لأتباع ابن عبدالوهاب، لا حليفاً لهم ضد صاحب الأحساء، وقد أنزل بهم هزيمة كبيرة في معركة حائر سُبَيْع جنوب الرياض، فقتل منهم أكثر من أربع مئة رجل.

ثم قال نيبور: إن فرقة السُنَّة تشكو من اضطهاد الشيخ. لكن المُرجَّح أن الباعث الحقيقي لشكوى تلك الفرقة المنغمسة في الخرافات هو كرهها له لبدعه في الدين. وأوضح من سَمَّاهم السُنَّة بأنهم المنغمسون في الخرافات كما قال. أما تسمية دعوة الشيخ بالبدعة فإنه لم يخرج بذلك عما كان يشيعه خصوم تلك

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص١٣٢.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الدعوة من العرب المسلمين. لكن من الغريب أن يُسمَّى مبتدعاً من كان عدواً للبدع في الدين الشائعة في زمنه.

أما بالنسبة لتفصيلات دعوة ابن عبدالوهاب فقد ذكر نيبور أنه تَحدَّث حولها مع شيخ بدوي اعتاد في شبابه أن يسافر مع التجار عبر جزيرة العرب، وزار البلدان الرئيسة في نجد، وأن ذلك البدوي قال له: إن الشيخ يقول للناس: إن الله وحده هو المستحق للدعاء والعبادة لأنه الخالق المدبِّر للكون، وإنه يُحرِّم دعاء الأولياء وإشراك محمد أو غيره من الأنبياء في الدعاء لأن ذلك من الوثنية.

وهذا الجزء من كلام نيبور - أو على الأصح كلام من أخبره - حق. لكن الغريب أن ينتهي كلام ذلك المخبر بالقول: إن ابن عبدالوهاب يَعدُّ محمداً وعيسى وموسى وغيرهم ممن تُسمِّيهم السُنَّة أنبياء مُجرَّد رجال عظماء؛ منكراً تدوين أيِّ كتاب بوحي إلهي أو إنزاله من السماء بوساطة جبريل.

ولَعلَّ للإشاعات المغرضة ضد دعوة ابن عبدالوهاب يداً في مدى الجهل بحقيقتها، فَفسَّر الجاهلون تحريمه صرف أيِّ نوع من أنواع العبادة؛ كالدعاء، لأيِّ مخلوق مهما علت مرتبته على أنه عدم حُبٍ للرسول، ﷺ، أو إنكار لنبوته.

ولقد أنهى نيبور حديثه عن ابن عبدالوهاب بقوله:

"إن دين عبدالوهاب - والمراد الشيخ محمد - الجديد يستحق أن يُعدَّ إصلاحاً للمحمدية وعودة بها إلى حقيقتها الأولى. وهو وإن كان قد ذهب أكثر من أيِّ مصلح آخر في هذا المضمار، إلا أنه - وهو العربي - لا يُتوقَّع منه أن يعالج مثل هذه الأمور بمرونة. والتجربة ستوضح إن كانت ديانة بهذا الشكل ستنجح بين قوم بدائيين وجُهَّال كالعرب". وقد نشر كاتب هذه السطور مقالة بعنوان: "نيبور ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب" ضَمَّنها كتابه بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية المطبوع في الرياض سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

ويبدو أن عدداً من الأوروبيين الذين نُشرت كتاباتهم عن ابن عبدالوهاب وأنصاره في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، قد تَأثَّروا ببعض ما كتبه نيبور؛ مثل الادِّعاء بأنه كان ينكر قدسية القرآن ورسالة محمد، ﷺ. ومن أولئك الكتَّاب دوساسي، الذي نشر مقالة في مجلة الموسوعة بباريس عام ١٨٠٥م ترجمة عنوانها: "ملحوظات عن الوهابيين". ومنهم روسو الذي نُشر له في باريس، عام ١٨٠٩م، كتاب ترجمة عنوانه: وصف باشوية بغداد. ومنهم كورانسيز، الذي نُشر له في باريس، عام ١٨١٠م، كتاب ترجمة عنوانه: تاريخ الوهابيين من بدايتهم إلى نهاية عام ١٨٠٩م.

على أنَّ من الأوروبيين مَنْ كتبوا كتابة صحيحة محايدة عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأنصاره. وفي طليعة هؤلاء الرَّحالة السويسري بوركهارت الذي وصل إلى الحجاز عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م. فقد كانت كتابته أكثر كتابات الرَّحالة الغربيين دقة وإنصافاً. وقد تَحدَّث في كتابه، الذي نُشر في لندن عام ١٨٣١م - وترجمة عنوانه: ملاحظات عن البدو والوهابيين - عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وسيرة أتباعه في إدارتهم لشؤون البلاد وحفظ الأمن فيها وطريقة حروبهم، ثم صراعهم مع قوات محمد علي باشا. وكان مما قاله:

"لم تكن مبادىء (محمد بن) عبدالوهاب مبادىء ديانة جديدة؛ بل كانت جهودُه مُوجَّهةً فقط لإصلاح المفاسد التي تَفشَّت بين المسلمين، ونشر العقيدة الصافية بين البدو الذين كانوا مسلمين اسمياً، لكنهم كانوا جهلاء بالدين وغير مبالين بكل فروضه التي أوجبها. وكما هي الحال بالنسبة لكل المصلحين لم يفهم ابن عبدالوهاب من قِبَل أصدقائه ولا من قِبَل أعدائه. فأعداؤه حينما سمعوا بفرقته الجديدة التي تهاجم انحراف الأتراك وتنظر إلى النبي محمد، ﷺ، بغير نظرتهم التقديسية اقتنعوا بسهولة أن عقيدة جديدة قد اعتنقت، وأن الوهابيين لذلك ليسوا مُجرَّد ضالين؛ بل إنهم كافرون. وقد تَأكَّد لديهم هذا الاعتقاد بخداع

شريف مكة وبنذير الخطر الذي حَلَّ بالباشوات المجاورين. وأصدقاؤه؛ وبخاصة البدو الذين كانوا جهلاء تماماً بالدين قبل أن يعرفوا الوهابية، والذين أصبحوا يعرفون عادات الحجاج الأتراك وسكان المدن العرب ومبادئهم المختلفة، بدا لهم ما أتى به ابن عبدالوهاب وكأنه ديانة جديدة أيضاً. ولكن قليلاً من السوريين الأذكياء الذين أدَّوا الحج، ووجدوا فرصة للتحدُّث مع المُطَّلعين من الوهابيين، اقتنعوا أن عقيدة الوهابيين هي عقيدة الإسلام»[١].

ثم قال بوركهارت:

«إن مبادىء الوهابيين الأساسية تَتَّفق مع تلك التي تُدرَّس في مناطق الامبراطورية الإسلامية. فالقرآن والسنة مصدران أساسيان مشتملان على كل الأحكام. وآراء المفسرين الأجلاَّء للقرآن محترمة بالرغم من أنها ليست متَّبعة على إطلاقها. وفي محاولة لإيضاح الأعمال الأصيلة والمعتقدات الصافية للمؤسس الأول للإسلام وأتباعه من الأوائل - كما هو ثابت في تلك الأحكام - كان لا بد للوهابيين من مهاجمة عدد من الآراء الخاطئة والمفاسد التي طرأت على الإسلام كما يدرَّس الآن، ولا بد لهم، أيضاً، من الإشارة إلى الحالات الكثيرة التي يَتصرَّف بها الأتراك على نقيض مباشر مع المبادىء التي يعترف هؤلاء أنفسهم بأنها أساسية»[٢].

وبعد أن أورد عدَّة أمور مُهمَّة من أصول الدين وفروعه كان الأتراك بالذات قد أهملوها قال:

«إن ابن عبدالوهاب اتَّخذ القرآن والسنة دليله الوحيد في الأخلاق، وإن الخلاف بينه وبين الأتراك السُنِّيين - مهما قيل عنه - هو أن الوهابيين يتَّبعون بدقة

(١) بوركهارت، مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة عبدالله العثيمين، ط٣، الرياض، ١٤٢٤هـ، ص١٣-١٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١٨.

الأحكام نفسها التي أهملها الآخرون؛ ولهذا فإن وصف الديانة الجديدة - أي دعوة ابن عبدالوهاب - ما هو إلا تلخيص للعقيدة الإسلامية"[١].

وبعد ذلك تَحدَّث بوركهارت عن حكومة الدولة السعودية التي قامت على أساس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقال:

"لقد دفعت رغبة ابن عبد الوهاب وحلفائه في إعادة العرب إلى الحالة التي كانوا عليها عند ظهور مؤسس ديانتهم - يعني الرسول ﷺ - إلى تغيير وضعهم السياسي بمجرَّد أن رأوا أتباعهم في ازدياد. وكان محمد وخلفاؤه القادة السياسيين والدينيين لأُمَّتهم. وتوضح كتب الفقه الإسلامي أنه من الضروري وجود زعيم أعلى في الشؤون الدينية والدنيوية. وكانت نجد، التي أصبحت المركز الرئيس للقوة الوهابية، مقسَّمة إلى عدد من الأقاليم والبلدان والقرى الصغيرة المستقل بعضها عن البعض الآخر. وكانت في حالة حرب مستمرة، ولم يكن يُعتَرف فيها إلا بقانون القويِّ؛ سواء في البادية أو داخل أسوار البلدان. وإضافة إلى ذلك كانت الحُرِّية غير المحدودة للقبائل البدوية، وحروبها التي لا تنتهي، وغزواتها ذات السلب والنهب، قد جعلت نجداً مسرحاً للفوضى الدائمة وسفك الدماء. ولم يبسط عبدالعزيز بن محمد (بن سعود) حكمه على كل نجد إلا بعد كثير من الصراع الشديد. ولأنه أصبح رئيس منطقته تَولَّى السلطة العليا فيها، وجعل حكمه مشابهاً لذلك الذي زاوله الأوائل من أتباع النبي محمد. وقد رأى من العبث أن يحاول استرقاق بني جلدته. ولذلك تركهم ينعمون بحُرِّيتهم، لكنه أجبرهم على أن يعيشوا بسلام، ويحترموا الملكيات الخاصة، ويطيعوا أوامر النظام. فكانت حكومته حُرَّة لأنها قائمة على نظام بدوي متعارف عليه. فكان هو رئيس كل مشائخ القبائل، التي يدير سياستها الخاصة، بينما بقي كل العرب

(١) المصدر نفسه، ص٢٣.

مستقلِّين أحراراً داخل قبائلهم باستثناء أنهم الآن أُجبروا على مراعاة النظام بدقة كاملة، وأصبحوا عرضة للعقوبة إذا عارضوه، وبات عليهم أن يدفعوا الزكاة إلى خزينة الدولة، ويلتحقوا بقوات الحاكم متى طلب منهم ذلك، ولا يتحاكموا إلى السلاح في خلافاتهم؛ بل إلى محكمة شرعية تنظر في تلك الخلافات "(١).

وكان من الذين تَحدَّثوا عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب ودعوته كرايتون في الجزء الثاني من كتابه الذي ترجمة عنوانه: تاريخ جزيرة العرب قديماً وحديثاً. وقد طُبِع هذا الكتاب في أدنبرا عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م، واستهلَّ حديثه فيه بقوله:

" إن من أعظم الثورات التي شهدتها الجزيرة العربية منذ أيام محمد ﷺ تلك الفرقة الدينية المُسمَّاة بالوهابية، التي أوجدها (محمد بن) عبدالوهاب المولود في نجد. وقد زار في شبابه مكة والمدينة والبصرة وبغداد وبلداناً أخرى في الشرق. ولاقتناعه بما رآه في أسفاره من فساد تام في عقيدة الإسلام الأولى من الناحية العملية؛ وبخاصة لدى الأتراك والفرس، قَرَّر أن يكون مصلحاً. ولقد ضمنت له قدراته الذاتية وعلمه وحكمته احترام مواطنيه، فاستجاب عدد منهم لدعوته. ويمكن القول باختصار: إن ديانة أتباعه وحكومتهم محمدية تطهيرية قائمة على تحالف بدوي يحتلُّ فيه الزعيم الأكبر القيادة الدينية والسياسية لأولئك الأتباع، وإن عقيدتهم محافظة يَحتلُّ فيها توحيد الله المبدأ الأساسي. ويعتقد بأن محمداً رسول يحمل رسالة مُقدَّسة، لكنه بشر. ولأنهم يَعدُّون الناس متساوين أمام الله فإنهم يُحرِّمون التوسُّل بالأولياء الأموات أو تقديس رفاتهم. أما من حيث الأخلاق فهم محافظون جداً؛ إذ يُحرِّمون الخمور وغيرها من المسكرات كما يُحرِّمون أيَّ اتِّصال جنسي غير شرعي، ويُحرِّمون، أيضاً، ترك

(١) المصدر نفسه، ص ص٢٧-٢٩ .

العدل، وعدم أداء الزكاة والغدر والربا والقمار وجميع المفاسد التي لَوَّثت حتى المدن المُقدَّسة "[١].

ثم قال:

" إن مبادىء (ابن) عبدالوهاب ليست ديانة جديدة كما ادَّعى خصومها، وكما وصفها عدد من الرَّحالة أو الكتَّاب الأوروبيين؛ مثل نيبور وروسو. فدليله القرآن والحديث، وجهوده موجَّهة ضد الفساد، هادفة إلى إعادة عقيدة الإسلام إلى طهارتها الأولى. أما أن ذلك المصلح حين بدأ دعوته في نجد كانت لديه فكرة في إنشاء حكم جديد يشمل كل مناطق الجزيرة العربية فأمر مشكوك فيه. فلا بلدته ولا قبيلته يمكن أن تجعله يفكِّر في مشروع كهذا، لكن لا يمكن أن ينكر أن مبادئه كان لها تأثير جيد على الناس "[٢].

ونظرة كرايتون إلى عقيدة ابن عبدالوهاب وحكومة أتباعه مماثلة لنظرة ريهاتزك في دراسته التي ترجمة عنوانها: "تاريخ الوهابية في جزيرة العرب والهند"؛ والمنشورة في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية في بمبي عام ١٨٧٨م، إذ قال: "إن الديانة الوهابية يمكن أن تُعدَّ محمدية تطهيرية، وإن حكومة أتباعها تحالف قبلي بدوي على رأسه سلطان هو، أيضاً، إمامهم الديني".

وإذا اتَّجه المرء إلى دائرة المعارف الإسلامية الصادرة بالإنجليزية وجد أن الوهابية قد تُحدِّث عنها في طبعتي تلك الدائرة الأولى والثانية، أو الجديدة. وحديث المستشرقين في الطبعة الأخيرة عن الإسلام والشخصيات المسلمة أفضل، بصفة عامة، من حديث أسلافهم في الطبعة الأولى. لقد كتب مارجليوث مقالة مُطوَّلة عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب ودعوته في الطبعة

(١) انظر ص ص٢٨٨ - ٢٨٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ص ٢٩٠-٢٩١.

الأولى. وجاءت كتابته علمية إلى حَدٍّ ما، لكنه اعتمد اعتماداً كبيراً في حديثه عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب وما يدعو إليه على كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب، والذي كتبه حسن الرِّيكي عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م. وهذا الكتاب يشتمل على أخطاء واضحة؛ وبخاصة المعلومات الواردة فيه عن رحلات ذلك الشيخ. على أن مارجليوث ذكر الحقيقة عندما قال: "إن اسم الوهابية اسم أطلقه في بداية الأمر خصوم دعوة الشيخ محمد، ثم استعمله الأوروبيون، وإن أتباع الشيخ يَتسمَّون بالمُوحِّدين، ويَعدُّون أنفسهم سُنَّة يتبعون المذهب الحنبلي".

وما ذكره مارجليوث عن اتساع حكم الدولة السعودية، التي قامت على أساس دعوة الشيخ، وما حدث لآل سعود من فترات قوة وضعف فيه الكثير من الصواب.

وفي الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية جاء الحديث عن ابن عبدالوهاب بقلم المستشرق الفرنسي هنري لاوست المشهور بدراساته العميقة عن المذهب الحنبلي؛ وبخاصة عن ابن قُدَامة وابن تيمية اللذين كانا من أشهر علماء ذلك المذهب. وحديثه عن الشيخ محمد مطابق - في معظمه - لما أوردته المصادر المُقرَّبة من هذا الشيخ، كابن غنَّام وابن بشر. وهو - وإن أشار إلى رواية لمع الشهاب عن أسفاره -فإنه صاغ تلك الإشارة بما يُرجِّح أنه لم يكن مقتنعاً بصحتها.

وكان المستشرق الأمريكي، جورج رنتز، أوَّل من كتب رسالة دكتوراه عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والدولة التي قامت على أساس دعوته؛ وذلك في الأطروحة التي نال بها هذه الشهادة من جامعة كاليفورنيا في بيركلي سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، وترجمة عنوانها: محمد بن عبدالوهاب وبداية الإمبراطورية التوحيدية في جزيرة العرب. وقد اعتمد في كتابته على المراجع العربية التي كتبت في عهد الشيخ محمد أو بعده مباشرة؛ كابن غنَّام وابن بشر، وجاءت كتابته وصفية لمجريات الأحداث مطابقة للواقع، ولكنها تفتقر إلى التحليل العميق.

وممن تَحدَّث عن دعوة الشيخ محمد المستشرق جب في كتابه، الذي ترجمة عنوانه: الاتجِّاهات الحديثة في الإسلام، والمطبوع في شيكاغو سنة ١٩٤٧م، ومما قال:

"إن الحركة الوهابية - برفضها البدع التي أُدخلت على الإسلام في القرون الوسطى والحديثة - قد أعادت فتح باب الدراسة النَقدية للأعمال التي دُوِّنت في القرون الوسطى عن الحديث والفقه. وهي ليست، من حيث المبدأ، حركة عربية؛ بل تستند إلى المذهب الحنبلي الذي لا يقبل الإجماع إلا في أضيق الحدود، وإن ابن عبدالوهاب، باتِّخاذه موطنه في وسط الجزيرة العربية منطلقاً لحركته، قد اتَّخذ الأسلوب نفسه الذي سبق أن اتَّخذه زعماء الحركات الإصلاحية المشابهة لحركته؛ أي اتِّخاذ مكان بعيد عن متناول السلطة المركزية يمكن أن يكون ميداناً مفتوحاً للدعوة. وإن نتائج الحركة الوهابية كانت - وما زالت - ذات أثر بعيد، ففي مرحلتها الأولى هَزَّت ضمير الأمة الإسلامية بعنفوانها الذي لم يُوجَّه ضد تقديس الأولياء فحسب؛ بل ضد المذاهب المحافظة أيضاً[1]. ولذلك فَقَدَ أتباعُها تعاطف الآخرين ومساعدتهم".

أما المستشرق كاش فقد تحدَّث عن دعوة الشيخ محمد في كتابه المطبوع في لندن عام ١٩٢٨م، والذي ترجمة عنوانه: انتشار الإسلام؛ وقال (ص١٩١):

"بدأ ابن عبدالوهاب حركته لإصلاح الإسلام على أساس عربي، فهو لا يرى إسلاماً غير عربي. ولقد اتَّضح له عدم الالتزام بأوامر النبيِّ حتى في جزيرة العرب، وشهد في مكة والمدينة تَصرُّفات مخالفة لروح الإسلام، ورأى أن المسلمين فقدوا البساطة التي كان يتحلَّى بها النبيُّ، وأصبحوا يعيشون في ترف".

وتشبه رؤية كاش لدعوة الشيخ من حيث صلتها بالعروبة رؤية بيلي وايندر في كتابه الذي ترجمة عنوانه: العربية السعودية في القرن التاسع عشر، والذي طُبِع في نيويورك سنة ١٩٦٥م، فقد قال هذا الأخير (ص ١٤):

---

(١) لم تكن دعوة ابن عبدالوهاب موجَّهة ضد المذاهب السنية المحافظة.

"إن العرب الوهابيين كانوا أوَّل المُتحدِّثين بالعربية الذين تَحدَّوا الدولة العثمانية المُتسلِّطة؛ بل إن الفكرة العربية - كما كانت في صدر الإسلام - كانت واضحة في الوهابية. ولهذا ـ فإضافة إلى أهمِّيتها من الوجهة الدينية العقدية ـ فإنها ذات أهمِّية سياسية. ولكونها بدأت في داخل الجزيرة العربية - ربما طبقاً لنظرية ابن خلدون التي تقول: العصبية البدوية مع الدين تعني قوة - كانت الوهابية سلفاً للقومية العربية المعاصرة".

وكان حديث وايندر عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لا يختلف - في مجمله - عما ذكرته المصادر الموثوقة المُقرَّبة من ذلك الشيخ.

ومع أن الحديث أساساً عن كتابات رَحَّالة ومستشرقين عن دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب فإن من المستحسن في ختام هذا الحديث إعطاء موجز عن تلك الدعوة وما أحاط بها من ظروف، والإشارة إلى مسائل ذكرها بعض الكُتَّاب عن موقف ذلك الشيخ وأنصاره منها.

كانت دعوةُ ابن عبدالوهاب في أساسها دعوةً دينيةً تهدف إلى إخلاص العبادة لله وحده، ومحاربة الشرك بجميع أنواعه، وسَدِّ الذرائع المُؤدِّية إليه، والقضاء على البدع في الدين، وتطبيق الشريعة في كل أمور الحياة.

ومن المسائل الدينية، التي أشار بعض الكُتَّاب إلى موقف ابن عبدالوهاب وأتباعه منها، ما يأتي:

١- شفاعة الرسول، ﷺ.

٢- الأولياء.

٣- زيارة القبور والبناء عليها.

٤- البدعة.

٥- الإجماع.

٦- الاجتهاد.

بالنسبة للمسألة الأولى يعتقد الشيخُ وأتباعُه أن رتبة نَبِيِّنا محمد، صلَّى الله عليه وسَلَّم، أعلى مراتب المخلوقين، وأنه حَيٌّ في قبره حياة برزخية أبلغ من حياة الشهداء المنصوص عليها في القرآن؛ إذ هو أفضل منهم بلا ريب، وأنه يسمع سلام المُسلِّم عليه. ويعتقدون أن الشفاعة ثابتةٌ، لكن بثلاثة شروط: أن تُسأل من الله، وأن يأذن الله للشافع بالشفاعة، وأن يكون المشفوعُ له مؤمناً.

وأما بالنسبة للأولياء فإن ابن عبدالوهاب وأتباعه لا ينكرون كراماتهم، ويعترفون لهم بالحق، وأنهم على هدى من الله ما داموا سائرين على الطريقة الشرعيَّة والقوانين المرعيَّة، إلا أنهم لا يستحقون شيئاً من أنواع العبادة لا حال الحياة ولا بعد الممات.

وأما زيارة القبور فَيقسِّمونها إلى قسمين: مشروعة وممنوعة؛ فالمشروعة هي التي تَتمُّ في ضوء تعاليم النبي، ﷺ، وتخدم ثلاثة أغراض: التذكرة بالآخرة، والإحسان للميت بعدم هجره، ونفع الزائر لامتثاله بأمر الحديث ونفع المزور لأن الزائر سيدعو له. والزيارة الممنوعة هي التي لا تَتمشَّى مع أوامر الشريعة كأن تُجعل القبورُ أماكنَ للعبادة، أو يُسافَر إليها.

والبدعة لدى ابن عبدالوهاب وأتباعه هي ما له صبغة دينية؛ اعتقاداً أو عملاً. أما ما لا يُتَّخذ ديناً ولا قربة فلا يُسمَّى بدعة. ومن هنا فإن كل الإنجازات التقنية لا علاقة لها بالبدع، ويُبرِّرون موقفهم المعارض للبدع في الدين بقولهم: إن الدين قائم على أساسين: أن لا يُعبَد إلا الله، وأن لا يُعبَد إلا بما شرع.

أما بالنسبة للإجماع فإن ابن عبدالوهاب وأتباعه لا يرفضونه كما ادَّعى بعض الكتَّاب؛ مثل ماكدونالد وبثمان، وزويمر؛ بل يَعدُّونه مصدراً ملزماً من مصادر

الشريعة لأن الأمة الإسلامية كلّها لا تجتمع على ضلالة، لكن ما يتعارض مع نصوص القرآن والسنة ـ وإن مارسته أكثرية المسلمين ـ لا يمكن قبوله، وسكوت بعض العلماء عنه، أو استحسانهم له، لا يُقبَل على أنه إجماع للأمة. فالإجماع الصحيح لا يمكن أن يتعارض مع نصوص المصدرين الأساسيين للشريعة؛ وهما القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

وأما الاجتهاد فإن خصوم ابن عبدالوهاب اتَّهموه من بداية دعوته بأنه يدِّعي الاجتهاد، ويُحرِّم كتب المذاهب الفقهية، ومنهم من ألَّف رسائل ضده في هذا المجال؛ مثل داود الخالدي الذي ألَّف رسالة: أشدُّ الجهاد في إبطال دعوى الاجتهاد، المطبوعة في بمبي عام ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م. فماذا كان موقفه من تلك المسألة؟

كان يقول: إن الله فرض على عباده طاعته وطاعة رسوله، ولم يوجب عليهم طاعة أحد بعينه في كل ما يأمر به وينهي عنه إلا رسول الله. وهذا يعني وجوب الامتثال التام لما ورد في القرآن والسنة الصحيحة؛ وهما المصدران الأساسيان للشريعة اللذان يجب التحاكم إليهما عند الاختلاف. وقد نفى أنه يَدَّعي حق الاجتهاد لنفسه، وأشار إلى أنه تابع للمذهب الحنبلي، وأوضح ابنه عبدالله موقفه تجاه هذا الموضوع بقوله:

"لا نَستحق مرتبة الاجتهاد المطلق، ولا أحد منا يَدَّعيها، إلا أننا في بعض المسائل إذا صح لنا نَصٌّ جَليٌّ من كتاب أو سُنَّة غير منسوخ ولا مُخصَّص ولا معارض بأقوى منه، وقال به أحد الأئمة الأربعة، أخذنا به وتركنا المذهب الحنبلي".

وعلى هذا الأساس فموقف ابن عبدالوهاب وأتباعه من الاجتهاد وسط بين الرأي القائل بأنه جائز دائماً وفي كل حالة، والرأي القائل بأنه غير جائز على الإطلاق في الوقت الحاضر. فهم لا يجيزونه في كل الحالات، ولا يُقرُّون بأن بابه قد سُدّ.

ومع أن هدف دعوة الشيخ محمد الأساسي كان دينياً فإنه كان يرى أن هناك تلازماً بين الإصلاح الديني والإصلاح السياسي. فالإصلاح السياسي لا بد أن يقوم على أساس ديني، والإصلاح الديني يحتاج - كما حدث تاريخياً - إلى قوة سياسية تدعمه. ولهذا حرص على كسب أمراء نجد ولم يغب عن ذهنه أن يُلمِّح إلى المكاسب الدنيوية التي سيجنونها من وراء وقوفهم مع دعوته. فقد قال للأمير عثمان بن مُعمَّر: "إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله ملكت نجداً وأعرابها"؛ أي ملكت حاضرة نجد وباديتها. وشبيه بهذا القول ما قاله للأمير محمد بن سعود؛ إذ قال له: "هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم، فمن تَمسَّك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد." ولقد أدرك هذا الأخير مدى الفائدة التي أشار إليها الشيخ. ولهذا اشترط عليه مقابل وقوفه معه أن لا يغادر بلدته؛ عالماً أن وجوده في هذه البلدة سيجعلها قاعدة دولة واسعة، من دون وجوده ستبقى بلدة صغيرة. ومن الواضح ما في عبارة الشيخ المُوجَّهة لابن مُعمَّر من مدلول واضح؛ وهو أنه كان - في بداية الأمر - يرى أن نجداً وحدها هي ميدان دعوته لما ذكر سابقاً من عدم خضوعها للدولة العثمانية، وبُعدها جغرافياً عن مراكز ولاياتها القوية.

والمسيرة التاريخية لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والدولة السعودية التي قامت على أساس دعوته؛ ابتداء من عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م - وهو العام الذي تَمَّت فيه المبايعة بين ذلك الشيخ والأمير محمد بن سعود، مسيرة معروفة لدى الكثيرين. لكن من المستحسن أن يشار باختصار إلى مسائل مُعيَّنة متَّصلة بتلك المسيرة:

المسألة الأولى: أن قيام دعوة الشيخ محمد في نجد، التي لم تكن خاضعة للعثمانيين، يعني أنها لم تكن - كما رأى بعض الكُتَّاب - ثورة على الحكم العثماني.

والمسألة الثانية: أن أنصار تلك الدعوة لم يبدؤوا بمحاربة الدولة العثمانية، وأنهم كانوا يتفادون الاحتكاك السلبي بها. ولَعلَّ مما يُوضِّح

ذلك أن جهودهم التوحيدية ـ إبَّان أكثر من أربعين عاماً من قيام الدولة السعودية الأولى ـ كانت مُركَّزة على نجد، وأن تبرير سعود بن عبدالعزيز استيلاءه على منطقة الأحساء كان على أساس أنها لم تكن تابعة للروم؛ أي الأتراك؛ وذلك في رسالته التي بعثها إلى مساعد والي بغداد عام ١٢١٣هـ.

المسألة الثالثة: أن الدولة العثمانية هي التي بدأت بمعاداة أنصار الشيخ محمد ابن عبدالوهاب؛ وذلك أن ولاتها على الحجاز منعوا أولئك الأنصار من الحج أكثر من خمسين عاماً، ثم لما رأوا نجاحهم في توحيد نجد وبداية تغلُّبهم على زعماء الأحساء لم يكتفوا بمنعهم من الحج؛ بل بدؤوا بحربهم عسكرياً. ولما فشل أولئك الولاة في هذه الحرب جرَّد العثمانيون حملتين من ولايتهم في العراق ضد الأراضي السعودية؛ أولاهما بدأت سنة ١٢١١هـ، وانتهت بداية السنة التالية لها. أما الثانية ففي عام ١٢١٣هـ. وعلى هذا الأساس فإن هجمات أنصار ابن عبدالوهاب على الأراضي التابعة مباشرة للدولة العثمانية كانت ردَّ فعل لمواقف العثمانيين ضدهم؛ معنوياً وعسكرياً.

المسألة الرابعة: أن دعوة الشيخ محمد لم تكن حركةً قوميةً وإن انطلقت من قلب جزيرة العرب وكان القائمون بها عرباً؛ إذ لا يوجد في كتابات علمائها أو أقوال قادتها ما يدل على تَوجُّه قومي عربي، وإنما كانت استجابةً لأوضاع دينية وسياسية مَحلِّية. على أن أحد علماء نجد - بعد قرن من قيام تلك الدعوة وفي خضمِّ نقده للحكم التركي - قال: "وعَربيٌّ أولى بها (أي الإمامة السياسية) من تركيٍّ".

<u>**المسألة الخامسة:**</u> أن النزعةَ السلبيةَ تجاه الوحدة كانت مُترسِّخةً في نفوس زعماء نجد؛ حاضرة وبادية، قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. وذلك لأن نجداً لم تشهد وحدة إقليمية طوال قرون عديدة سبقت تلك الحركة. ولَعلَّ مما يوضِّح تلك النزعة السلبية المُترسِّخة أن الدولة السعودية الأولى قضت أكثر من أربعين عاماً من القتال المستمر في توحيد أقاليم نجد. لكن عندما عرف النجديون ثمار الوحدة تحت ظلِّ تلك الدولة دخلوا مُختارين تحت قيادة مؤسس الدولة السعودية الثانية، الإمام تركي بن عبدالله، خلال سنتين فقط من إجلائه لبقية جنود محمد علي باشا من نجد.

نظرة مستشرقين و "تنويريين"
لدعوة ابن عبدالوهاب*

- ١ -

قبل أسبوعين كنت ممن كُرِّموا بدعوة لحضور محاضرة لصاحب السمو الملكي، الأمير سلمان بن عبد العزيز، حول الأسس التي قام عليها الحكم السعودي في وطننا العزيز؛ وذلك في رحاب الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، التي شهدت، وتشهد، نشاطاً ثقافياً وعلمياً مُتألِّقاً. وفي نظري أن المحاضرة أتت في وقتها المناسب؛ وبخاصة أن العقد الأخير شهد السهام يَتوالَى تسديدها صوب تلك الأسس؛ لا من جهات خارجية فحسب؛ بل من أناس داخل الوطن. وكان من صدى ذلك الحضور أن انبعث في نفسي اشتياق إلى التحدُّث - وإن باختصار جداً - عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب؛ وهي الدعوة التي كان ظهورها المنعطف التاريخي الكبير في تاريخ وسط الجزيرة العربية المُتمثِّل في نجد؛ بل في تاريخ المناطق التي أصبحت الآن تُسمَّى - بعد توحيدها - المملكة العربية السعودية. ومن المعروف أن تلك الدعوة انتصرت بتبنِّي آل سعود لها، فَتحقَّق لها من الانتشار ما تَحقَّق، وأن أولئك الذين ناصروها قد ظفروا بتبنِّيهم لها، فَتحقَّق لهم من النفوذ والتمكين ما تَحقَّق.

ولقد كتب كثيرون عن الشيخ محمد ودعوته وعن الحكم السعودي؛ مناصراً لتلك الدعوة ومنتصراً بها. وكانت أوَّل كتابة أكاديمية منفردة في هذا الصدد تلك التي نال بها الدكتوراه المستشرق الأمريكي، جورج رنتز، من جامعة كاليفورنيا

---

* نُشرت في صحيفة الجزيرة في ثلاث حلقات أسبوعية أولاها بتاريخ ٠٧/ ٠٥/ ١٤٣٢هـ الموافق ١١/ ٠٤/ ٢٠١١م.

في بيركلي سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م؛ وترجمة عنوانها: محمد بن عبدالوهاب وبداية الامبراطورية التوحيدية في جزيرة العرب. وقد اعتمد في كتابته على المصادر العربية المتوافرة حينذاك وكتبت في عهد الشيخ محمد أو بعده بقليل، كابن غَنَّام وابن بشر. وجاءت كتابته وصفية لمجريات الأحداث التي دوَّنتها تلك المصادر، لكنها تفتقر إلى التحليل العميق.

وبعد كتابة رنتز كُتبت كتابات أكاديمية أخرى. ومن تلك الكتابات ما تناولت الجانب الديني في دعوة الشيخ محمد، ومنها ما تناولت الدولة السعودية الأولى التي ناصرت تلك الدعوة. فمن الكتابات التي تناولت الجانب الديني تلك التي نال بها الدكتواره الباحث محمد عبدالباري من جامعة أكسفورد عام ١٩٥٣م؛ وترجمة عنوانها: دراسة مقارنة لعقيدة الوهابيين الأوائل والحركات الإصلاحية المعاصرة لهم في الهند الإسلامية. ومن الكتابات التي تناولت الدولة السعودية الأولى تلك التي نال بها الدكتوراه أخي وأستاذي محمد الشعفي من جامعة ليدز عام ١٩٦٧م؛ وعنوانها: الدولة السعودية الأولى من الجانبين الإداري والعسكري.

وكنت قد ابتُعثت من جامعة الملك سعود إلى بريطانيا للدراسة العليا، ولقيت قبولاً من جامعة لندن وجامعة أدنبرا، فَنَصحني أستاذي الجليل، معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر، أن أذهب إلى أدنبرا. وكانت نصيحته نعم النصيحة. وكنت مبتعثاً ليكون موضوع دراستي العرب في شرق أفريقيا، لكن المشرف الرئيس على دراستي في أدنبرا، البروفيسور مونتجمري وات، أشار عَليَّ أن يكون موضوع دراستي عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فاستحسنت مشورته، ووافقت جامعة الملك سعود مشكورة على ذلك. وكان أن كتبت رسالتي التي نلت بها الدكتوراه من جامعة أدنبرا عام ١٩٧٢م؛ وعنوانها: محمد بن عبدالوهاب: الرجل وأعماله. وكانت تلك الرسالة أوَّل كتابة أكاديمية تجمع بين دراسة أوضاع وسط الجزيرة العربية قبيل ظهور الشيخ محمد بدعوته؛ تاريخياً، واجتماعياً،

واقتصادياً، وسياسياً، وعلمياً، ودينياً، ودراسة حياته؛ أُسرياً ونشأة، وتَعلُّماً، ثم دعوة ومكانة في الدولة السعودية التي ناصرته وانتصرت بتبنِّيها لدعوته، وتَحليلاً لما كتبه من كتب ورسائل؛ أسلوباً مختلفاً وَفْق الموضوع المَكتوب فيه، ووَفْق فهم من وُجِّهت إليه ومكانته، واختتاماً بعرض آرائه هو وأنصاره في المسائل الدينية؛ وبخاصة ما يَتعلَّق بالتوحيد من جهة وآراء معارضيهم من جهة أخرى.

أما النتيجة، التي تَوصَّلت إليها من خلال مقارنة المصادر المختلفة - بما فيها الشعر العامي (النبطي) - فهي أن الحالة الدينية، التي كانت سائدة في نجد، عند ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب، لم تكن بالصورة القاتمة التي أظهرتها بها بعض المصادر المُؤيِّدة لتلك الدعوة، أو المُتحمِّسة جداً لها؛ بل إنها كانت غير مُتَّفقة إطلاقاً مع قول من قال عن أهل نجد حينذاك: إنهم كانوا قد خلعوا ربقة الإسلام والدين، وأنها بعيدة كل البعد عن الادِّعاء القائل: إن كل أثر للإسلام في المنطقة كان قد اختفى، وإن قراءة القرآن والصلاة والزكاة والحج كلها أمور قد نُسيت من قِبَل سكانها. على أن تلك الحالة - من ناحية أخرى - لم تكن مستقيمة كما قد يستَنتج من بعض المصادر الشعرية. لقد كان هناك جهلة يمارسون أعمالاً يمكن وصفها بأنها شركية، لكن عدد أولئك كان قليلاً جداً إذا ما قورن بمجموع السكان. وكان هناك كثير من البادية الذين لا يقومون بأركان الإسلام كالصلاة والصوم والحج نتيجة جهلهم بها. وكان موقف علماء المنطقة من ذلك الوضع موقفاً غير مكترث فيما يبدو. وهذا الموقف يشبه - في بعض جوانبه - ما ذكره العَيَّاشي، الرحالة المغربي الذي زار المدينة المنورة في القرن الحادي عشر الهجري، واستغرب من رؤية جماعات من البدو في المسجد النبوي نفسه لم يكونوا يعرفون كيف تُؤدَّى الصلاة، فَيؤدُّون بعض الركعات دون سجود، أو يزيدون في عدد الركعات، وأن العلماء يشاهدون ذلك، فيكتفون بالابتسام دون أن يحاولوا إرشادهم. على أن أكثر سكان حاضرة نجد كانوا ملتزمين بأحكام الشريعة، وقائمين بأركان الدين وما يأمر به من واجبات وسنن.

وعلى أيٍّ حال فإن من الواضح أن منطقة نجد كانت في حاجة إلى حركة إصلاحية توضح للجُهَّال ما كان خافياً عليهم، وتقضي على ما كان من شأنه أن يُخلَّ بعقائد الناس، وتلزم من لم يكونوا يُؤدُّون أركان الإسلام على أدائها. وكانت المنطقة مكاناً مناسباً لنجاح مثل هذه الحركة. فجوانب الصوفية المذمومة لم تكن ذات جذور فيها؛ كما هو الوضع بالنسبة لكثير من الأقطار الإسلامية في ذلك الزمن، وكانت خالية من المذاهب غير السنِّية، وكثير من باديتها لم يكن لديهم آراء عن الدين، ولذلك كان من المحتمل أن لا تكون مجابهتهم صلبة لأيٍّ دعوة دينية؛ وبخاصة إذا كان الجهاد من أهدافها، والقتال سبيلاً من سبل نشرها.

ومن ناحية أخرى، كان هناك صراع على السلطة داخل البلدان النجدية، وكان الاغتيال من طرق الوصول إلى تلك السلطة. ولذلك كان الخوف من الثأر يملي، أحياناً، على الحاكم . . الأمير . . اتِّخاذ إجراءات تَعسُّفية. ولقد ذكر ابن بشر - وهو من المُتحمِّسين جداً لدعوة الشيخ محمد وأنصارها من آل سعود - أن "رؤساء البلدان (النجدية) لا يعرفون إلا ظلم الرَّعايا والجور". وكان قد سبقه إلى وصف اولئك الأمراء بما وصفهم به الشاعر جبر بن سَيَّار[1].

وإذا كانت نجد حينذاك في حاجة إلى حركة إصلاح سياسية تجمع شتات إماراتها تحت راية واحدة ليسود الأمن والاستقرار فيها فإنها كانت، أيضاً، أرضاً قابلة لنجاح أيٍّ حركة من هذا النوع. فقد كانت بعيدة عن متناول مراكز السلطة القوية التابعة للدولة العثمانية، وكان بإمكان الحركة أن تحرز نجاحاً أوَّليًا - على الأقلّ - قبل أن تلفت إليها الأنظار الخارجية، وكون إماراتها مختلفة مُتفكِّكة - وإن بدا عامل ضعف لأوَّل وهلة - قد يكون من بين عوامل النجاح للحركة. فعندما يفشل قائدها في مكان مُعيَّن فإن فرصة نجاحه في مكان آخر غير بعيد عنه

(١) انظر صفحة ١٥ من هذا الكتاب.

أمر كبير الاحتمال، ذلك أن خلاف صاحب المكان الثاني مع صاحب المكان الأوَّل قد يدفعه إلى الترحيب بمن لم ينجح عند ذلك الأوَّل، وما حدث للشيخ محمد بن عبدالوهاب ودعوته فيه دليل على صحة ذلك.

- ٢ -

كان محمد بن عبدالوهاب مُؤهلاً كُلَّ التأهيل للقيام بما قام به من دعوة إصلاحية لمكانة أسرته العلمية، ولما تَحلَّى به هو من صفات ذاتية ورسوخ علمي. على أن مما ينبغي أن يشار إليه هو أنه أظهر نفسه على أنه مصلح؛ لا على أنه آتٍ بتفسير جديد للإسلام. ومع ذلك فإن ما دعا إليه بدا غريباً لدى كثير ممن دعاهم لكونهم لم يسمعوه من علمائهم قبل ذلك. ودعوته إلى التَّمسك بالسنة النبوية لم تكن تعني أن يعيش معاصروه كما عاش المسلمون في عصر النبوة في حياتهم المعيشية. ومع أن شدَّة تَمسُّكه بالسنة قادته إلى اتِّخاذ موقف صلب أمام خصومه فإن طريقة طرحه لآرائه أدَّت إلى حراك فكري حول المسائل المطروحة؛ وبخاصة في التوحيد وما يَتَّصل به.

أما بعد:

فقد كان جون لويس بوركهارت، السويسري الجنسية، من أوائل الذين تَحدَّثوا عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب ودعوته من الأوروبيين. وقد درس اللغة العربية، وشيئاً عن الإسلام، كما قرأ كتب التاريخ الإسلامي قبل مجيئه إلى بلاد الشام، ثم إلى الحجاز إبَّان وجود محمد علي باشا هناك؛ محارباً للدولة السعودية الأولى. وقد اعتنق الإسلام، وتُوفي قبل نهاية تلك الدولة بسنة واحدة في القاهرة حيث دُفن في مقبرة المسلمين. وقد سبق إيراد شيء مما كتبه عن آراء الشيخ محمد بن عبدالوهاب وعن الدولة السعودية التي قامت على أساس

دعوته[١]، كما سبق إيراد شيء مما كتبه عن تلك الدعوة والمستشرق كرايتون[٢].

وسبقت الإشارة، أيضاً، إلى ما قاله عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب مستشرقون بينهم جب في كتابه الاتِّجاهات الحديثة في الإسلام، وكاش في كتابه انتشار الإسلام، وبيلي وايندر في كتابه العربية السعودية في القرن التاسع عشر.

- ٣ -

وكان ممن تَحدَّثوا عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب ممن يُحسَبون من "التنويريين" أحمد أمين. فبعد أن أشار باختصار شديد جداً إلى حياة ذلك الشيخ قال: "إن أهمَّ مسألة شغلت ذهنه في درسه ورحلاته مسألة التوحيد التي هي عماد الإسلام، والتي تبلورت في "لا إله إلا الله"، وتَميَّز الإسلام بها عما عداه، ودعا إليها محمد، ﷺ، أصدق دعوة وأحرَّها؛ فلا أصنام ولا أوثان، ولا عبادة آباء وأجداد، ولا أحبار ولا نحو ذلك". ثم قال: "إذا كان ذلك هو لُبَّ عقيدة الإسلام فما بال العالم الإسلامي يعدل عن التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة إلى أن يشرك مع الله كثيراً من خلقه؟ فهؤلاء الأولياء يُحَج إليهم، وتُقدَّم لهم النذور، ويُعتَقد أنهم قادرون على النفع والضر. وهذه الأضرحة لا عداد لها تُقام في جميع أقطاره يَشدُّ الناس إليها رحالهم، ويَتمسَّحون بها، ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم". ثم قال أحمد أمين: "إن تلك الأمور تَصدُّ الناس عن الله الواحد، وتشرك معه غيره، وتسيء إلى النفوس، وتجعلها ذليلة وضيعة مُحرَّفة، وتُجرِّدها من فكرة التوحيد، وتفقدها التسامي.

والأساس الآخر المتصل بالتوحيد، والذي كان يفكر فيه ابن عبدالوهاب، هو أن الله وحده مُشرِّع العقائد، وهو وحده الذي يُحلِّل ويُحرِّم، فليس كلام أحد

(١) انظر صفحة (٣٥-٣٨) من هذا الكتاب.
(٢) انظر صفحة (٣٨-٣٩) من هذا الكتاب.

حجة في الدين إلا كلام الله وسيد المرسلين. فالله يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (سورة الشورى، الآية: ٢١). فكلام المُتكلِّمين في العقائد، وكلام الفقهاء في التحليل والتحريم ليس حجة علينا؛ إنما إمامنا الكتاب والسنة. وكُلٌّ مُستوف أدوات الاجتهاد له الحق أن يجتهد؛ بل عليه أن يفعل ذلك ويستخرج من الأحكامَ - على حسب فهمه لنصوص الكتاب وما صَحَّ من السُّنة - ما يُؤدِّيه إليه اجتهاده. وإقفال باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين؛ إذ أضاع شخصيتهم وقوتهم على الفهم والحكم، وجعلهم جامدين مُقلِّدين يبحثون وراء جملة في كتاب أو فتوى من مُقلِّد مثلهم".

ثم قال أحمد أمين:

"كانت دعوة ابن عبدالوهاب حرباً على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأوَّل من عادات وتقاليد.. فلا اجتماع لقراءة مولد، ولا احتفاء بزيارة قبور، ولا خروج للنساء وراء الجنازة، ولا إقامة أذكار يُغنَّى فيها ويُرقَص. كل هذا مخالف للإسلام الصحيح يجب أن يُزَال، ويجب أن نعود إلى الإسلام في بساطته الأولى، وطهارته ونقائه، ووحدانيته واتِّصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك.. والكتب المملوءة بالتوسُّلات كتب ضارة؛ كدلائل الخيرات، وما في البُرْدة من مثل قوله:

يا أكرمَ الخلق ما لي من ألوذُ به
سِواك عند حدوث الحادث العَمَمِ

ونحو ذلك أقوال فاسدة كاذبة، فلا التجاء إلا إلى الله، ولا اعتماد في الدنيا والآخرة إلا عليه".

ومما قاله أحمد أمين:

"ظهر المصلحون على توالي العصور يحاولون أن يَردُّوا الناس عن هذا (أي عن الأعمال المنافية لتوحيد الله) ويرجعوهم إلى توحيد الله وحده. وكلما دعا

داعٍ إلى ذلك عُذِّب وأُهين ورُمي بالكفر والإلحاد، كما فُعل بابن تيمية.. وأتى بعده بقرون محمد بن عبدالوهاب، فدعا مثل دعوته، فَرُمِيَ بالكفر، وأخيراً جاء الشيخ محمد عبده، فدعا إلى العدول عن التوسُّل والشفاعة، والزيارة للقبور، وملأ دروسه في التفسير بمثل هذه الدعوة، فَلقِيَ من أهل زمنه ما لم يَغِبْ عن أذهاننا بعد"[1].

قال كاتب هذه السطور: لقد بَيَّنت بكلام يفي بالغرض - وإن باختصار - في ٣٢ صفحة من كتابي عن الشيخ محمد المبني أساساً على أطروحتي للدكتوراه، رأي ذلك الشيخ وأنصاره في التوحيد وما يناقضه، وفي زيارة القبور والبناء عليها، وفي مفهوم البدعة، وفي الاجتهاد والتقليد.

وكان طه حسين - وهو في طليعة من يُسمَّون "التنويريين" - ممن تَحدَّثوا عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب ودعوته. ومما قاله:

"عاد ابن عبدالوهاب بعد رحلاته إلى موطنه نجد، فأقام مع أبيه حيناً يناظر ويدعو إلى آرائه حتى ظهر أمره وانتشر مذهبه، وانقسم الناس فيه قسمين، فكان له الأنصار وكان له الخصوم. وكان المذهب (الذي دعا إليه) جديداً قديماً معاً. فالواقع أنه جديد بالنسبة إلى المعاصرين، ولكنه قديم في حقيقة الأمر لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النَّقي المُطهَّر من كل شوائب الشرك والوثنية. هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي خالصاً وحده مُلغياً لكل واسطة بين الله وبين الناس.

هو إحياء للإسلام العربي وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب".

(١) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، بيروت، ١٩٧٩م، ص ص٤٧-٤٩.

ومما قاله طه حسين:

"ومن الغريب أن ظهور هذا المذهب (يعني دعوة ابن عبدالوهاب) الجديد في نجد قد أحاطت به ظروف تُذكِّر بظهور الإسلام في الحجاز. فقد دعا صاحبه إليه باللِّين أوَّل الأمر، فتبعه بعض الناس. ثم أظهر دعوته، فأصابه الاضطراب وتَعرَّض للخطر. ثم أخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر كما عرض النبي نفسه على القبائل، ثم هاجر إلى الدِّرعية وبايعه أهلها على النصر، كما هاجر النبي إلى المدينة. ولكن ابن عبدالوهاب لم يُرد أن يشتغل بأمور الدنيا، فترك السياسة لابن سعود، واشتغل هو بالعلم والدين، واتَّخذ السياسة وأصحابها أداة لدعوته".

ومما قال طه حسين أيضاً:

"الذي يعنينا من هذا المذهب (يعني دعوة الشيخ محمد) أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب. وقد كان هذا الأمر عظيماً خطيراً من نواحٍ مختلفة، فهو قد أيقظ النفس العربية، ووضع أمامها مثلاً أعلى أحيته وجاهدت في سبيله بالسيف والقلم واللِّسان، وهو قد لفت المسلمين جميعاً وأهل العراق والشام ومصر بنوع خاص إلى جزيرة العرب"[1].

(١) انظر كتابه الحياة الأدبية في جزيرة العرب، الذي أعيدت طباعته بإعداد محمد القشعمي ضمن كتاب عنوانه: طه حسين في المملكة العربية السعودية، الرياض ١٤٣٠هـ، ص ص ٢٥٩-٢٦١.

آل سعود

في دائرة المعارف الإسلامية الكبرى*

ـ ١ ـ

هذه الدائرة الضخمة حجماً، الواسعة شمولاً، قام بإصدارها باللغة العربية مركز دائرة المعارف الإسلامية الكبرى في طهران سنة ١٩٩١م؛ وذلك بإشراف العالم الأستاذ كاظم الموسوي البجنوري. وقد بُذل فيها ما بُذل من جهد يستحق الثناء والتقدير. ومن بين ما كُتب فيها مقالة عن آل سعود (المجلد الأول، ص ص٥٢٧ - ٥٤٠) بقلم الأستاذ صادق سجادي. والمقالة، على وجه العموم، جيدة وافية لا بأس بحيادها. ومع هذه الصفات المُقدَّرة لكاتبها الكريم فإن فيها أموراً لو رُوعيت لزادت جودتها واكتمل حسنها.

- قيل (ص٥٢٧): إن سلالة آل سعود حكمت جزءاً من الجزيرة العربية منذ سنة ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م.

ومن المعلوم أن جد آل سعود ـ واسمه مانع المُرَيدي ـ قد أسس بلدة الدِّرْعية سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م، وأن نسله توارثوا إمارتها، لكن حكمهم، الذي امتد إلى خارج تلك البلدة، بدأ حقيقة من المبايعة التي تَمَّت بين الأمير الحكيم محمد بن سعود والشيخ الجليل محمد بن عبدالوهاب، سنة ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م، على نصرة دعوة التوحيد التي نادى بها ذلك الشيخ.

- قيل (ص٥٢٧): " بالرغم من أن الأشراف الهاشميين كانوا يحكمون الحجاز... نيابة عن الخليفة العثماني فقد ثار عدد من الأفراد والقبائل ضد

* نُشر هذا التعليق في صحيفة الجزيرة في ثلاث حلقات أسبوعية؛ أولاها بتاريخ ١/ ٨/ ١٤٢٦هـ الموافق ٥/ ٩/ ٢٠٠٥م.

الخليفة العثماني والشريف القريشي (القرشي) في مناطق من شبه الجزيرة وضواحيها، ورفعوا راية الاستقلال؛ منهم عائلة المكْرمي الإسماعيلية المذهب في وادي نجران بالقرب من حدود اليمن الشمالية، وإمام اليمن الزيدي في مرتفعات هذه المنطقة، والخوارج في عمان، وقبيلة بني خالد في الواحات الغربية بقطر . . . ومنهم سعود بن محمد بن مرخان بن إبراهيم . . ، الذي ثَبَّت إمارته شيئاً فشيئاً في الدِّرْعية وما جاورها من الواحات الصغيرة" .

والكلام السابق يحتاج إلى تدقيق وتوضيح .

أ- يوحي الكلام بأن المكْرمي في نجران وأئمة اليمن الزيديين كانوا تابعين لأشراف الحجاز التابعين - بدورهم - للدولة العثمانية . والواقع أن المكارمة وأئمة اليمن الزيديين لم يكونوا تابعين لأولئك الأشراف؛ بل كانت اليمن ولاية عثمانية مرتبطة مباشرة بالحكومة المركزية في الآستانة (اسطنبول)، ولم يكن حاكمها - خلال ذلك الارتباط - من اليمنيين . ثم ثار الأئمة الزيديون على العثمانيين، وتَمكَّنوا من انتزاع حكم اليمن قُبَيل نهاية النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري .

ب - يقصد الكاتب الكريم " بالخوارج في عمان" أتباع المذهب الإباضي . وقد يوافقه على هذه التسمية بعض الناس . على أن هؤلاء الأتباع يقولون عن أنفسهم : إنهم أهل السنة . وهم ليسوا من المُتشدِّدين الذين يَستحلُّون دماء المسلمين، ويُكفِّرونهم؛ مثل الأزارقة . ومن أحسن الكتابات العلمية عنهم كتابة الدكتور عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية، الذي صدر عام ١٩٧٨م . وعلى أيٍّ حال، فإن عمان لم تكن تابعة للدولة العثمانية حتى يصح القول : إن أهلها رفعوا راية الاستقلال عن العثمانيين . أما قبيلة بني خالد فقد استطاع زعماؤها من آل حُمَيْد الاستقلال بشرقي الجزيرة العربية المشتمل على واحتي الأحساء والقطيف وما يليها شمالاً وجنوباً بشرق في

العقد الثامن من القرن العاشر الهجري. وأما سعود بن محمد فلم يكن هو ولا من سبقه من أسرته تابعين للدولة العثمانية.

- قيل (ص٥٢٧): "حينما توفي (سعود بن محمد بن مقرن) تحالف ابنه محمد مع محمد بن عبدالوهاب مؤسس الوهابية".

والعبارة، هنا، توحي بأن محمد بن سعود خلف أباه مباشرة في إمارة الدِّرْعية. والصحيح أن الذي خلف سعوداً في الإمارة زيد بن مرخان. ولما اغتيل زيد؛ غدراً، سنة ١١٣٩هـ، من قِبَل ابن مُعمَّر، أمير العيينة، تَولَّى محمد بن سعود إمارة الدِّرْعية[١]. وتسمية الكاتب الكريم دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب "بالوهابية" ليست غريبة. ذلك أنه قد سَمَّاها بهذه التسمية كثير من الشرقيين والغربيين، وإن كان إطلاقُها في بداية الأمر من قِبَل المعارضين لدعوة الشيخ محمد الإصلاحية ولأنصارها، محاولةً منهم لتنفير النَاس عنها. أما أنصار تلك الدعوة؛ وبخاصة خلال عهد الدولة السعودية الأولى، فَيُسمُّون أنفسهم المُوحِّدين تأكيداً على تَمسُّكهم بعقيدة التوحيد.

- قيل (ص٥٢٧): "لا تخلو المصادر التاريخية من اختلافات وتناقضات حول حكام الدورين الأول والثاني والسنوات التي حكموا خلالها". وقيل: "إن من أسباب ذلك أن تدوين الوقائع التاريخية لم يكن شائعاً آنذاك بين العرب في تلك المنطقة".

والحقيقة أن المصادر المَحلِّية - وفي طليعتها ابن غَنَّام وابن بشر والفاخري وابن عيسى - قد أوضحت مجتمعة حكام الدولتين السعوديتين الأولى والثانية، كما أوضحت سنوات حكم كُلٍّ واحد منهم إيضاحاً تاماً. وأولئك المؤرخون كتبوا

(١) عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، الطبعة الثانية من قِبَل وزارة المعارف السعودية، ١٣٩١هـ ج٢، ص ص٢٣٦ - ٢٣٧.

تواريخهم بتدوين الحوادث سنة سنة. وكان ابن غَنَّام معاصراً للدولة السعودية الأولى، وعاش أواخر حياته في عاصمتها الدِّرْعية. أما ابن بشر والفاخري فولُدا وشبَّا في عهد تلك الدولة، وكتبا تاريخهما في عَهد الدولة السعودية الثانية. وأَما ابن عيسى فعاصر أحداث أواخر عهد هذه الدولة، وكتب تاريخه في عهد الدولة السعودية الثالثة.

- قيل (ص٥٢٧): "إن محمد بن سعود، بعد وفاة أبيه سعود، حكم من ١١٤٨هـ إلى ١١٧٩هـ؛ متعاضداً مع إخوته ثنيَّان وفرحان ومشاري، إلى أن تُوفي ثُنيَّان سنة ١١٦٠هـ، فاعترف الجميع لمحمد بالإمامة الدينية والزعامة الزمنية المطلقة".

والثابت أن محمد بن سعود - كما ذُكر سابقاً - لم يخلف أباه سعوداً في الحكم مباشرة، وأنه أصبح أميراً للدِّرْعية سنة ١١٣٩هـ إثر اغتيال زيد بن مرخان. أما ثُنيَّان، الذي لم يشترك هو ولا أخواه فرحان ومشاري في الإمارة، فَتُوفي سنة ١١٨٦هـ[1]؛ أي بعد وفاة أخيه محمد بسبع سنوات. ولم تكن زعامة محمد بن سعود السياسية مطلقة - كما يفهم من لفظ الكلمة الأخيرة - بل كان حكمه مُقيَّداً بأحكام الشريعة الغَرَّاء؛ وبخاصة بعد المبايعة التي تَمَّت بينه وبين الشيخ محمد بن عبدالوهاب سنة ١١٥٧هـ.

- ٢ -

- قيل (ص ٥٢٧): "هاجم حسن بن هبَة الله، أمير نجران، نجداً على رأس عدد من القبائل اليمنية للثأر لليمنيين الذين قُتلوا وأُسِروا في هجوم عبد العزيز بن

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٧٥.

محمد قائد القوات الوهابية، وهزموا الوهابيين في حائل (هكذا. والصحيح الحائر؛ أي حائر سبيع) هزيمة منكرة".

وما حدث هو أنَّ فريقاً من قبيلة العجمان الذين ينتمون إلى يام، هاجم جماعة من قبيلة سُبَيْع في نجد، التي كانت حينذاك موالية لآل سعود، قادة الدولة السعودية الجديدة في المنطقة، ونَهبَ ما كان معها. فلما علم عبدالعزيز بن محمد بما حدث لتلك الجماعة من سُبَيْع، لحق بفريق العجمان وفاجأه بهجوم نتج عنه مقتل نحو خمسين رجلاً من العجمان، وأسر آخرين. فمضى الناجون منهم إلى نجران؛ حيث القبائل اليامية التي يشتركون معها نسباً، وطلبوا من رئيس تلك البلاد، حسن بن هِبَة الله المَكْرمي، أن يساعدهم ليثأروا مما حَلَّ بهم على يد عبدالعزيز بن محمد، فَهبَّ ذلك الرئيس لمساعدتهم، وانضم إليه مَن انضم، ثم التقى جيشه بجيش عبد العزيز بن محمد في الحائر (حائر سُبَيْع) الواقع جنوب الرياض؛ وذلك عام ١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م. وانتهت المعركة التي دارت بين الجيشين بهزيمة كبيرة لجيش عبد العزيز؛ إذ قُتل منه أكثر من أربع مئة رجل، وأُسر كثيرون. ثم دفع قادة الدِّرْعية مبالغ مالية وهَدايا إلى الرئيس النجراني وتَوصَّلوا معه إلى صلح يتبادل بموجبه الطرفان الأسرى، ويعود ذلك الرئيس إلى بلاده.

- قيل (ص ٥٢٨): " وأدَّى فشل المعارضين لآل سعود إلى خضوع آل القصيم والمنيخ والزلفي واليمانة وزيد بن زامل أمير دلم أيضاً إلى الوهابيين".

وصحة الأسماء الواردة في العبارة السابقة: القصيم ومُنَيخ واليمامة والدِّلَم.

- تحدث المؤلف الكريم (ص ٥٢٨) عن غزوة شريف مكة، سنة ١٢٠٥هـ، لنجد ومقاومة قادة الدِّرْعية له، وقال: "إن عبدالعزيز بن محمد - قبل استنجاد الشريف عبد العزيز بأخيه غالب - هاجم بنفسه عرب مُطَيْر من أتباع حسن الدويش، وهزمهم هزيمة منكرة".

والصحيح أن الذي هاجم الدويش وأتباعه سعود بن عبد العزيز، لا عبد العزيز نفسه، وكان ذلك الهجوم بعد انسحاب الشريف غالب من نجد إلى مكة[١].

- قيل (ص ٥٢٨- ٥٢٩): إن شريف مكة - في الوقت الذي كان فيه ثُوَيني ابن عبد الله، زعيم المنتفق، يقود حملة ضد الأراضي السعودية من العراق سنة ١٢١١هـ - أرسل حملة ضد آل سعود بقيادة عثمان المضايفي.

والصحيح أن الحملة التي أرسلها الشريف غالب كانت بقيادة الشريف ناصر ابن يحيى، وكانت سنة ١٢١٠هـ، وقد حَلَّت بها هزيمة فادحة في الجَمَّانية، وعادت فلولها إلى الحجاز[٢]. وكان ذلك سبباً من أسباب حملة ثويني من العراق.

- قيل (ص ٥٢٩): " وفي ١٨ من ذي الحجة ١٢١٦هـ هاجم سعود بن عبدالعزيز كربلاء للانتقام من الشيعة الذين كانوا يعتقدون بأن المذهب الوهابي لا يَتَّفق وجوهر الإسلام، ويظهرون له العداء أكثر من غيرهم. وبعد أن هدم الأماكن المُقدَّسة فيها قتل أغلب سكانها ".

ومن الواضح أن الكاتب الكريم أظهر تلك الحادثة وكأنها نتيجة خلاف مذهبي، وأن سعود بن عبد العزيز قام بالهجوم على تلك البلدة لِمُجرَّد الانتقام من أناس يختلفون معه في المذهب.. فما الحقيقة؟

كان والي بغداد، سليمان باشا، قد أرسل حملة ضد الدولة السعودية أواخر سنة ١٢١١هـ بقيادة ثُوَيني بن عبد الله زعيم المنتفق. لكن قبل التقاء قوات ثويني بالقوات السعودية اغتيل، فعادت فلول جيشه إلى العراق؛ وذلك أوائل سنة ١٢١٢هـ. وفي عام ١٢١٣هـ أرسل سليمان باشا حملة أخرى بقيادة مساعده علي

---

(١) لقد فَصَّل الحديث عن ذلك الموضوع كُلٌّ من ابن غَنَّام وابن بشر. وتَحدَّث عنه بما يُرْجَى أنه واف بالغرض كاتب هذه السطور في كتابه تاريخ المملكة العربية السعودية، ط ١١، الرياض ١٤٢٣هـ، ج١، ص ص ١٢٨- ١٢٩.

(٢) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ١٣٥-١٣٦.

باشا، فوصلت تلك الحملة إلى إقليم الأحساء، وحاصرت الحامية السعودية فيها، لكنها فشلت في مسعاها وعادت إلى العراق بعد تكبُّدها خسائر وإبرام هدنة مع السعوديين الذين كانت قواتهم بقيادة سعود بن عبد العزيز حينذاك. لكن في عام ١٢١٥هـ قامت قبيلة الخزاعل بمهاجمة نجديين قرب النجف؛ مخالفةً بذلك تلك الهدنة، وقتلوا منهم نحو ثلاث مئة رجل. فاحتج الإمام عبد العزيز بن محمد لدى باشا بغداد، وطالب بدفع ديات القتلى. ودارت بين الجانبين مفاوضات عن طريق عبد العزيز الشاوي، أحد رجالات العراق المشهورين، لكنها لم تُؤدِّ إلى نتيجة إيجابية؛ إذ رفض والي بغداد دفع ديات القتلى من النجديين، كما رفض السماح لبادية نجد بالرعي في الأراضي العراقية. ونتيجة لذلك قام سعود بن عبد العزيز بالهجوم على كربلاء[١]. ومما يلفت النظر أن الأستاذ سجادي نفسه كتب بعد ذلك (ص٥٢٩) أن سعوداً "هاجم كربلاء رداً على الهجمات التي قامت بها قبيلة الخزاعل الشيعية على قوافل الوهابيين".

- قيل (ص٥٢٩): تُوفِّي سعود في ٨ جمادى الأولى ١٢٢٩هـ بعد أن عُمِّرَ ٦٨ عاماً.

والذي ذكره ابن بشر أن وفاته كانت ليلة الاثنين الحادي عشر من جمادى الأولى من العام المذكور[٢].

- قيل (ص٥٢٩): عُقد صلح بين عبد الله بن سعود وطوسون باشا. "وكأن هذا الصلح لم يُرْضِ كلاً مَن محمد علي والوهابيين".

والصحيح أن عبد الله بن سعود كان راضياً عن الصلح، وقد أرسل من قِبله

(١) رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ترجمة موسى نورس، بيروت، ١٩٦٥م، ص ص ٢١٦- ٢١٧.

(٢) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص١٣٩. وكذلك ذكره الفاخري في تاريخه، الذي أعادت طباعته دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤١٩هـ، ص١٧٥.

وفداً إلى محمد علي، حاكم مصر، أملاً في أن يُقرَّ ذلك الصلح، لكنه لم يفعل؛ بل رفض الصلح، وأرسل قوات بقيادة ابنه إبراهيم للقضاء على الدولة السعودية في نجد، فَتمكَّنت من ذلك فيما بعد.

- قيل (ص٥٣٠): "بعد خروج إبراهيم باشا من نجد تَولَّى مشاري بن سعود زعامة الوهابيين، واستطاع أن يثبت حكمه في الدِّرْعية. ويقال: إن إبراهيم باشا هو الذي عَيَّنه حاكماً على نجد". وعزا الكاتب الرواية الأخيرة إلى المؤرخ الروسي لوتسكي.

والواقع أن أول محاولة لإقامة دولة في نجد - بعد خروج إبراهيم باشا منها - كانت بقيادة محمد بن مشاري بن مُعمَّر، ولقيت محاولته شيئاً من النجاح في بداية الأمر، وانضم إليه في الدِّرْعية تركي بن عبد الله آل سعود وأخوه زيد. غير أنه فُوجئ بدخول مشاري بن سعود، أخي الإمام عبد الله آخر حكام الدولة السعودية الأولى، إليه في تلك المدينة بقوات لم يكن له قِبَلٌ بها. فما كان منه إلا أن تنازل لمشاري عن الحكم. ثم غدر به - بعد ذلك - وفاجأه بدخوله الدِّرْعية بأتباعه، وقبض على مشاري، ثم أُرسل مشاري إلى قائد الحامية التابعة لمحمد علي في عنيزة؛ حيث مات في سجنه هناك. ولم يكن مشاري مُعيَّناً من إبراهيم باشا؛ بل من الواضح أنه كان معارضاً لحكم والي مصر.

-٣-

قيل (ص ٥٣٠): "هرب تركي (ابن عبد الله) أثناء الهجوم المصري على السدير، وبعد موت مشاري (ابن سعود) بدأ نزاعه مع ابن المُعمَّر، وقتله. ثم سعى للحصول على قاعدة له في الرياض غير أنه لم يُحقِّق هدفه. وفي ١٢٣٦ قاد تَمرُّد الوهابيين في الدِّرعية. وبعد أن خلع الحاكم الذي ولاَّه المصريون عاد فأسس الدولة الوهابية في الدِّرعية. وفي أواخر ١٢٣٧هـ وصل حسين أبو ظاهر

إلى نجد من قبَل العثمانيين فانبرى تركي مع ابنه فيصل للتصدِّي له، وبعد فترة من القتال والكَرِّ والفَرِّ أجلاهم عن نجد".

والواقع أن تركي بن عبد الله لم يهرب في أثناء الهجوم على سدير، بل كان في طليعة المدافعين عن الدِّرعية في أثناء حصار قوات إبراهيم باشا لها؛ وهو الحصار الذي دام أكثر من ستة أشهر، وأبدى فيه المدافعون ما أبدوا من الشجاعة[1]. ومن المُرجَّح أن تركي بن عبد الله لم يغادر الدِّرعية إلا بعد أن رأى الإمام عبد الله - إدراكاً منه لضعف موقفه وحرجه - قد خرج يفاوض إبراهيم باشا على الاستسلام؛ بل ذكر ابن بشر أن تركي بن عبدالله ترك الدِّرعية بعد أن أخذها إبراهيم[2].

وقد سبقت الإشارة إلى تعاون تركي بن عبدالله مع ابن مُعمَّر في بداية الأمر، لكن لما غدر هذا بمشاري بن سعود قضى عليه تركي جزاء على ذلك الغدر. ولم يؤسس الدولة السعودية الثانية في الدِّرعية؛ بل في الرياض.

ومن الثابت أن فيصل بن تركي، الذي كان، أيضاً، في طليعة المدافعين عن الدِّرعية، قد أُخذ مع من أُخذ من آل سعود إلى مصر بعد استسلام تلك المدينة لإبراهيم باشا سنة ١٢٣٣هـ. ولم يعد إلى نجد إلا سنة ١٢٤٣هـ[3]. بل إن الأستاذ سجادي نفسه ذكر هذا بعد عدَّة سطور. ومن الواضح أن سبب خطئه فيما ذكره هو أولاً أنه لم يرجع إلى مصادر معاصرة في طليعتها ابن بشر؛ بل اعتمد على الأستاذ فؤاد حمزة في كتابه قلب جزيرة العرب، وهذا المؤرخ لم يُوفَّق في كتابته عن هذه المسألة بالذات. فقد قال (ص ٣٣٥): "لما تَولَّى تركي أخذ على عاتقه دفع الترك والمصريين بمعونة ولده فيصل، فَتوفَّق الاثنان خلال عشرين سنة في الحرب والنزال إلى إجلائهم من داخلية البلاد العربية سنة ١٢٥٦هـ".

---

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج١، ص ص ٢٦٢ - ٢٧٥.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٨٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ٤١.

والذي يرجع إلى ابن بشر، المؤرخ النجدي المعاصر لتلك الأحداث، يجد أن تركي بن عبد الله بدأ بمحاربة قوات محمد علي سنة ١٢٣٦هـ، وأنه نجح، سنة ١٢٤٠هـ، في إخراج البقية الباقية من تلك القوات من نجد. وفي آخر يوم من عام ١٢٤٩هـ اغتُيل غدراً بمؤامرة دبَّرها مشاري بن عبد الرحمن آل سعود الذي استولى بعد ذلك الاغتيال على مقاليد الأمور في الرياض. أما ابنه فيصل فقد عاد من مصر إلى نجد سنة ١٢٤٣هـ. وبعد عودته أصبح الساعد الأيمن لأبيه في توحيد ما كان لم يُوَحَّد من مناطق البلاد وفي تثبيت الأمن في المناطق المُوحَّدة. ولم تكن هناك - في تلك الفترة - مواجهات مع قوات تابعة لحاكم مصر أو الدولة العثمانية. ولما اغتيل تركي كان ابنه فيصل في أطراف القطيف يخمد فتنة قامت هناك، فعاد مسرعاً إلى الرياض، وقضى على مشاري بعد أربعين يوماً من ذلك الاغتيال. وفي ذلك الوقت كانت أحلام محمد علي باشا في تكوين امبراطورية تحت قيادته قد تبلورت، فأرسل، عام ١٢٥٢هـ، إلى نجد قوات بقيادة إسماعيل آغا مع خالد بن سعود، أخي عبد الله آخر حكام الدولة السعودية الأولى. ولما اقتربت تلك القوات من الرياض غادرها فيصل إلى إقليم جنوبي نجد. ثم حاولت قوات إسماعيل وخالد إخضاع ذلك الإقليم، فَمُنيت بهزيمة. ونتيجة لذلك أرسل محمد علي قوات بقيادة خورشيد باشا، فَتمكَّنت أخيراً من إجبار فيصل بن تركي على الاستسلام له سنة ١٢٥٤هـ، وأُرسل مَرَّة أخرى إلى مصر.

على أن نشاط خورشيد في شرقي الجزيرة العربية بالذات أغضب بريطانيا، التي كان لها نفوذ في سواحل تلك المنطقة. فسارعت إلى احتلال ميناء عدن لتحول دون إرسال محمد علي قوات عبر البحر الأحمر إلى الخليج. وتزامن ذلك مع نجاحه في بلاد الشام، فعملت على عقد مؤتمر لندن، عام ١٨٤٠م، الذي كان من بين قراراته وجوب سحب قوات محمد علي من جزيرة العرب. وسُحبت تلك القوات من نجد، ولم يبق منها إلا حامية صغيرة في الرياض مع

خالد بن سعود. ثم تَمكَّن عبد الله بن ثُنيَّان آل سعود من إرغامها على مغادرة هذه المدينة بعد أن غادرها خالد بن سعود أيضاً؛ وذلك عام ١٢٥٧هـ. ثم عاد فيصل بن تركي من مصر إلى نجد، عام ١٢٥٩هـ، ليبدأ فترة حكمه الثانية التي دامت حتى وفاته سنة ١٢٨٢هـ.

- قيل (ص ٥٣٠): في عام ١٢٤٢هـ عاد مشاري بن عبد الرحمن من مصر إلى نجد " فأكرمه عَمُّه تركي بن عبد الله وعَيَّنه أميراً على المنفوحة". وعُزي ذلك إلى فؤاد حمزة.

أما عودة مشاري من مصر إلى نجد فكانت سنة ١٢٤١هـ. وأما نقل الأستاذ سجادي من حمزة فصحيح، لكن حمزة نفسه قد أخطأ، وذكر أن تركي بن عبد الله عَمٌّ لمشاري. والصحيح أنه خالٌ له. ولَعلَّ سبب الخطأ أنه نُقل من مصدر كُتب باللغة الإنجليزية التي تعني فيها كلمة Uncle عَمًّا وخالاً علَى حدٍّ سواء. واسم البلدة منفوحة من دون " أل". وكان تركي قد أرسل قصيدة إلى مشاري يخبره فيها بانتصاره في نجد، ويَحثُّه على مغادرة مصر. ومطلع تلك القصيدة:

طَار الكرى من مَوْق عَيني وفَرَّا
وفَزَّيت من نَومي طَرَى لي طَواري

ومنها:

سِرْ يا قلمْ واكتب على ما تورَّا
أزكى سلامٍ لابن عَمِّي مشاري

شيخٍ على درب الشجاعة مضرًّا
من لابةٍ يوم الملاقى ضواري

ومنها:

يا حـيف يا خـطـو الشـجـاع المضـراً
فـي مـصـر مـمـلـوك لحـمـر العَـتَـاري

ومنها:

اكـفـخ بـجـنـحـان السـعـد لا تـدراً
فـالـعـمـر مـا يـاقـاه كـثـر المـداري

- قيل (ص ٥٣١): إن فيصل بن تركي هرب من مصر سنة ١٢٥٧هـ، فَتوجَّه إلى دمشق، ومنها إلى نجد.

وهروب فيصل من مصر كان سنة ١٢٥٩هـ[1]. ولم تذكر المصادر المعاصرة للحادثة الموثوقة أنه ذهب إلى دمشق.

- قيل (ص ٥٣١): "إن عبد الله بن فيصل التجأ إلى ابن سُلَيْم في عنيزة، فلم يقبله فيها، فلجأ إلى ابن رشيد في حائل، فلم يقبله فيها أيضاً". وعُزِي ذلك إلى فؤاد حمزة، وبالرجوع إلى حمزة يَتَّضح أنه قال: "حاول عبد الله بن فيصل أن يظهر صَولته في القصيم عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م، فاستولى على عنيزة إلا أن بريدة قاومته مقاومة عنيفة، واستنجد أهلها بمحمد بن رشيد من حائل، فجاءها هذا وفكَّها من نفوذ ابن سعود وحازها لنفسه".

ومن الواضح أن ما ذكره كُلٌ من سجادي وحمزة ليس دَقيقاً، فما الذي حدث؟ عندما هزمت قوات عبد الله بن فيصل، التي كانت بقيادة أخيه محمد، في معركة جُودَة على يد أخيهما سعود وأتباعه، سنة ١٢٨٧هـ، جمع عبد الله ثروته وغادر الرياض مُتَّجهاً إلى جبل شَمَّر. وفي طريقه إلى هناك اتَّصل بأمير

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص١٢٩.

عنيزة، زامل بن سُلَيْم، محاولاً أن يكسبه إلى جانبه، لكن هذا الأمير لم يشأ أن يَتدخَّل في نزاع الأخوين، عبدالله وسعود، حينذاك. ويبدو أن عبد الله لم يجد من قادة حائل ما يُشجِّعه على مواصلة سيره إلى هناك، ورأى أن يستنجد بوالي بغداد مدحت باشا ليساعده. فوجد ذلك الوالي في استنجاده به فرصة، وأرسل قوات احتلت شرقي البلاد. وفي عام ١٢٩١هـ تُوفي سعود بن فيصل في الرياض، وخلفه في حكمها أخوه عبد الرحمن، الذي تنازل عن الحكم لأخيه عبد الله سنة ١٢٩٣هـ. وفي تلك السنة أغرى أمير عنيزة الإمام عبد الله بالقدوم إليه ليساعدا آل أبو عليَّان - أمراء بُرَيْدة سابقاً - على خصومهم آل مُهنَّا أمرائها حينذاك. وقدم الإمام عبد الله إلى عنيزة، كما قدم إليها ابن رُبَيْعان رئيس الرُّوقَة من عُتَيْبة، لكن رئيس بَرْقا، من هذه القبيلة لم يقدم. وأمام الخطر الذي أصبح يُهدِّد أمير بُرَيْدة، حسن المُهنَّا، استنجد بمحمد بن رشيد، أمير حائل حينذاك. فأدرك الإمام ومن معه صعوبة الموقف، واصطلح مع خصومه على أن يعود هو إلى الرياض، ويعود ابن رشيد، الذي كان قد اقترب من بُرَيْدة، إلى حائل. ولم تحدث مقاومة من بُرَيْدة لأنه لم يحدث هجوم عليها.

معركة الجَهْراء (١)

يَتَّضح للمتُأمِّل في تاريخ إمارة الكويت في عهد الدولة السعودية الأولى أن قُوَّتها كانت بَحريَّة الطابع، وأن نفوذها البَريَّ كان محدوداً جداً، كما يَتَّضح له أن علاقاتها بتلك الدولة كانت غير وُدِّية بصفة عامة، وأن حدودها معها لم تكن واضحة. على أن تَركُّز هجوم السعوديين على بلدة الكويت ذاتها يوحي بأن حدود الإمارة قريبة جداً من تلك البلدة(٢).

وكانت علاقةُ إمارة الكويت بالدولة السعودية الثانية حسنةً على العموم. ومن الواضح أن النفوذ البَرِّي لتلك الإمارة ظَلَّ محدوداً. ولَعلَّ من أدلَّة ذلك أن الإمام تركي بن عبد الله - في تَعقُّبه للقبائل التي استوجبت غزوه لها سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م - مكث في الصُّبَيْحية أكثر من أربعين يوماً وفد عليه خلالها رؤساء العربان يُجدِّدون ولاءهم، كما أهدى إليه رئيس الكويت هدايا(٣). وفي هذا ما يوحي بأن سلطة الأمير الكويتي لم تصل إلى الصُّبَيْحية. وفي عام ١٢٧٦هـ هجم عبد الله بن فيصل على العجمان في الوَفْراء، وانهزمت فلولهم إلى الصُّبَيْحية، فلحقهم، وهاجمهم فيها، فانهزموا أمامه إلى الجَهْراء، فلحقهم إلى هناك، وقتل منهم نحو ٧٠٠ رجل(٤). وفي العام التالي كَرَّر عبد الله الهجوم على العجمان

---

(١) هذه الكتابة المختصرة عن تلك المعركة دَوَّنها كاتب هذه السطور استجابة لطلب من سمو الأمير فيصل بن فهد، رحمه الله. ومن أجود الدراسات عن معركة الجَهْراء بالذات تلك التي كتبها الدكتور خالد السعدون ضمن كتابه العلاقات بين نجد والكويت ١٣١٩-١٣٤١هـ، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٠٣هـ، ص ٢٤٧-٢٦٨.

(٢) لكاتب هذه السطور كتاب عنوانه: العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت، ط٢، الرياض ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(٣) عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، طبعة وزارة المعارف السعودية الثانية، ١٣٩١هـ، ص٥٠.

(٤) إبراهيم بن عيسى، عقد الدرر فيما وقع من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأوَّل الرابع عشر، طُبِع ملحقاً لعنوان المجد، مصدر سبق ذكره، ص٢٧.

ومن انضم إليهم من المنتفق في الجَهْراء، وهزمهم هزيمة كبيرة [١]. ولم يبدر من أمير الكويت أيٌّ احتجاج على ما قام به عبد الله في كلا العامين. وهذا يوحي بأن سلطة أمير الكويت لم تكن حينذاك ممتدة إلى الوَفراء، ولا إلى الصُّبَيْحية، ولا إلى الجَهْراء. وقد أكَّد المندوب البريطاني، لويس بيلي Pelly، صغَر المساحة التي تَمتدُّ إليها سلطة ذلك الأمير سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م [٢].

أما علاقة أمير الكويت، مبارك بن صباح، بالملك عبد العزيز فكانت متذبذبة؛ مَرَّة تبدو معه، ومَرَّة أخرى تبدو خلاف ذلك. وكان أكبر أسباب ذلك التذبذب، فيما يظهر، اتِّباع ذلك الأمير ما اعتقد أنه حفْظ توازن بين القُوى المتنافسة في المنطقة. وربما كان من تلك الأسباب تَسرُّب نوعَ من الغيرة السياسية إلى نفسه من جَرَّاء نجاح الملك عبد العزيز.

ولقد بدأت علاقة أمير الكويت بالملك عبد العزيز تأخذ طوراً مُتميِّزاً منذ انتزاع الملك منطقة الأحساء والقطيف من العثمانيين. وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ١٣٣١هـ (مايو ١٩١٣م). وأصبح الملك الحاكم الحقيقي لتلك المنطقة؛ وهي المنطقة التي كانت تابعة لأسلافه في الدولتين السعوديتين الأولى والثانية. وقد أُشير سابقاً إلى مدى امتداد حكم كُلٍّ من آل سعود وآل صباح في عهدي الدولتين المَذكورتين. وكان مما قامت به الدولة العثمانية بعد انتزاع الملك عبد العزيز منها منطقة الأحساء والقطيف بأكثر من أسبوعين أن عقدت اتِّفاقية مع بريطانيا لرسم الحدود بين الممتلكات العثمانية وبين المَحميَّات البريطانية على ساحل الخليج، ومنها الكويت. وقد أعطت تلك الاتِّفاقية للكويت أراضي تفوق ما كان لها في

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) انظر كتابه الذي ترجمة عنوانه: تقرير عن رحلة إلى عاصمة الوهابيين، الرياض، في وسط جزيرة العرب، رحلة إلى الرياض، بمبي، ١٨٦٦م، ص ص ١٦و١٧٠. وقد أشار إلى أن حدود أمير الكويت لا تتجاوز موقع مَلَح.

السابق أضعافاً، وتزيد على ما أصبح لها بعد ذلك كثيراً. لكن من الواضح أن تلك الاتِّفاقية قد تَمَّت بين بريطانيا والدولة العثمانية، التي لم تكن عند كتابة بنودها حاكمة للأراضي التي تفاوضت عليها؛ وهي منطقة الأحساء والقطيف.

وإضافة إلى ذلك فإن تلك الاتِّفاقية لم يُصادَق عليها[1]. وقد فقدت كُلَّ أهمِّية لها بدخول بريطانيا الحرب ضد العثمانيين، وإزالة ما كان لهم من نفوذ في الخليج والعراق. ثم إن بريطانيا ذاتها قد اعترفت للملك عبد العزيز في معاهدة دارين، سنة ١٩١٥م، بأن سيادته تشمل نجداً والأحساء والقطيف والجُبَيْل وجميع المدن والمرافئ التابعة لها.

على أن مشكلة الحدود بين إمارة الكويت و حكومة الملك عبد العزيز لم تحدث في حياة الأمير مبارك بن صباح، الذي وافته المنية في شهر مُحرَّم سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م. وقد تَولَّى الإمارة بعده ابنه جابر. وبعد شهر من تَولِّيه الإمارة عقدت بريطانيا مع الملك عبد العزيز معاهدة دارين التي نَصَّت؛ إضافة إلى ما سبق، على تَعهُّد الملك - كما تَعهَّد والده من قبل - بأن يمتنع عن كل تجاوز وتَدخُّل في أراضي الكويت. وإذا كان من الواضح ما تَدلُّ عليه المعاهدة من اعتراف بسيادة الملك على الأمكنة المذكورة فإن من الواضح، أيضاً، أنها تفيد باعتراف بريطانيا صاحبة الحماية على الكويت عندئذ بأن سيادة ذلك الملك لا تختلف من حيث شمولها عن سيادة أسلافه.

وقد مَرَّ ذكر امتداد تلك السيادة في عهدي الدولتين السعوديتين الأولى والثانية.

وكانت أهمَّ المشكلات التي أثَّرت في علاقة الأمير جابر بالملك عبد العزيز إيواؤه للعجمان، الذين لم يكونوا على وفاق مع الملك حينذاك، وفرضه رسوماً

(١) ترولر، وترجمة عنوان كتابه: مولد العربية السعودية، لندن، ١٩٧٦م، ص١٧٢.

على بضائع النجديين المُورَّدة عبر الكويت، وتعاطفه الواضح مع ابن رشيد. على أن إمارة جابر لم تطل؛ إذ تُوفي بعد سنة وشهرين من تَولِّيه الإمارة تقريباً. فانتهت بذلك فترة كانت علاقته بالملك عبد العزيز خلالها: "في طور لا هو بالتفاهم الكامل ولا العداء الصريح"، على حَدِّ تعبير الدكتور خالد السعدون[١].

ولقد تَولَّى إمارة الكويت سالم بن مبارك. وفي عهده تَوتَّرت العلاقات بينه وبين الملك عبد العزيز بدرجة كبيرة حتى أدَّى تَوتُّرها إلى صدام مُسلَّح. وكان من أهمِّ أسباب الخلاف قضية العجمان، الذين كانوا عند تَولِّي سالم الإمارة، على خلاف مع الملك عبد العزيز. وقد لقي هؤلاء تعاوناً من الأمير سالم، فأخذ الملك يأخذ الزكاة من قبيلة العوازم الذين كان الأمير سالم يرى تَبعيَّتهم له. وازدادت هجمات العجمان، بالتعاون مع عشيرة الأسلم الشَّمَّرية، على القبائل التابعة للملك عبدالعزيز عبر الكويت إلى أن تَمكَّنت بريطانيا من الوصول إلى اتِّفاق بين الطرفين يمنع استمرار تلك الهجمات. على أن العجمان عادوا إلى طاعة الملك عبدالعزيز سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م؛ وبخاصة بعد أن انضم كثير منهم إلى حركة الإخوان[٢].

وبالرغم من انتهاء مشكلة العجمان فإن تَوتُّر العلاقات بين الأمير سالم والملك عبد العزيز ظَلَّ قائماً بسبب قضية تهريب المؤن إلى الأتراك عبر الكويت، وما نتج عن ذلك من حصار بريطاني أضرَّ بمصالح التجار النجديين، ثم بسبب مشكلة الحدود. ولقد انتهت القضية الأولى بانتهاء الحرب العالمية الأولى، وبقيت مشكلة الحدود حجر الزاوية في الخلاف بين الطرفين. ولأن الحدود بينهما لم تُعيَّن فإن الأمير سالماً أراد أن يثبت عملياً ما كان يراه نظرياً عن امتداد حدود إمارته معتمداً

(١) السعدون، مرجع سبق ذكره، ص١٩٦ .
(٢) المرجع نفسه، ص ص٢٠٦-٢٠٧ .

على الاتِّفاقية البريطانية العثمانية، التي سبق أن أشير إلى عدم صحة الاعتماد عليها. فحاول بناء مركز له في بُلْبول، الذي لا يبعد عن ميناء الجُبَيْل إلا تسعين ميلاً. وكتب إليه الملك عبد العزيز مُوضحاً أن المكان تابع له، لكن الأمير سالماً أصَرَّ على أنه من أراضيه. فكتب الملك إلى الوكيل السياسي البريطاني في الكويت مُبيناً له الأمر، ونهى الوكيل الأمير سالماً عن البناء، فامتثل.

وفي أثناء ذلك كانت قبيلة مُطَيْر في طليعة القبائل التي انضوت تحت لواء حركة الإخوان، وأخذت عشائرها تَتَّخذ لها هجراً تستقر فيها. وحدث أن بدأ ابن شُقَيْر، أحد زعماء تلك القبيلة، يقيم له هجرة في قَرْية. فغضب الأمير سالم من عمله مُدَّعياً أن قَرْية تابعة له، وحَذَّر ابن شُقَيْر من الإقامة فيها، لكن ابن شُقَيْر رفض تحذيره، فشكا الأمير سالم إلى الوكيل البريطاني، وشكا الملك عبد العزيز، أيضاً، إلى بريطانيا تحذير الأمير سالم لابن شُقَيْر. ولما يئس الأمير من تَدخُّل بريطانيا لصالحه أرسل قوة من ٤٠٠ رجل بقيادة دعيج الصباح لترحيل ابن شُقَيْر عن قَرْية. ووصل دعيج بقوته إلى حَمْض، فأدرك ابن شُقَيْر الخطر المحدق به، واستنجد بزعيم مُطَيْر، فيصل الدويش، الذي هَبَّ لنجدته بألفين من أتباعه. ومن الواضح أن تَحرُّك الدويش أساساً لم يَتمَّ خلافاً لرغبة الملك عبد العزيز، لكن من المحتمل جداً أن الملك لم يأمره إلا بالدفاع فقط. على أن الدويش رأى أن الهجوم هو الحَلُّ الأنسب لأن القُوَّة الكويتية لم ترسل إلا للمهاجمة. فهاجم تلك القوة في حَمْض، وقضى على أكثرها، وغنم غنائم كبيرة. ولم يكتف بذلك؛ بل هاجم قبيلة العوازم، وحصل منها على غنائم. ثم عاد إلى الأرطاوية، وأرسل خمس الغنائم إلى الملك عبد العزيز. وما إن علم الملك بذلك حتى أمره بإبقاء كل ما كسبه عند قاضي الأرطاوية حتى تأتيه أوامر بشأنه.

وبناء على نصائح من جهات مختلفة أرسل الأمير سالم كُلاً من عبد العزيز الحسن وعبد الله الصُمَيْط إلى الرياض ومعهما رسالة إلى الملك عبد العزيز كان

من أهمِّ ما ورد فيها مطالبته بإعادة ما غنمه الدويش وإلا فإنه سيهاجم الدويش ويأخذ الغنائم منه بالقُوَّة. وقد أبدى الملك للموفدين لومه للأمير سالم لمواقفه غير الوُدِّية منه، كما أبدى أسفه لما حدث في حَمْض موضحاً أنه لم يأمر الدويش بالهجوم، بل إنه أرسل إليه من يُحذِّره من ذلك. وأعاد خمس غنائم المعركة معهما، ووعد بردِّ كل ما غنمه الدويش وأتباعه إلى الكويت(١). وعاد الموفدان الكويتيان إلى بلدهما، ومعهما ناصر بن فرحان يحمل رسالة من الملك عبد العزيز إلى الأمير سالم تَتضمَّن لومه له على تَدخُّله فيما لا يعنيه بناء على أن قَرْية أرض سعودية، ولومه له على إرسال قُوَّة لإخراج ابن شُقَيْر منها دون إخباره بذلك. وطالب الملك الأمير بالتوقيع على وثيقة تَتضمَّن اعترافه بتبعية قَرْية وما حولها للملك، وتَعهُّده بعدم الاعتداء عليها. وما إن تَسلَّم الأمير سالم الرسالة حتى بادر إلى استشارة البريطانيين فيما يفعل. وقد نصحه هؤلاء بأن يجيب الملك برسالة لبقة يعتذر فيها عن عدم توقيع الوثيقة، ويخبره بأنه يعتبر الاتِّفاقية البريطانية العثمانية غير المصادق عليها لاغية. وكتب سالم رسالة إلى عبد العزيز مُؤكِّداً عمق العلاقة التي تربط أسرتيهما، ومُبرِّراً عدم توقيعه الوثيقة المرسلة إليه بأنه لا ضرورة لها، وواعداً بعدم صدور أيِّ إساءة منه(٢).

وكان قد جرى في أثناء وجود ابن فرحان بمجلس الأمير سالم ما زاد تَوتُّر العلاقات بين الطرفين. ذلك أن الحديث في المجلس تَطرَّق للقتال الدائر بين الإخوان و ابن رشيد، فذكر ابن فرحان انتصار الإخوان، لكن وفداً وصل من ابن رشيد وأفاد بهزيمة الإخوان. وبقدر ما بدت على سالم علامات الامتعاض من خبر انتصار الإخوان بدت عليه علامات السرور من نبأ هزيمتهم. ولما عاد ابن فرحان إلى الرياض مع مندوبين من أمير الكويت أخبر الملك عبد العزيز بما

---

(١) سعود بن هذلول، تاريخ ملوك آل سعود، الرياض، ١٣٨٠هـ، ص١٢٤ .
(٢) السعدون، مرجع سبق ذكره، ص٢٢٨ .

شاهده. واجتمع ذلك مع ما هو أهمُّ منه، وهو عدم توقيع الأمير سالم الوثيقة التي طُلب منه توقيعها، فغضب الملك عبد العزيز غضباً شديداً، وطلب من بريطانياَ أن تَتدخَّل لحل المشكلة قبل أن تَتطوَّر إلى ما هو أسوأ. وإدراكاً من الأمير سالم لخطورة الموقف طلب، أيضاً، تَدخُّل بريطانيا في حَلِّ الخلاف. ومع أن الحاكمين رضيا بريطانيا حكماً بينهما فإن الأمير سالماً راح يحشد قواه ويجمع إليه خصوم الملك عبد العزيز، وفي مُقدَّمتهم ضاري بن طُوَالَة، رئيس عشيرة الأسْلم من شَمَّر، بتوجيه من ابن رشيد. وتَرجَّح للملك عبدالعزيز أن خصومه سيهجمون على أتباعه في قَرْية، فأمر فيصلاً الدويش بالتوجُّه لنجدتهم. وانطلق الدويش حتى وصل إلى الصُّبَيْحية. وخرج الأمير سالم نفسه من بلدة الكويت ومعه خمس مئة مقاتل إلى الجَهْراء حيث يوجد الجيش الكويتي بقيادة دعيج بن صباح وضاري بن طُوَالَة ومن معه.

وأصبح عدد قوات الكويتيين وحلفائهم نحو ثلاثة آلاف في حين كان عدد قوات الدويش ومن انضم إليه نحو أربعة آلاف. وقد اقتنع الدويش، فيما يبدو، بأنه إن لم يهاجم القوات المجتمعة في الجَهْراء فإنها ستهاجمه. فزحف عليها في السادس والعشرين من مُحرَّم سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م. وكان اندفاعه نحوها في أرض مكشوفة في حين كان المهاجمون مُتحصِّنين خلف الجدران، فوقعت إصابات كبيرة في قواته من نيران الخصوم، لكنها مضت في اندفاعها حتى دخلت الجَهْراء، وشَتَّتت شمل أولئك الخصوم، فاضطر قسم منهم، بقيادة ابن طُوَالَة، إلى الهرب منها، ولجأ سالم وفئة ممن معه إلى القصر الأحمر في الجَهْراء. ومع أن مساحة القصر لم تكن كبيرة فإن عدد من لجؤوا إليه كان يربو على الألف بينهم أهل القرية.

ولم يكن في ذلك القصر من المؤن ما يكفي الذين أصبحوا فيه أكثر من يومين؛ إضافة إلى عدم عذوبة ماء البئر فيه. وأصبح المحاصرون في وضع حرج؛ وبخاصة أن الإخوان يحيطون بهم إحاطة السوار بالمعصم. فانتدب سالم فارسين

من أتباعه هما مرزوق المتعب ومرشد الشَّمَّري ليغامرا بالخروج من القصر، واختراق صفوف الإخوان، والذهاب إلى الكويت لطلب النجدة. ونجح الفارسان في مَهمَّتهما، وسارع من في الكويت لتهيئة النَّجدة للمحاصرين في قصر الجَهْراء بالرجال والمؤن[١].

وفي أثناء ذلك بدأت مفاوضات بين الدويش و الأمير سالم. وتختلف المصادر حول من طلب التفاوض أوَّلاً. ويبدو أن الأمير سالماً هو الذي طلب التفاوض لأنه كان في موقف أدعى إلى أن يطلب ذلك. على أن خزعلاً يذكر أن طلب الدويش التفاوض كان بدافع إنساني أملاه عليه معرفته بحال المحاصرين[٢]. وقد يكون السبب الأهمّ - إن كان هو البادئ - خوفه من وصول نجدات للمحاصرين من داخل بلدة الكويت أو من خارجها، وظَنُّه بأنه سيدرك ما يريد في المفاوضات لأنه كان في موقف عسكري أقوى من موقف المحاصرين.

وكما اختلفت المصادر حول من كان البادئ بطلب التفاوض اختلفت في الشروط التي وضعها الدويش للتوصُّل إلى حَلٍّ مع الأمير سالم. لكن أهمَّ تلك الشروط، فيما يبدو، كان تَعهُّد الأمير سالم بالتمسُّك بالدين وإنكار المنكر. ولم يكن لسالم بد من إظهار تَمسُّكه بالدين ووعده بإنكار المنكر؛ وبخاصة أن هذين المطلبين مما لا يمكن لمسلم رفضه بصفة عامة. على أن مدلول الدِّين والمنكر يختلف عند كل فئة حسب فهمها له وتفسيرها إيَّاه. ومن الواضح أن عدم ثقة المحاصرين بالإخوان دفعهم إلى الاستعداد للقتال بعمل فتحات صغيرة في جدران القصر لإطلاق النار من خلالها عند اللزوم. وقد دفع هذا العمل الإخوان إلى مهاجمة القصر، لكنهم لم يستطيعوا اقتحامه. واجتمع ذلك مع وصول طلائع النجدة

---

(١) حسين خزعل، تاريخ الكويت السياسي، بيروت، ١٩٦٥م، ج٤، ص٢٦٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٦٨.

للمحاصرين إلى قرب الجَهْراء؛ بَراً وبَحراً، فأصبح الدويش أكثر استعداداً لإنهاء الوضع القائم، وتَوصَّل الطرفان - على الأرجح - إلى أن يَظلَّ سالم على تَعهُّده بالتمسُّك بالدين وإنكار المنكر حسب استطاعته، وأن ينسحب الدويش من الجَهْراء إلى الصُّبَيْحية ليتيح لسالم ومن معه العودة إلى الكويت(١).

انسحب الدويش إلى الصُّبَيْحية، وبقي فيها أياماً منتظراً أن يَتلقَّى من الأمير سالم ما يفيد بتنفيذه لما تَعهَّد به، لكنه لم يَتلقَّ ما يفيد بذلك. فأرسل وفداً إلى سالم للتباحث معه، وسَوَّف سالم في مقابلة الوفد مُعلِّلاً ذلك بمرضه في حين كان يجري اتِّصالات مع بريطانيا ليحصل منها على حماية له من الخطر المحدق به. ولما حصل منها على ذلك قابل الوفد بحضور المُمثِّل البريطاني، الذي هَدَّد الوفد بأن على الإخوان أن لا يقوموا بأيِّ عمل ضد مدينة الكويت وإلا فإنهم سيُعامَلون على أنهم أعداء لبريطانيا ذاتها. وكان ذلك التهديد مشفوعاً بإرسال سفينتين حربيتين بريطانيتين إلى ساحل تلك المدينة، ونصب مدافع رشاشة على سطوح بعض منازلها، ونزول ثُلَّة من جنود البحرية لحراسة طرفي سور البلدة(٢). وكل هذه الإجراءات تظهر بوضوح مدى الذعر الذي كان يسيطر على نفوس المسؤولين عن الدفاع في الكويت بعد معركة الجَهْراء، وخوفهم من مهاجمة الإخوان لمدينة الكويت ذاتها. وإضافة إلى تلك الإجراءات حَلَّقت طائرة بريطانية على معسكر الدويش في الصُّبَيْحية، وألقت منشورات تنذر بأن أيَّ عدوان على الكويت عدوان على بريطانيا. ولم يجد الدويش بُدّاً من الانسحاب والعودة إلى الأرطاوية.

ومع أن قتلى الإخوان في الجَهْراء كان أكثر من قتلى خصومهم نتيجة لكون المهاجمين في أرض مكشوفة والمهاجمين مُتحصِّنين خلف الجدران فإن نتيجة

(١) السعدون، مرجع سبق ذكره، ص ص٢٥٦ - ٢٥٨.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٦٤.

القتال كانت نصراً للإخوان، الذين فَرَّ أمامهم أغلب الكويتيين وحلفائهم، والذين ضربوا حصاراً شديداً على بقية خصومهم.

ومن الواضح أن الذي منع الإخوان من جني ثمار انتصارهم العسكري في الجَهْراء هو تظاهر الأمير سالم بموافقته على شروطهم أوَّلاً، ثم إنذار بريطانيا لهم ثانياً. ورغم ذلك فإن الكويتيين يَعدُّون معركة الجَهْراء انتصاراً لهم. وهذا ما لا تَدلُّ عليه الوقائع التاريخية.

سألوني عن "السيف الأجرب"*

- ١ -

بعد انتهاء زيارة خادم الحرمين الشريفين الميمونة للبحرين بيوم واحد وصلت إلى تلك البلاد لحضور ملتقى جمعية التاريخ والآثار في دول مجلس التعاون الخليجية. وكانت أول زيارة لي للبحرين الجميلة بما فيها الحبيبة إلى النفس بمن فيها قد تَمَّت قبل خمسة وخمسين عاماً عندما كنت لا أزال طالباً في المرحلة المتوسطة من المعهد الشرعي. وكان من أهداف تلك الزيارة ركوب البحر - وإن كان على قارب صغير وفي نطاق مسافة قصيرة - والحصول على كتب تُمثِّل اهتمام بعض الشباب في تلك الأيام ولم تكن متوافرة إلا في البحرين؛ إضافة - بطبيعة الحال - إلى الاطلاع على مجلة صوت البحرين، والتي كانت حينذاك طليعة بين المجلات الوطنية.

وكان مما حدث في الزيارة الملكية الميمونة المشار إليها مسألة سيف الإمام تركي ابن عبدالله آل سعود، وهو السيف المشهور اسماً بـ "الأجرب". وقد أُثيرت أسئلة حول ذلك السيف، وبخاصة في جَوٍّ ملتقى طابعه تاريخي آثاري. ومن تلك الأسئلة ما وُجِّه إليَّ ربما حسن ظَنٍّ بي لأني ممن كتبوا عن تاريخ المملكة، أو مراعاة لكبر سنِّي. ولقد حاولت أن أتَلمَّس أجوبة بدت لي مناسبة للتدوين. لكن قبل أن أورد ما رأيته مناسباً للإيراد عن الأجرب سيفاً للإمام تركي، رحمه الله، رأيت من الأنسب التحدُّث - وإن باختصار شديد - عن صاحب ذلك السيف؛ وهو الإمام المُتَّصف بالصفات المطلوبة لكل قائد جدير بالقيادة. ذلك أن الأهم هو حامل السيف الذي تُورِد كَفُّه صارمه الموارد المُستهدفة.

* نُشرت في صحيفة الحياة في حلقتين أسبوعيتين؛ أولاهما بتاريخ ٢١/ ٥/ ١٤٣١هـ الموافق ٥/ ٥/ ٢٠١٠م.

الإمام تركي هو ابن الأمير الشجاع عبدالله بن محمد بن سعود. وهو مؤسس الدولة السعودية الثانية وحفيد مؤسس الدولة السعودية الأولى. ومن نسله الملك عبدالعزيز مؤسس الدولة السعودية الثالثة، ومشيد وحدة الوطن، وواضع أسس نهضته الحضارية.

ومن الثابت أن تركي بن عبدالله وُلد في الدِّرعية إبَّان مجدها في عهد الدولة السعودية الأولى. لكن من غير المُؤكَّد متى كان تاريخ مولده. ومن المحتمل أنه كان عام ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م، أو قبل ذلك أو بعده بقليل. أما نهاية حياته فكانت آخر يوم من عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م، شهيد مُؤامرة دَبَّرها ابن أخته مشاري بن عبدالرحمن آل سعود.

وكان تركي بن عبدالله في طليعة المدافعين من آل سعود عن الدِّرعية ضد هجوم إبراهيم باشا، ابن محمد علي، حاكم مصر، عليها سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م. على أنه كان من الفطنة والذكاء بمكان رفيع. فقد أدرك ببصيرته النافذة أن الوضع في الدِّرعية قد أصبح ميؤوساً منه، وأن الإمام عبدالله بن سعود خارجٌ إلى إبراهيم باشا لما سَمَّاه ابن بشر المصالحة؛ وهي في الحقيقة تفاوض بين قوي وضعيف لا بد من أن يملي فيها القوي على الضعيف ما يراه من شروط. فلم يكن غريباً أن انتهى الأمر باستسلام ذلك الإمام لإبراهيم باشا. لذلك رأى تركي، نافذ البصيرة، أن يغادر الدِّرعية قبل أن يحدث استسلامها وهو داخلها، فيكون عرضة للقتل أو الأسر غدراً. وكان ما رآه صائباً؛ إذ كتب الله على يديه - فيما بعد - ما كتب من نجاح له ولأسرته الحاكمة بخاصة ولأهل وطنه بعامة. وكان معه في المغادرة أخوه زيد، كما غادر تلك المدينة في الوقت نفسه عدد من أفراد الأسرة السعودية هم عمر بن عبدالعزيز وأبناؤه عبدالله ومحمد وعبدالملك، وآخرون غير هؤلاء.

ومن الواضح - في ضوء ما ذكرته المصادر وتناقلته الروايات - أن تركي بن عبدالله أصبح، بعد مغادرته الدِّرعية، في منطقة يقطنها آل شامر من قبيلة

العجمان، وأنه تَزوَّج بفتاة منهم، فَوُلد له ابن منها سُمِّي جلوي بن تركي. وتسمية المولود مراعية للظرف الزماني أو المكاني أمر مألوف لدى عرب شبه الجزيرة العربية حينذاك. فتسمية ذلك المولود لتركي منسجمة مع الظرف الذي كان فيه أبوه، وهو ابتعاده - وإن كان ابتعاداً مُؤقَّتاً - عن وطنه الدِّرعية، تماماً كما سَمَّى الأمير عبدالله ابن رشيد ابناً له متعباً لأنه وُلد له وهو في حركة هروب من حائل أمام خصومه من آل علي.

والمُتتبِّع لما ذكره المؤرخ عثمان بن بشر عن حركات تركي بن عبدالله من خروجه من الدِّرعية إلى بداية تَحرُّكه لإعادة دولة آل سعود من جديد يرى أن أخاه زيداً - على الأقل - كان معه في كل خطوة خطاها. وما رُوِي عن المغارة التي في جبل عَلَيَّة، وتفصيلات ذلك، أمر شائق يمكن للمقتدرِين أدبياً أن يكتبوا عنه رواية جميلة جديرة بالقراءة. على أن المؤرخ قد يخطر بباله أن الإمام تركي بن عبدالله كان يرتاد تلك المغادرة، لا أنه كان يقيم فيها مختفياً. والأهمُّ من هذا - لدى كاتب هذه السطور - هو التحرُّك العسكري والسياسي الذي قام به ذلك الإمام، وهو التحرُّك الذي يبرهن على عظمة شجاعته من جهة وعلى حرصه على مصلحة وطنه من جهة أخرى.

وما إن انسحب إبراهيم باشا من نجد حتى تَحرَّك محمد بن مشاري بن مُعمَّر، محاولاً إقامة دولة في المنطقة تحت زعامته. وابن مُعمَّر هذا من أسرة إمارة مركزها العُيَيْنة. وكانت في عهد عبدالله بن مُعمَّر أقوى إمارة في تلك المنطقة. وكان هو ابن أخت عبدالعزيز بن محمد بن سعود وأخيه عبدالله أبي تركي، كما كان في طليعة المدافعين عن الدِّرعية، والذين كان لهم دور في التفاوض مع إبراهيم باشا. وكان إلى جانب ذلك كله ذا مال وفير. وكان من حسن سياسته أن اتَّخذ من الدِّرعية - لا من العُيَيْنة موطن أسرته - مقراً لتحرُّكه لما للدِّرعية من مكانة في نفوس كثير من النجديين؛ وذلك لكونها عاصِمة لدولة جنوا ثمارها؛ وحدة

وأمناً. ومما يَدلُّ على ما أُشير إليه من حرص تركي بن عبدالله على مصلحة وطنه أنه قدم مع أخيه زيد إلى الدِّرعية لا لينافس ابن مُعمَّر في زعامته، بل ليتعاون معه لتحقيق مصلحة البلاد العليا. على أن ابن مُعمَّر فوجئ بدخول مشاري بن سعود ابن عبدالعزيز، أخي آخر حكام الدولة السعودية الأولى، إلى الدِّرعية بأتباعه من النجديين. فما كان منه إلا أن تنازل عن الحكم لمشاري أمام الأمر الواقع. على أن تَمرُّده على مشاري فيما بعد، وقبضه عليه، ثم تسليمه لأتباع حاكم مصر، جعل تركي بن عبدالله يقاومه، ثم ينتصر عليه، ويقتله بعد عدم إطلاق سراح مشاري ابن سعود.

وهكذا أصبح تركي بن عبدالله هو الحاكم في المنطقة. لكنه جعل الرياض مقراً له بدلاً من الدِّرعية؛ وذلك لسببين: الأول أن الرياض كانت عامرة مقارنة بالدِّرعية التي أصبحت مُهدَّمة نوعاً ما بعد أن حدث لها ما حدث. والثاني أنه؛ وهو من آل سعود، لا يمكن أن يُتَّهم بمجانفة لدار أسرته. وعندما أتت إلى المنطقة قوات جديدة تابعة لمحمد علي محاربة لتركي بن عبدالله، الحاكم الجديد من آل سعود، وضيَّقت الحصار عليه في قصره بالرياض، تَسلَّل ليلاً إلى خارج هذه البلدة حيث ذهب إلى الحُلْوة في جنوب نجد للإعداد للتغلُّب على خصومه. وتَحقَّق له ما أراد من نجاح. ففي عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م استطاع أن يستعيد الرياض، وأن يرغم بقية قوات محمد علي باشا على مغادرة نجد؛ مبتدئاً بذلك عهد الدولة السعودية الثانية التي أسسها. ولم يمضِ عامان على ذلك حتى أصبحت نجد كلها تحت زعامته طائعة مختارة، إلا ما ندر من بلدانها غير الرئيسة. وكان ذلك التجاوب معه عائداً إلى أمرين: الأوَّل ما كان يَتحلَّى به من صفات قيادية عظيمة، والثاني ما كان يُكنُّه أكثر النجديين لأسرته التي نالوا على أيدي رجالها في الدولة السعودية الأولى ما نالوه من وحدة وأمن، كما أُشير إلى ذلك قبل قليل.

وإلى هنا ينتهي الحديث المختصر عن صاحب السيف الأجرب. . . الإمام الشهم تركي بن عبدالله. أما الحديث عن السيف نفسه، وظروف وجوده في البحرين، فله حديث آخر.

- ٢ -

افتخار العربي بجَوَاده أو سلاحه، وإعطاؤهما اسماً خاصاً، أمران معروفان قديماً وحديثاً. ومما عُرِف في العصر الحديث افتخار الشاعر الأمير عُبَيد بن رشيد بجواده كروش قائلاً؛ وهو يخاطب أحد ولاة الأتراك الذي طلب منه بيعها إليه:

يا بَيْه أنا لكْروشْ ما اعطي ولا ابيعْ
قَبلك طَلَبْها فَيصلٍ وابن هادي

باغٍ إلى ما لَقِّموها المصاريعْ
وصاح الصياحْ وثار عَجّ الطرادِ

أنهجْ عليها وتْعَدي بالترابيعْ
مِثْل الفَحَلْ لى صال وَقت الهَدَادِ

واصلّها لعيونْ بِيضٍ مفاريعْ
فَوق الحَنايا و السبايا غَوادِ

ومما عُرِف، أيضاً، افتخار علي الخَيَّاط، أحد شعراء عنيزة المشهورين، ببندقيته:

لِي بِندقٍ تَرمي الّلحمْ لو هو بعيدْ
مَا وقِّفتْ بالسوقْ مع دَلاّلها

أما الإمام تركي بن عبد الله، الذي كان قوله مطابقاً لفعله، فكان افتخاره بسيفه، الذي سَمَّاه الأجرب، قائلاً - حسب الرواية التي يحفظها كاتب هذه السطور-:

مِن يَومْ كِلٍّ من خَويِّه تبرّاً
حَطَّيت الاجربْ لي خَويٍّ مباري

نِعْمَ الرَّفيقْ إلى سطا ثم جُرّاً
يُودِع مناعير النِّشامَى حَباري

هكذا ورد البيت الأول عند عبد الله الحاتم، لكنه رُوي أيضاً:

اليَومْ كِلٍّ من عَميله تبَرّاً
وَحَطَّيت الاجربْ لي عَميلٍ مباري

ويبدو لي أن ما أحفظه أقرب إلى الصحة، لأن الرّفيق في البيت الثاني كلمة مرادفة في المعنى لكلمة خَويّ، ولأن المراد المصاحبة والرفقة. على أن من الواضح عدم توفيق من قرأه:

اليَومْ كِلٍّ من خَويّه تبَّرا
وَحَطَّيت الاجربْ لِي صديقٍ مباري

والبيت الذي ذكر فيه السيف الأجرب من قصيدة طويلة أرسلها الإمام تركي إلى ابن أخته - وابن عَمِّه أُسرياً - مشاري بن عبد الرحمن آل سعود، الذي كان في مصر مع من أُخذوا من آل سعود عقب استسلام الدِّرعية لإبراهيم بن محمد علي باشا سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م. على أن هذه القصيدة الطويلة القوية شاعرية هي الوحيدة - حسب علم كاتب هذه السطور - المنسوبة إلى ذلك الإمام. وهذا مما يلفت النظر، ويجعل المرء يسأل؛ ألم يقل تركي - والقصيدة بهذه الشاعرية القوية - غيرها من القصائد المشابهة لها؟ إن كان قد قال قصائد مشابهة لها أخرى فأين هي؟

والسؤال الآخر الذي يمكن أن يُسأل: ما المعنى المراد من كلمة الأجرب؟

هناك من يقول: إنه سُمِّي بذلك لما يوجد فيه من صَدأ. وقد جرت العادة أن يُفتخَر بالسيف المصقول، أو المُصلَت، لا بالسيف الذي فيه صَدأ. ويبدو أن مراد تركي هو أنه رغم صدأ سيفه فإن كَفَّه جعلته ماضياً، أو أنه كان صدئاً، فجلاه،

وبقي له الوصف الذي كان له قبل جلوه. ذلك أن من موحيات صدأ السيف عدم استعماله لأنه لو كان يستعمل لما حَلَّ به الصَّدأ.

والقصيدة المشار إليها، هنا، من القصائد التي يحفظها ويُقدِّرها كثير من المهتمين بنوع الشعر الذي قيلت فيه، ومطلعها:

طَار الكَرَى من مَوقْ عَينِي وفَراً
وفَزَّيت من نَومي طَرَى لي طَواري

ومنها:

سِرْ يا قَلمْ واكتبْ على ما توَرَّا
أزكى سَلامٍ لابن عَمِّي مشاري
شيخٍ على درب الشجاعة مضَرَّا
من لأبةٍ يوم الملاقى ضَواري

ومنها مخاطباً لمشاري وحَاثًا له على عدم البقاء في مقعد الحقران:

يا حَيفْ يا خَطوَ الشجاعْ المضرَّا
في مصر مَملوك لحُمْر العَتَاري
اكفخْ بِجنحان السَّعدْ لا تدرَّا
فالعُمر ما يَاقاه كِثرَ المداري

وهو يقصد "بِحُمْر العَتَاري" حكام مصر حينذاك، الذين لم يكونوا من أصل عربي.

أما بعد:

فما قصة وجود الأجرب... سيف الإمام تركي... لدى حكام البحرين؟

تختلف الروايات حول وصوله إلى هناك وبقائه لدى أولئك الحكام. ومن الذي أوصله إلى تلك البلاد؟ وهل كان وجوده عند أولئك الحكام نتيجة هدية إليهم أو كان أمانة عندهم، أو كان نتيجة صفقة مُعيَّنة؟ لَعلَّ مما يساعد على معرفة الحقيقة إيضاح الظروف السياسية التي وصل في أثنائها ذلك السيف إلى البحرين.

من المعروف تاريخياً أن سعود بن فيصل اختلف مع أخيه عبدالله بعد وفاة والدهما الإمام فيصل بن تركي عام ١٣٨٢هـ/ ١٨٦٥م. وقد حاول سعود أن يحصل على مساعدة من ابن عائض في عسير، لكن خُلُق ابن عائض الرفيع جعله يَحثُّ سعوداً على المصالحة مع أخيه عبدالله بدلاً من منازعته لأن في نزاعهما ضرراً على أسرتهما وعلى أتباع الحكم السعودي. فذهب سعود إلى حيث جمع أنصاراً من الدواسر وبني يام، وتقابل مع أتباع أخيه عبدالله الذين كانوا بقيادة أخيهما محمد بن فيصل؛ وذلك في معركة المُعْتَلَى. وانتصر في تلك المعركة أتباع عبدالله، وجُرِح سعود، فذهب إلى الجهات التابعة لآل سعود في جهات عمان حيث أقام حتى برئت جراحه. ثم انتقل إلى البحرين ضيفاً على آل خليفة. ومن المعلوم وفقاً للظروف حينذاك أن وجوده هناك لم يكن بغير رضى بريطانيا ذات النفوذ في منطقة الخليج بصفة عامة. بل ربما كان ذلك الوجود بتشجيع من تلك الدولة المتنفذة. ومن المعلوم، أيضاً، أن بريطانيا لم تكن متعاطفة مع عبدالله بن فيصل لأنها كانت ترى فيه محافظاً على تَوجُّه ديني لا تُؤيِّده، وميلاً إلى التعامل الوُدِّي مع الدولة العثمانية، التي لا تُكِنُّ لها مَوَّدة على الإطلاق.

ولقد حصل سعود بن فيصل على ما حصل عليه من عون في البحرين، فانطلق من هناك إلى المناطق التابعة لأخيه عبدالله في شرقي الجزيرة العربية، لكنه صُدَّ عنها، فعاد إلى البحرين حيث تقاطر عليه أتباع كثيرون، فانطلق مرة أخرى من هناك، وحالفه الحظ، وتُوِّج نجاحه بانتصاره على أتباع أخيه عبدالله، بقيادة أخيهما محمد، في معركة جُودَة، واعتقل محمد نفسه. وكانت تلك المعركة مما

دفع عبدالله إلى الاستنجاد بوالي العراق العثماني، الذي أرسل حملة خَلَّصت محمد بن فيصل من اعتقاله، لكن النتيجة كانت انتزاع شرق الجزيرة العربية من الحكم السعودي. وقصة ما حدث بعد ذلك معروفة لدى المُطلِّعين على التاريخ المَحلِّي.

ومما سبق يبدو لي أن السيف الأجرب كان عند أم سعود بن فيصل عند وفاة أبيه، فأصبح عند سعود. وعندما ذهب إلى البحرين كان معه. هل أهداه - وهو أغلى ما يملك من الناحية المعنوية - إلى أولئك الذين ضَيَّفوه وناصروه؟ هذا أمر محتمل؛ بل قد يكون مُرجَّحاً. هل كان خائفاً عليه من بقائه معه مع عزمه على خوض معارك لا يدري ما نتيجتها؛ وبخاصة بعد فشل انطلاقته الأولى من البحرين، فأبقاه عند مُضيِّفه أمانة إلى أن يفعل الله ما يشاء؟ هذا أمر محتمل أيضاً. غير أن مما يثيره هذا الاحتمال هو: لماذا لم يقم سعود باستعادة السيف من آل خليفة بعد أن وصل إلى الحكم في الرياض؟ ويبقى السؤال الآخر؛ وهو وجود السيف عند آل خليفة نتيجة صفقة مُعيَّنة. السيف الأجرب كان مشهوراً لدى الفئات الشعبية، وهو غال وعزيز عند مالكه من آل سعود. هل اشترط آل خليفة على سعود بن فيصل أن يُسلِّمهم السيف مقابل مساعدته عسكرياً؟ الذي يبدو لي أن هذا الاحتمال هو أضعف الاحتمالات. ذلك أن السيف لا قيمة كبيرة تُرجَى منه من الناحية المادية، وكرم الضيافة من عادة كرماء العرب التي تُبدَى من دون شروط.

أما الرواية التي تقول: إن عبدالله بن فيصل هو الذي أرسله إلى آل خليفة فمن الواضح أن صاحبها واهم. ذلك أن علاقة عبدالله بهم لم تكن مثل علاقة أخيه سعود بهم، ولم يكن هناك أيُّ مُبرِّر - في ضوء تلك العلاقة - لأن يكون هو من بعثه إليهم. ويبقى سؤال أخير في الموضوع؛ وهو: هل قُدِّم ذلك السيف للملك عبدالعزيز، وهو المؤسس للدولة السعودية الحالية؟ أم هل قُدِّم للملك فيصل؛ وهو صاحب الموقف المعروف في قَضية ادِّعاء شاه إيران بأن البحرين تابعة له؟ أم

هل قُدِّم للملك فهد؛ وهو الذي تَمَّ في عهده بناء الجسر المُسمَّى باسمه؟ إن كان قُدِّم إلى أيٍّ واحد من هؤلاء الملوك فلماذا لم يصبح لديه؟ الذي يبدو لي أن السيف كان قد آل إلى واحد من آل خليفة لم يشأ أن يَتخلَّى عنه لسبب من الأسباب، فشاء الله أن يكون تقديمه إلى خادم الحرمين الشريفين، الملك عبدالله، في زيارته الميمونة للبحرين.

قراءة التاريخ الوطني*

كثير من أبناء وطننا العزيز يعشقون قراءة ما كُتب عن تاريخ هذا الوطن بمختلف جوانبه؛ ولا سيما العسكرية والسياسية، وربما كَان هذا العشق المُؤدِّي إلى الإقبال على تلك القراءة سبباً من أسباب تَدفُّق الكتابات التاريخية. ومهما كانت أسباب ذلك العشق وهذا الإقبال؛ وهي ما لا يراد بحثها الآن، فإن من المعلوم وجود اختلاف لدى القُرَّاء من حيث فهم ما دُوِّن في الكتابات ومن حيث مقدار التأمُّل فيه.

وقد يخرج بعض القُرَّاء بانطباع لا يَتَّفق مع ما قصده الكاتب؛ بل قد لا يُوَفَّق الكاتب نفسه في إيضاح الفكرة التي أراد التعبير عنها. ومن الأمثلة على إمكانية خروج القارئ، أحياناً، بانطباع مغاير لما أراده الكاتب أن هناك من استنتج من قراءته لما دَوَّنه كاتب هذه السطور في كتابه تاريخ المملكة العربية السعودية أن دور القبائل البدوية في نجد مع الملك عبدالعزيز أثناء تَحرُّكه لتوحيد البلاد قبل قيام حركة الإخوان العظيمة المشهورة لم يَحظَ بما يستحقه من اهتمام. ذلك أنه قد فُصِّل في ذكر المشاركين في المعارك من حاضرة نجد، ولم يُفصَّل في ذكر المشاركين فيها من باديتها. وضرب مثلاً للتدليل على صحة استنتاجه ماورد في الحديث عن ثلاث معارك هي البُكَيرية، وروضة مُهنَّا، وجراب.

وكاتب هذه السطور يُكنُّ لجميع أبناء الوطن؛ حاضرة وبادية، كُلَّ الوُدّ والتقدير. لكنه ـ وهو يكتب تاريخاً معتمداً على ماتوافر لديه من مصادر ـ لم يَخْفَ عليه - كما لا يخفى على الكثيرين - أن الدور الإيجابي للبادية في عمليات توحيد البلاد تحت راية الملك عبدالعزيز كان بعد اعتناقها لحركة الإخوان أعظم وأوضح بكثير من دورها قبل اعتناقها تلك الحركة، وأن حرص الملك على

* نُشرت في صحيفة الجزيرة في حلقتين أسبوعيتين أولاهما بتاريخ ٢٣/ ٥/ ١٤٢٢هـ/ ١٣/ ٨/ ٢٠٠١م.

اكتساب الأقاليم النجدية كان لا يَقِلُّ عن حرص خصمه حينذاك، الأمير عبدالعزيز بن رشيد، على الاحتفاظ بها. ومما يُوضِّح حرص هذا الأخير تكثيفه للحاميات في الأقاليم النجدية؛ وبخاصة القصيم، لئلا تخرج من سيطرته.

ولَعلَّ من المستحسن أن يُتحدَّث، باختصار، عن المعارك الثلاث التي أشير إليها سابقاً.

١ - معركة البُكَيرية:

قيل: إنه فُصِّل، في كتاب تاريخ المملكة . . ، ذكر المشاركين في المعارك من الحاضرة، ولم يُفصَّل ذكر إخوتهم من البادية. وقد يفهم من ذلك أن البادية كانوا قلَّة، والحقيقة غير ذلك. فقد ذكر الريحاني أن بوادي عُتَيْبة ومُطَيْر جاؤوا كلهم مُتطوِّعين مجاهدين، فاجتمع لدى ابن سعود في ستة أيام اثنا عشر ألف مقاتل».

والذي يرجع إلى الريحاني يجد أنه قد تَحدَّث عن معركة البُكَيرية، التي حدثت سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م، ثم تَحدَّث عما أسفرت عنه من انهزام الملك عبدالعزيز، أو انسحابه، ثم ذكر ما حدث من مراسلات بينه وبين أهل بُرَيدة وعُنَيزة وجهود قادة البلدة الأخيرة بالذات لإقناعه بالقدوم إليها. وذكر أنه لما قدم إليها قَدَّموا له ما قَدَّموا من مال ورجال حرب. ثم بعد كل ذلك قال:

"وعندما بلغ أهلَ نجد؛ خصوصاً بوادي عُتَيْبة ومُطَيْر، هذا الخبر (أي ما حدث له في عنيزة) جاؤوا كلهم متطوعين مجاهدين. . الخ، فما ذكره الريحاني عن سير معركة البُكَيرية شيء، وما قاله عن مجيء المُتطوِّعين إلى الملك عبدالعزيز بعد انتهاء تلك المعركة وقدوم الملك إلى عُنَيزة شيء آخر. وبذلك يَتَّضح أن ما قيل ليس في مَحلِّ الاستدلال. ثم إنه حُذف أول كلام الريحاني عن مجيء المُتطوِّعين إلى الملك بعد قدومه إلى عُنَيزة وهو: "وعندما بلغ أهل نجد". وهذا الحذف قد يفهم بسببه أن الذين أتوا إلى الملك كانوا من بوادي عُتَيْبة ومُطَيْر فقط. وهذا ليس مدلول كلام الريحاني.

وإذا اتَّضح ما سبق فإن كثيراً ممن درسوا كتاب الريحاني دراسة فاحصة يدركون أنه يبالغ، أحياناً، بحيث يصعب التسليم بصحة ما قاله عن بعض الأمور. وللتدليل على هذه المبالغة يحسن أن يشار إلى شيء مما قاله عَمَّا تلا معركة البُكَيرية ذاتها. فهل يظن أيٌّ قارئ أن كل أهل نجد؛ وبخاصة بوادي عُتَيْبة الرّوقه وبَرْقاء ومُطَيْر، قد أتوا إلى الملك عبدالعزيز؟ وهل ماقاله عن غنائم معركة الشِّنانة التي حدثت بعد معركة البُكَيرية في العام نفسه، ينطبق مع الواقع؟

لقد ذكر الريحاني عن تلك الغنائم أن نصيب الواحد من أتباع الملك عبدالعزيز من الذهب كان يتراوح بين المئة والمئة والخمسين ليرة عثمانية، ومن الإبل بين العشرة والعشرين بعيراً. وما دام عدد الذين أصبحوا مع الملك عبدالعزيز اثني عشر ألفاً فإن هذا يعني أن الذي غُنم من الخصوم من الذهب وحده مليون ونصف المليون ليرة تقريباً، وأن الذي غُنَم من الإبل مئة وثمانون ألف بعير. إذاً كم كان مع خصومه من الإبل، ما غُنِم منها وما لم يُغنَم؟

إن كتاب الريحاني فيه ما هو مفيد، لكنه أقرب إلى الرواية التاريخية منه إلى كتاب تاريخ واقعي. وفي سير الأبطال قد تكون الرواية التاريخية أكثر قبولاً لدى نفوس الكثيرين من التاريخ الواقعي المجرد.

والآن أستأذن القارئ الكريم في الرجوع إلى بعض المصادر لرؤية ما قالته عن معركة البُكَيرية. كان المؤرخ إبراهيم بن محمد القاضي - ابن الشاعر المشهور محمد بن عبدالله صاحب قصيدة القهوة وغيرها من القصائد الجيدة - من المعاصرين لتلك المعركة، كما كان جليساً لأمير عُنَيزة، عبدالعزيز بن سُلَيم، بحيث كان على معرفة تامة بما كان يجري حينذاك من أحداث. وقد قال عن سير المعركة باللهجة العامية التي كتب بها تاريخه ما يأتي:

" ابن رشيد شدّ متوجه للبكيرية. ابن سعود ظهر آخذ لوجه ابن رشيد ونزل البُصر، خَبّ من خبة بُريَدة. فيوم شَدّ ابن رشيد مقبل شَدّ ابن سعود آخذ لوجه ابن رشيد. ابن رشيد نزل الشِّيحيَّة أوّل النهار. ابن سعود يوم شَدّ وصل البُكَيرية وسط النهار وإذا ابن رشيد معزّل الجموع والطوابير. فيوم نزل ابن سعود زاقمه ابن رشيد في سرعة. ابن سعود خَلّى قومه ثلاثة أقسام: هو وأهل الجنوب صاروا قسم وهم القبليين، وأهل بُريَدة وأهل القصيم قسم وهم الشرقيين، وأهل عُنَيزة قسم وهم الوسطيين، ابن رشيد خَلّى كل له قبيل حضر وعسكر وبدو. والحيمول القوي خَلاَّه في وجه ابن سعود. ثم مشواً[1].

كل مشى على الثاني في آخر يوم من ربيع ثاني سنة ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) فصار كون هايل عظيم ما وقع في نجد قبله مثله. ثم لحم الكون واحتمى الوطيس بين الطرفين، واحترقت الأرض من شدَّة مانزل عليها. مبتدا الكون في وسط النهار. فيوم صار وجبة العصر وإذا الذي مع ابن سعود مرهوكين من شدَّة المدافع وقوة الطوابير. انكسر ابن سعود، ثم قُبَلاه مشوا في اثره واطين جريرته. أهل عُنَيزة وأهل بُريَدة كسروا قبلاهم من حضر وبدو وعسكر، واستقفوهم بالبندق، ثم تالي بالسيوف. أهل حايل انهزموا، والذي صار بالملحمة العسكر. أهل القصيم استمروا في اثرهم إلى أن جاء الليل وهم يذبحون فيهم ما اطلعوا في انكسارة ابن سعود، وابن سعود ما اطلع في أمرهم. ابن رشيد تلافوا قومه على الشِّيحيَّة في

(١) شَدَّ ابن رشيد ركائبه، وتوجَّه إلى البكيرية، إحدى بلدات القصيم. وظهر ابن سعود من مكانه ليكون في وجه ابن رشيد، ونزل البَصْر. فيوم؛ أي لما، شدَّ ابن رشيد مقبلاً شَدَّ ابن سعود مُعترضاً له. ونزل ابن رشيد الشِّيحية؛ وهي قريبة من البكيرية، أوّل النهار. فلما شَدَّ ابن سعود وصل إلى البكيرية وسط النهار وإذا ابن رشيد قد عَزَّل؛ أي وَزَّع، الجموع والطوابير. فيوم، أي لما، نزل ابن سعود زاقمه؛ أي التحم به، ابن رشيد بسرعة. ابن سعود خَلّى؛ أي جعل، قومه ثلاثة أقسام: هو وأهل الجنوب صاروا قسماً؛ وهم القبليون أي الغربيون، وأهل بريدة وأهل القصيم قسماً؛ وهم الشرقيون، وأهل عنيزة قسماً؛ وهم الوسطيون. ابن رشيد خَلّى؛ أي جعل، كلاً له من يقابله من الحضر والعسكر والبدو. والحيمول؛ أي القوة الكبرى، في وجه؛ أي مقابل ابن سعود.

ليل، وأهل القصيم عَوِّدوا على البكيرية في ليل. رَدَّوا معهم عسكر وأسرى وأطواب وعربيات وبغول. . "[1]

وقد كتب عن المعركة عبدالله بن محمد البسام، المُتوفَّى سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م، الذي ذكر الريحاني أنه استعان به عند مروره بعُنَيزة فكتب له لائحة بأسماء بلدان القصيم وسُدَير والعارض، كما ذكر أن الملكَ عبدالعزيز قال له عنه: إنه من العارفين المُدقِّقين. وقد قال البسام عن سير معركة البُكَيرية في كتابه تُحفة المشتاق، تحقيق الخالدي، ص٣٩٤، مايأتي:

"ثم إن ابن رشيد ارتحل من قُصَيْباء ونزل الشِّيحيَّات. فلما علم بذلك ابن سعود وأهل القصيم ارتحلوا من بُريَدة، ونزلوا على البُكَيرية، ونشب القتال بين الفريقين يوم تسعة وعشرين من ربيع آخر. وصار ابن رشيد ومن معه من الفداوية وأكثر أهل حايل والعسكر وبعض البادية في مقابلة ابن سعود ومن معه من أهل العارض والمحْمَل والوشم وسُدَير. وأما ماجد الحمود آل عُبَيد آل رشيد ومعه غزو بلدان الجَبل وبعض غزو أهل حايل وبعض البادية فقابلوهم أهل القصيم. وصارت ملحمة عظيمة، وانهزم ابن سعود ومن معه، وقُتل منهم عدد كبير. وأما أهل القصيم فإنهم هزموا ماجد آل حمود ومن معه، وقُتَل في هذه الوقعة ماجد آل حمود المذكور وقمندان العسكر، وقُتل من العسكرَ عدد كثير، ثم إن أهل القصيم رجعوا إلى بلدانهم وأرسلوا إلى ابن سعود وكان إذ ذاك في المذْنب بعد الهزيمة يَستحثُّونه بالقدوم عليهم، فَتوجَّه إليهم ونزل في بلد عُنَيزة".

(١) كل مشى على الثاني؛ أي كل واحد من الجيشين هجم على الآخر. . فصار كون؛ أي قتال. . ثم لحم الكون؛ أي اشتبك المتقاتلون. . فيوم صار وجبة العصر؛ أي لما حلَّ وقت صلاة العصر، وإذا الذي مع ابن سعود مرهوكين؛ أي متضعضعين، من شدَّة المدافع وقوة الطوابير. فانكسر؛ أي انهرم، ابن سعود. ثم مشى من كانوا مقابلين له مقتفين أثره. . . وَالذي صار بالملحمة؛ أي الذين وقعوا في الملحمة، العسكر. . ما اطَّلعوا في انكسارة؛ أي بانهزام، ابن سعود.

ومن يقرأ قصيدة العوني، وعنوانها "وقَعة البكيرية" (ديوان النبط، نشر خالد الفرج، ج٢ ، ص٢٧٦ - ٢٧٨) يجد أن ماقاله عنها لا يخرج في مضمونه العام عما قاله القاضي والبسام، فمما قاله عن تلك المعركة مُتحدِّثاً عن اتِّجاه ابن رشيد وقومه إليها واتِّجاه ابن سعود مع قومه إليها أيضاً:

مِشَى وحِنَّا بالبيارقْ مشَينا
وَالامر لله والسببْ به مضينا

يَبغى البكَيرية وحِنَّا بَغينا
هَدمه ولَطمه قبل ما يَاهَل الدار

نزل وحِنَّا عند خَشْمه نزلنا
من دون دِيرتنا تبيَّنْ جَهَلْنا

والطَّير ظَلَّل فَوقنا يوم صِلْنا
يَرجَي يمانينا وعَدْلات الانظار

سِرْنا عليه وسار بين الصَّلاتَين
والشَّمس غابت من قتام الخِميسين

والبَيْن صاح وناح بين الخَصيمين
واغْبَّرت الافاق واشتعلت النار

تَخاطبوا من بينهم بالهَنَادي
والتُّرك تَرطِنْ والعَرَب له تنادي

لَكنْ مَطْل الرُّوس جَدْع الهَوَادي
يومٍ عَبوس الشَّر بوجيه الاشرار

الميَمنه دارت وصارت خَفيفه
رَاحت عن الاسلام صَارت خَفيفه

والتُّرك لاقتهم مَوَارتْ جنيفه
ما خايروا يوم ان بعض العَرَبْ خار

عَنْوي هل العَوجا تَعدَّاهم الَّلوْم
اركوا جموع الحَضر والبَدو والرُّوم

لولا زهبهم كَمَّلت تَالي اليَوْم
ما خيْشروا بالمَدْح بشهود الاخيار

يوم اكمل القصدير عَيَّوا يطيعون
قاموا بُحذْب مْصقَّلات يهُوشون

يوم انهم خَانوا بهم من تَعرفون
استعصموا بحدود عَطْبات الاذكار

ولا بهم شافوا هَلَ الشَّر خلِّه
إلا جَموع عَايلتهم مظلِّه

أولاد علي شَرَّعوا كل سَلِّه
نعم بهم والصدقْ هو عين الاذكار

أركوا على شَمَّر وراحوا مدابيرْ
وجموعْ حايل هم وسَبعة طوابير

دلِّت تصيح الغَوث وَين المعابيْر؟
يوم انهم حاطوا بهم مثل الاسوار

سعود أبو تركي بسيفه ضَربنا
همَّاتنا بسيوفنا ما اكترثنا

لَكنْ جَدع الرُّوس يوم انتدبنا
جَدْع الحَوايْج عند لَفْوات الاسفار

بنحورنا ماجد وابن جبر خلّي
وشيوخ شَمَّر ملحقين المتلّي

ورجال حايْل هَيْه فكّر وقل لي
والتُّرك تسع مْيه تزيد القمندار

وكل هذه المصادر معاصرة لأحداث تلك المعركة، ويتَّضح أنها كلها ركَّزت على ذكر الحاضرة من الفريقين المتحاربين.

أما ابن هذلول، المُتأخر زَمناً عن تلك المصادر الثلاثة، فقال عن البُكَيرية (تاريخ ملوك آل سعود، ص٧) ما يأتي:

"زحف هذا الجيش الجَرَّار مع ابن رشيد إلى بُريَدة وهو مؤلف من عساكر التُّرك النظامية وبادية شَمَّر وحاضرة حائل وجميع توابعه وبادية هُتَيم وحرب، واستمر في زحفه ليهجم على مدينة بُريَدة من الجهة الغربية، فنزل القَرْعاء، فأخلى ابن سعود بُريَدة ونزل في قَرية البُصْر، فارتحل ابن رشيد من القَرْعاء ونزل البُكَيرية. ثم انتقل ابن سعود من البُصْر ونزل مقابلاً لابن رشيد. واقترب الجيشان، ومشى بعضهما إلى بعض فتصادموا.. واتَّفق أنه عندما مشت جنود ابن سعود إلى المعركة أن جنود أهل القصيم يرافقهم عبدالعزيز بن جلوي حال بينهم وبين العدو نفود البُكَيرية. وعندما اعتدلوا إذا بجنود أهل العارض ومعهم عبدالعزيز قد تقهقروا. وقد تَقدَّمت جنود ابن رشيد وعساكر الترك، فضربهم أهل القصيم من الخلف، فقتلوهم قتلة عظيمة، وأفنوا منهم خلقاً كثيراً، وغنموا جميع أسلحتهم ومدافعهم".

وهكذا يَتَّضح أن ابن هذلول، أيضاً، كان تركيزه على الحاضرة تَماماً كما هو الأمر لدى المصادر المعاصرة الثلاثة: القاضي، والبسام، والعوني. ومع أن الريحاني أشار إلى كون مُطَيْر مع أهل القصيم فإنه ختم حديثه عن المعركة قائلاً:

" على أن أهل القصيم عندما عادوا من إغارتهم على بادية شَمَّر جاؤوا مركز ابن رشيد، فوجدوا فيه المدافع وثلاث مئة من عساكر التُّرك، فتواقعوا وإيَّاهم وقتلوهم، فغنموا المدافع وظَلُّوا في البُكَيرية. ولكنهم عندما طلبوا عبدالعزيز ولم يجدوه هناك حملوا الأسلحة الخفيفة، وعادوا إلى بلادهم، أي إلى بُرَيْدة وعُنَيزة ".

ويرى القارئ الكريم أن الريحاني رغم ما في كتابته من ضعف من الناحية التاريخية جاء تركيزه، أيضاً، على الحضر.

وأمام كل ما سبق من مصادر جاء سرد كاتب هذه السطور عن معركة البُكَيرية كما يأتي:

" كان الملك عبدالعزيز قد علم بحجم القوات التي أقبل بها الأمير عبدالعزيز ابن رشيد إلى القصيم، وتابع تَحرُّكاته. فبعث إلى جميع أتباعه من الحاضرة والبادية يطلب منهم أن يوافوه بزيادة محاربين حتى اجتمع لديه عدة آلاف. ثم خرج من بُرَيدة، ونزل البُصْر، ثم ارتحل إلى البُكَيرية حيث أصبح في مواجهة قوات خصمه. وما كاد الملك عبدالعزيز يصل إلى قرب البُكَيرية حتى بدأ القتال بين الطرفين عند منتصف النهار. وقد ركَّز ابن رشيد وأتباعه هجومهم على الجهة التي كان فيها الملك عبدالعزيز ومن معه من أهل العارض وأقاليم نجد الواقعة جنوب القصيم. ولم يَحلَّ وقت صلاة العصر إلا وقد أُنهك هؤلاء؛ وبخاصة من نيران المدافع التي أصابت شَظيَّة منها يد الملك اليسرى، فَبدؤوا ينهزمون، واقتفى أثرهم قوم ابن رشيد. وكان أهل القصيم قد أحرزوا تَقدُّما ضد من كانوا أمامهم من جيش هذا الأخير، وهزموهم، ولم يعلموا أن الملك ومن كانوا في جهته قد انهزموا. وفي تَعقُّبهم لمن انهزموا أمامهم وصلوا إلى أولئك الذين كانوا في ساقة المنهزمين من جيش الملك عبدالعزيز، ويبدو أن هؤلاء قد ظَنُّوا أن الملك لم ينهزم

حقيقة، وإنما عمل التفافاً حولهم، فانهزموا، أيضاً، أمام أهل القصيم، وظَلَّ هؤلاء في إثرهم حتى حلول الليل".

وبذلك يَتبيَّن أن ما دَوَّنه كاتب هذه السطور عن معركة البُكَيرية لم يخرج في مضمونه عما ذكرته المصادر المعاصرة لها.

٢ - معركة روضة مُهنا:

قيل: إنه قد أُغفل في كتاب تاريخ المملكة مشاركة مُطَيْر في معركة روضة مُهنَّا، كما أغفلَت مشاركة الحاضرة أيضاً، ولم يذكر من المشاركين إلا أهل القصيم. فما الحقيقة؟

لقد ذُكر في كتاب تاريخ المملكة (ج٢، ص١٠٣) "أن الملك عبدالعزيز خرج؛ أي من الرِياض، في الخامس والعشرين من ذي الحجة، ١٣٢٣هـ، بأتباعه غازياً، ونزل الأسياح حيث أقام عشرين يوماً انضمَّ إليه خلالها غُزَاة القصيم". وأظن أنه لا يخفى على القارئ الكريم أن عبارة "انضمَّ إليه خلالها غُزَاة القصيم" لا يُقصَد بها أنه لم يكن مع الملك إلا هؤلاء. ذلك أنه قد ذكر أنه تَوجَّه بأتباعه. وهؤلاء كانوا من جميع المناطق والقبائل التابعة له، حتى وصل إلى الأسياح، التي هي في إقليم القصيم. فالعبارة إنما تُوضِّح أن غُزَاة هذا الإقليم انضمُّوا إليه بعد وصوله إلى المكان المذكور، لكنها لا تعني أنهم وحدهم هم الذين كانوا معه. بل إنه قد ذُكر أن صالح بن حسن المُهنَّا، الذي كان أعظم أمراء الإقليم نفوذاً ومكانة، لم يحضر معركة روضة مُهنَّا، التي دارت ليلة السابع عشر من صفر سنة ١٣٢٤هـ. ومن المعروف ما حدث لصالح فيما بعد؛ إذ قُبِض عليه، وسُجِن في الرياض، ثم هرب من السجن، ولحِق به، فقتِل.

على أن القاضي قد ذكر أن الملك عبدالعزيز عندما نزل مجمع البُطْنان عدا على نايف بن بُصَيِّص من مُطَيْر، الذي كان حينذاك موالياً لابن رشيد، لكن ابن بُصَيِّص علم بتحرُّكه، فهرب، ولم ينل منه الملك إلا إبلاً قليلة.

وذكر القاضي، أيضاً، أن الملك أغار على مُطَيْر، ولم يُحدِّد فئة منها، فوق الأسياح في بداية شهر شعبان من سنة ١٣٢٤هـ؛ أي بعد لأشهر من العام الذي قُتِل فيه ابن رشيد في المعركة المذكورة.

لكن يلفت النظر أن فَخذ بُرَيه من مُطَيْر كان مع الملك أواخر تلك السنة. وفي أوائل السنة التالية؛ أي سنة ١٣٢٥هـ، بدا للملك من فيصل الدويش، رحم الله الجميع، ما رابه، فَاتَّخذ حياله ما اتَّخذ من إجراء.

قال القاضي:

"كان فيصل الدويش عند مْعَدَى ابن سعود على شَمَّر، باين شَينُه، وهَمّ فيه ابن سعود وإذا قومه الذي معه من البادية: مُطَيْر وعُتَيْبة. ثم حَضَّر كبار العرب وقال وش تَرون؟ وهو مُدخل العلم مع محمد بن حميد وكبار عتيْبة. وقالوا ما لك إلا تنكف. ابن رشيد - وهو حينذاك سلطان الحمود -، دخل ديرته، وشَمَّر هَجَّوا، وأنت لاحق عليهم. قال انكفنا. ثم انكف القوم.

والمقصد نكوفة مُطَيْر لا ينذرون. وواعد عتيْبة يلتوون من قفا القصيم وواعدهم الأسياح. ثم ركب ابن سعود وسار مجنب يزعم أنه منكف لديرته ثم عارضوه عتيْبة وعدا في فيصل الدويش وأغلب علْوى معه هاك الوقت. انتذر الدويش، وزبن المجمعة وهي في هاك الوقت قوم لَابن سعود، ونزل تحت الجدار (السور)، وظهروا أهل المجمعة مساعدين الدويش. ابن سعود زَتّها عليهم، وتهيَّا ملحمة وكون جيد، وكسرهم ابن سعود، وحجرهم داخل الجدار: البدو والحضر والطالعي أخذه كله. صُوِّب فيصل الدويش صواب شَين، والذي صَوَّبه

فاجر ولد شليويح. ثم انكف ابن سعود ودخل ديرته في ربيع آخر سنة ١٣٢٥هـ"[١].

وبعد ذلك حدث ما حدث من تحالف الدويش مع سلطان بن حمود الرشيد ومحمد بن عبدالله أبا الخيل، الذي عَيَّنه الملك عبدالعزيز أميراً لبُرَيدة بعد قبضه على صالح الحسن المُهنَّا. وكان من نتائج ذلك التحالف الثلاثي حدوث معركة الطّرفية المشهورة سنة ١٣٢٥هـ. ومع أنه من المُرجَّح أن أمور العلاقة بين الملك والدويش قد عادت إلى مجاريها بعد تلك المعركة إلا أن المصادر ذكرت أن الملك عندما أراد انتزاع منطقة الأحساء من العثمانيين، عام ١٣٣١هـ، رأى إبعاد قوة العجمان عنها، فقال لهم: إنه سيغزو قبيلة مُطَيْر، التي لم تكن علاقة العجمان بها حسنة حينذاك، وواعدهم مكاناً بعيداً عن المنطقة. وقد يفهم من ذلك أن علاقة الملك بمُطَيْر في تلك السنة لم تكن على ما يرام. على أن من المُؤكَّد أن دور هذه القبيلة الإيجابي بقيادة زعيمها فيصل الدويش في عمليات توحيد البلاد بعد اعتناقها لحركة الإخوان، أصبح عظيماً.

٣ - معركة جراب:

قيل: إنه قد تَمَّ في تاريخ المملكة ذكر المشاركين مع الملك عبدالعزيز من البادية والحاضرة على السواء بالاسم لكنه ضُعِّف دور قبيلة مُطَيْر عندما قيل: "لم تصل

---

(١) كان فيصل الدويش عند مْعَدَى؛ أي هجوم، ابن سعود على شَمَّر، باين شَيْنُه؛ أي قد ظهر سوء بيَّته، وهَمَّ؛ أي عزم، ابن سعود على معاقبته.. وهو مدخل؛ أي مبطن، العلم مع محمد بن حميد؛ أي محمد ابن هندي زعيم برقا من عتيْبة.. تنكف؛ أي ترجع عن المغزى.. وشَمَّر هَجوا؛ أي هربوا.. يلتوون من قفا القصيم؛ أي يَلتفّون من وراء القصيم.. وعدا في فيصل الدويش؛ أي هجم على فيصل الدويش.. انتذر؛ أي أخذ حذره، وزبن؛ أي لجأ، إلى المجمعة. وهي في هاك الوقت قوم لابن سعود؛ أي وهي في ذلك الوقت ضد ابن سعود.. ابن سعود زَتّها؛ أي اندفع بقومه مهاجماً لخصومه.. والطالعي أخذه كله؛ أي ما كان خارج سور البلدة، أخذه كله.. صُوِّب؛ أي أصيب برصاصة. صواب شين؛ أي إصابة بليغة.

إلى ميدان المعركة إلا بعد أن بانت نتائجها ، فانتهزت الفرصة بالإغارة على إبل ابن رشيد والاستيلاء على أعداد كبيرة منها . وهذا مخالف للحقيقة حيث ذكر الدكتور إبراهيم جمعة في الأطلس التاريخي ، عن دور قبيلة مُطَيْر في سير المعركة حيث قال : " فَشدَّد الشَّمَّريون على ميسرة عبدالعزيز ، وكادت تحدث الهزيمة لو لا ما كان من بوادي مُطَيْر الذين ضغطوا على جيش ابن رشيد وهاجموا مُخيَّمه وأوقعوا الذعر في صفوف رجاله " . وتُؤكِّد رواية الدكتور إبراهيم جمعة رواية أخرى لأمين الريحاني حيث قال ما نصه : " أما بدو ابن سعود وأكثرهم من مُطَيْر فقد أغاروا أثناء ذلك على جيش ابن الرشيد ومُخيَّمه ، وكانوا كذلك من الفائزين الغانمين " .

بداية هل رواية الريحاني تُؤكِّد ما قاله جمعة؟ إن الريحاني يذكر أنه في أثناء ذلك ؛ أي في أثناء القتال بين ابن سعود وابن رشيد ، وما ذُكر أنه حدث من العجمان وإغارة بادية ابن رشيد على ميسرة جيش ابن سعود وأخذها غنائم منه ، كما يذكر أن بدو ابن سعود وأكثرهم ـ وليس كلهم ـ من مُطَيْر أغاروا على جيش ابن رشيد ومُخيَّمه ، وفازوا . والجيش في كلام الريحاني ، هنا ، تعني الركائب . وعلى هذا فإنه يفهم من كلام الريحاني أن دور مُطَيْر انصبَّ على أخذ ركائب ابن رشيد ومُخيَّمه ؛ وذلك في أثناء ما ذكر .

أما جمعة فينص على أن الشَّمَّريين شَدَّدوا على ميسرة عبدالعزيز ، وأن الهزيمة له كادت تحدث لو لا أن بادية مُطَيْر ضغطوا على جيش ابن رشيد وهاجموا مُخيَّمه ، وأوقعوا الذعر في صفوفه وتعبير " ضغطوا على جيش ابن رشيد " ، هنا ، يعني قواته لأن هناك فرقاً بين " ضغط على جيش " ، وإغارة على جيش ومُخيَّم . على أن جمعة لم يَعزُ ما قاله إلى مصدر . ولَعلَّه اعتمد على الريحاني ولم يفهم ما قاله فهماً صحيحاً .

والُمتأمِّل في رواية الريحاني يرى عدم دقته . فقد ذكر (ص٢٢٠)، أن جيش كُلٍّ

من ابن سعود وابن رشيد لم يتجاوز الثلاثة آلاف مقاتل. ثم فَصَّل ذلك قائلاً: كان مع ابن سعود نحو ألف من الحضر أكثرهم من أهل العارض. وثلاث مئة خَيَّال من العجمان، ما عدا البادية، ومدفع. وكان مع ابن رشيد ست مئة من الحضر وألف فارس من شَمَّر. وبما أنه ذكر أن جيش ابن رشيد ١٦٠٠ مقاتل فإن هذا يعني أن جيش ابن سعود كان ١٤٠٠ مقاتل، بينهم ألف من الحضر. فإذا أضيف إلى هؤلاء ثلاث مئة خيال من العجمان فإن هذا يعني أنه لم يكن معه من غير الحضر والعجمان إلا مئة بدوي. هل يعقل هذا؟ ثم إذا كان مع ابن رشيد ألف فارس من شَمَّر فهل يعني هذا أنه لم يكن معه فرسان بين الحضر، وغير شَمَّر؟ وهل الذين كانوا مع ابن سعود لم يكن بينهم خَيَّالة إلا العجمان؟ هل يعقل هذا؟ إن كتابة الريحاني - كما ذُكِر سابقاً - أقرب إلى الرواية التاريخية منها إلى التاريخ الحقيقي.

أما ابن هذلول ـ وهذا لم يُتوفَ، رحمه الله، إلا قبل سنوات قليلة ـ فقال عن المعركة:

"كان مع ابن سعود ١٦٠٠ مقاتل من الحضر أكثرهم من أهل العارض الأشدَّاء البواسل ونحو ٢٠٠ فارس (ولم يذكر من أين)، وانضمَّ إليه كثير من بادية مُطَيْر والعجمان والسبيع وصحتها (سُبَيع)، والسُّهول. ثم جاءت حاضرة القصيم فانضمُّوا معه. وكان مع ابن رشيد ١٥٠٠ من الحضر، و ٢٦٠٠ من بوادي شَمَّر، و ٣٠٠ فارس من فرسانها".

ويلفت النظر أن ابن هذلول جعل جيش ابن رشيد وحده: ٤٤٠٠ مقاتل، وجعل الحضر من جيش ابن سعود من غير أهل القصيم، الذين لم يذكر عددهم، ١٦٠٠، و٢٠٠ فارس؛ إضافة إلى كثير من مُطَيْر والعجمان وسُبَيع والسُّهول ثم قال:

"احتدم القتال، واشتدت المعركة، وتراجعت بادية العجمان وفرسانها. ونهب العجمان معسكرات ابن سعود، واحتلَّت أعراب مُطَيْر التابعة لابن سعود معسكرات ابن رشيد وغنمتها، وأغارت فرسان شَمَّر على ما تَبَقَّى من معسكرات

ابن سعود وغنمته. أما الحاضرة من الطرفين فتقاتلوا وتجالدوا وصارت الخسارة من الطرفين كبيرة" .

وبغض النظر عما في كلام الأمير سعود من نقط ليست دقيقة فإن مما يلحظ على كلامه بصفة عامة أنه ركَّز على أن القتال الشديد كان بين حاضرة الطرفين، وأنه ذكر بأن "أعراب مُطَيْر" احتلُّوا معسكرات ابن رشيد وغنموها. واحتلال المعسكرات لا ينافي كونهم لم يصلوا إلى ميدان المعركة إلا بعد أن بانت علامة نتائجها، وهي بداية انهزام فئات من حاضرة كلا الطرفين.

وماذا قال القاضي المعاصر للحادثة؟ قال:

"في عشرين من ذي الحجة، ١٣٣٢هـ، ظهر ابن سعود واستغزى أهل نجد، وغزوا ونزل الخفس جانب من سُدَير، وتلافوا عليه الغزوان، ثم ظهر ابن رشيد ونزل مع شَمَّر، وجذب البعيد منهم وجاء (أي وجاء إليه البعيد). وفي صفر عام ١٣٣٣هـ ابن سعود استجرد أهل نجد وظهر منهم أكثر من الغزو الأول ثلاث مرات".

« ثم بعد ما تلافوا غزوان ابن سعود عليه الأولين والتالين، ثم ابن رشيد جذب شَمَّر والجميع أقبل يمشي كلٍ ناحر الثاني، فيوم نزل ابن سعود جراب نزل ابن رشيد قبة، شدّ ابن سعود ناحر ابنٍ رشيد، وشَدّ ابن رشيد ناحر ابن سعود. فلما صار يوم ثامن من ربيع أول عام ١٣٣٣هـ وجاء ابن سعود يمشي يحسب ابن رشيد بقبة بعض قومه متفرقين: أحد يُرْوي وأحد يمشي على مهله، وصار الضحى من النهار وهم يشوفون ابن رشيد نازل قدام وجيههم، وإلى ما يمكن التبصُّر، ورد عليه ابن سعود ونَوَّخ ومشى ذاك عليه. ثم تناطحوا وتناشبوا، وصار كون هايل عظيم فلما استمر الكون وإذا قبَلا ابن سعود وأهل الجنوب أهل لبدة وبعض من شَمَّر ثم انكسروا أهل لبدة. أهل القصيم قبَلاهم أهل القصر وأهل مغيضة. بعدما اشتد الكون انكسروا أهل القصيم. أهل لبدة معهم سعود بن رشيد يوم انكسروا بَتَّلوها يحسبونهم

ملحوقين وإذا ما وراهم أحد. أهل الجنوب يوم انكسروا أهل القصيم انكسروا معهم، وعمرت الكسيرة على ابن سعود. شَمَّر لحقوا ابن رشيد، والناير من شَمَّر، وخَبَّروهم وَرَدَّوهم وعَوَّدوا. وابن سعود أكثر من نهبه وأخذ حلله وما استطرف من قومه بدوه الذي معه وهم حرب وبادية الجنوب. ومُطَيْر ما امكنوا الكون. فلما اقبلت جرود مُطَيْر لاحقين ابن سعود وإذا الأمر كد وقع وإذا هم يشوفون ابن سعود وابن رشيد كلهم منكسرين، صار مهواهم على طرف قوم ابن رشيد الذين منكسرين. ثم وردوا على جيش ابن رشيد، وشالوا أغلبه وانفهقوا»(١).

وتَحدَّث عن المعركة بنوع من التفصيل، أيضاً، مقبل الذكير الذي كان فتى ضيفاً عند يوسف بن إبراهيم عندما قتل مبارك بن صباح أخويه محمداً وجَرَّاحاً، سنة ١٣١٣هـ؛ أي أنه كان معاصراً لمعركة جراب. . فقال:

«دخلت سنة ١٣٣٣هـ والعداوة قد استحكمت بين ابن سعود وابن رشيد، وكل منهما يُجهِّز غزوانه ويَستعدُّ للآخر. وفي شهر صفر خرج ابن سعود ومعه أهل القصيم وأهل الوشم وسُدَير وأهل الجنوب، ومعه من البادية العجمان وبعض من حرب وقسم من سُبَيع والسُّهول وقَحطان. ولما تكاملوا عنده شَدَّ ونزل جراب. أما ابن رشيد فقد نزل قبة، ومعه شَمَّر. وأقبل كُلٌّ منهما يريد الآخر. فأقبل ابن رشيد ونزل قريباً من شعيب الأرطاوي، وشَدَّ ابن سعود من جراب. ولما قارب شعيب الأرطاوي أخذ الخبر أن بن رشيد قريب منه ولم يكن على علم

---

(١) ظهر ابن سعود (من الرياض) واستغزى أهل نجد؛ أي طلب منهم أن يغزوا معه . . وتلاقوا؛ أي اجتمعوا، عليه الغزوان . . ابن سعود استجرد؛ أي طلب من، أهلِ نجد أن يغزوا معه . . ثم ابن رشيد جذب شَمَّر؛ أي طلب منهم أن يلتحقوا به . . كل ناحر الثاني؛ أي مُتَّجه إليه . . أحد يَرْوي؛ أي يستقي . . وإلى ما يمكن التبصُّر؛ أي يصعب التفكير والانتظار . . ثم تناطحوا وتناشبوا؛ أي تقابلوا واشتبك بعضهم ببعض . . يوم انكسروا بَتَّلوها؛ أي لما انهزموا لم يتوقَّفوا . . وعمرت الكسيرة على ابن سعود؛ أي صارت الهزيمة على ابن سعود . . والناير من شَمَّر؛ أي الهارب من شَمَّر . . أخذ حلله؛ أي أخذ أثاثه . . ومطير ما امكنوا الكون؛ أي مطير لم يَتمكَّنوا من حضور المعركة . . كد وقع؛ أي قد وقع . . ثم وردوا على جيش ابن رشيد وشالوا أغلبه وانفهقوا؛ أي وردوا على إبل ابن رشيد وأخذوا أغلبها وانزاحوا.

بمنزله الأخير، ولم يكن جيشه على تعبئة. وعندما علم ابن سعود عن منزل ابن رشيد نزل وأرسل من يَكفُّ البادية لأنهم كانوا مُتفرِّقين على أمن، ولكن ابن رشيد كان أسرع منه فبادره عند أول نزوله. فالتحم القتال بين الفريقين باليوم الثامن من ربيع الأول. فكان سعود بن رشيد وأهل لُبْدة من أهل حايل وبعض من شَمَّر قُبَالة ابن سعود وأهل العارض ومن معهم من أهل الوشم وسُدَير والجنوب. وأهل القصر وأهل مغيضة وبعض من شَمَّر ومن معهم قُبَالة أهل القصيم. فلما اشتدَّ القتال بين الطرفين من الحضر أغاروا شَمَّر على جيش ابن سعود، وأخذوا بعضه، وأغار العجمان وبعض حرب، وأخذوا البقية من جيش ابن سعود، أما مُطَيْر فلم يصلوا إلا من بعد ما التحم القتال، فأغاروا على جيش ابن رشيد وأخذوه، فصارت الغنيمة للبادية من الطرفين، ولكن عندما أغاروا شَمَّر على الجيش وأخذ العجمان جيش ابن سعود كان ابن رشيد قد تضعضع، فأسندوه شمَّر فثبت، فانهزم أهل القصيم، ثم صارت الهزيمة عامة على جيش ابن سعود لأن الأمر صار فوضى كُلٌّ ينهب مَنْ قِبَله من الصديق والعدو من البادية. فانسحب ابن رشيد بمن بقي عنده من أهل حايل وشَمَّر، وانسحب ابن سعود بشرذمة قليلة من الحضر الذين معه إلى الأرطاوية وتلاحقت عليه فلول جيشه. أما أهل القصيم فقد تَفرَّقوا؛ فمنهم من تَعلَّق البادية، ومنهم من قصد القرى القريبة منه".

ومن خلال التَّأمُّل في كلام مؤرخين معاصرين لأحداث معركة جراب، وهما القاضي والذكير، يَتَّضح أن التفصيلات التي أورداها عنها من أحسن ما كُتب حولها، وأن كلام كُلٍّ من الريحاني وابن هذلول عن دور مُطَيْر فيها وتركيزه على أخذ جيش ابن رشيد، أي ركائبه، ومُخيَّمه لا يتنافى، بصفة عامة، مع ما أورده القاضي والذكير، كما يَتَّضح أن ما ذُكر في كتاب تاريخ المملكة عن تلك المعركة لا يخرج في مضمونه عما أوردته المصادر المذكورة مجتمعة.

قراءة في كتاب
سبزآباد ورجال الدولة البهية

- ١ -

ما أكثر الكتابات التي كتبت عن منطقة الخليج؛ سواء كانت كتباً تاريخية مَحلِّية، أو مذكرات سياسية كتبها في الغالب مسؤولون أجانب، أو دراسات علمية. وليس هذا بغريب. ذلك أن أهمِّية الخليج الاستراتيجية والاقتصادية قبل اكتشاف النفط في ربوعه وبعد اكتشافه كانت - وما زالت - من العظمة بحيث لا تحتاج إلى إعطاء أدلَّة عليها. وتاريخ التنافس الأوروبي الاستعماري؛ وبخاصة البرتغالي والهولندي والفرنسي والبريطاني، لبسط النفوذ عليه تاريخ يعرفه دارسو التاريخ العربي الحديث، بالذات، كُلَّ المعرفة. ولقد نالت بريطانيا قصب السبق في الهيمنة على أجزاء مُهمَّة فيه خلال القرن التاسع عشر الميلادي وأكثر القرن العشرين. وأصبح بعد ذلك تاريخاً يَتألَّم كل فرد من أبناء الخليج من تَأمُّل صفحاته الموجعة للضمائر الحَيَّة. ثم زالت تلك الهيمنة ليحلَّ فيه وجود من نوع آخر لجهة خلقت واقعاً عالمياً جديداً لا تستطيع قوة شرقية أو غربية أن تخالف لها رأياً إلا التي ابتلاها ربها بها، فأمسكت بأطراف الخيوط المؤثرة عليها؛ ألا وهي قوة الصهيونية الرهيبة.

وهذا الكتاب، الذي ألَّفته الأخت الكريمة الشيخة مَيّ الخليفة، يتناول تاريخ نفوذ بريطانيا في منطقة الخليج، وقد أتمَّت عنوانه موضحة ما يهدف إليه مضمونه بقولها: "قصة السيطرة البريطانية على الخليج العربي". على أن هذه القصة ركَّزت على

---

* نُشرت في صحيفة الجزيرة في ثلاث حلقات أسبوعية أولاها بتاريخ ٢٣/ ٢/ ١٤٢٣هـ الموافق ٦/ ٥/ ٢٠٠٢م.

سيرة أربعة من رجال بريطانيا الذين كانت لهم أدوار مُهمَّة في الخليج؛ وهم لويس بيلي، واللورد كرزون، وبيرسي كوكس، والميجر كلايف ديلي، كما جاء تفصيلها. وتلك القصة عن بلاد المؤلفة الكريمة، البحرين الحبيبة، أكثر من غيرها.

وقبل أن أبدأ بعرض ما تَوصَّلت إليه قراءتي لهذا الكتاب أنقل إلى القارئ الكريم ما ذكرته الباحثة الكريمة على ظهر غلاف الكتاب عن الكلمة الأولى من عنوانه، فقد قالت: إن سبزآباد "أي البقعة الخضراء" تسمية فارسية أطلقها المقيم البريطاني فيلكس جونز على دار المقيمية البريطانية في بوشهر. ومن تلك الدار كانت تدار أحداث الخليج بساحليه الفارسي والعربي. والدولة البَهيَّة، كما هو معروف لدى الكثيرين، وصف كان يطلق على بريطانيا، التي كانت في وقت من الأوقات امبراطورية لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها.

وقد نشرت الكتاب المؤسسة العربية للدراسات والنشر في عَمَّان سنة ١٩٩٨م. ويَتكوَّن من ٦٢٩ صفحة مشتملة على إهداء مختصر هو: "إلى من يقبلون الوجوه المتعددة للحقيقة"، فتمهيد من صفحتين، فتقديم من ست صفحات، ثم تبدأ الأبواب الأربعة، التي تُكوِّن لُبَّ الكتاب. وأوَّلها عن بيلي وما كتبه، وثانيها عن كرزون وما قام به من أعمال إدارية وسياسية، وثالثها عن كوكس وسيرته، ورابعها عن ديلي وما قام به في البحرين بشكل خاص. وقد ألحقت المُؤلِّفة بالبابين الأوَّل والرابع عدداً من الوثائق، وظهر الكتاب بلغة جيدة، وعرض لا بأس به. وهو - بما اشتمل عليه - يسهم في إثراء المعرفة التاريخية عن المنطقة التي تناولها، فشكر الله للباحثة الكريمة جهدها، وأكثر من مثيلاتها.

وكان مما ذكرته الباحثة الكريمة في تمهيدها قولها:

"ومع اكتشاف عدم تطابق الأقوال وبُعد التاريخ المروي عن الواقع المُوثَّق تأتي هذه المحاولة - تعني ما كتبته - لقراءة مَلفِّ القَرن العشرين السياسي، الذي انتهى،

باستنتاجات جديدة تنفي الروايات الخيالية وتنكر الأبطال الوَهميِّين. ورغم أن الصورة الخيالية قد تخالف المرسوم سابقاً إلا أننا لا نملك خياراً آخر أمام تلك المُدوَّنات الكثيرة الراصدة لأحداث تلك الفترة. ومن ذلك المصدر المُوثَّق الوحيد - و "أكرر الوحيد" - المتوافر للدارس (أي التقارير البريطانية)، نتابع ما جرى في البحرين قبل سبعين عاماً، ونحاول بقراءة مُتأنِّية تَجنُّب الوقوع في تفسيرات خاطئة؛ خاصة أن تلك التقارير كُتبت آنذاك لتخدم السلطة الأجنبية وتعطيها المُبرِّرات المطلوبة في ممارستها الظالمة ضد الحاكم والمواطنين".

ومع أن الباحثة الكريمة مُحقَّة في تبيان أهمِّية التقارير البريطانية في الكتابة عن تاريخ منطقة الخليج في الفترة المتناولة بالبحث فإن قولها: إن تلك التقارير هي المصدر المُوثَّق الوحيد - "مع تكرارها لكلمة الوحيد" - المتوافر للدارس قول ليس من المُسلَّم بصحته. بل إن الكاتبة نفسها ذكرت أن التقارير البريطانية كُتبت "لتخدم السلطة الأجنبية إلخ. ولو قُبل ما قالته عن الهدف من كتابة هذه التقارير فهل مع هذا القول نثق بها إلى درجة نجعلها المصدر المُوثَّق الوحيد؟ ولو رجعت الباحثة الكريمة - مثلاً - إلى تعليقات الدكتورين عبدالرحمن الشيخ وعُوَيْضة الجُهَني اللذين ترجما رحلة بيلي إلى الرياض لأدركت أن ثقتها بما كتبه ذلك البريطاني لم يُبنَ بعضها على أساس صحيح.

على أن التقارير؛ بريطانية أو غير بريطانية، يمكن أن تكون محتوياتها صحيحة أو غير صحيحة. فهي تخضع، أحياناً، لانطباعات كاتبها أو اعتماده على مخبر ليس دقيق الملاحظة أو لا يَتورَّع في إعطاء معلومات منافية للواقع لهدف مُعيَّن. وقد يجد المرء في التقارير البريطانية نفسها حديثين عن واقعة واحدة لمسؤولين بريطانيين وحديث أحدهما لا يَتَّفق مع حديث الآخر؛ بل ربما يناقضه.

والتقارير البريطانية ليست المصدر الوحيد المتوافر لدارس تاريخ منطقة الخليج في تلك الفترة؛ وإن كانت ذات أهمِّية كبرى لتاريخ البحرين خصوصاً خلال

الربع الأوَّل من القرن العشرين. لكن الباحثة الكريمة تَحدَّثت في الباب الأوَّل عن بيلي. ومن المعلوم أن عمله في هذه المنطقة كان في القرن التاسع عشر. وفي هذا القرن كان لوثائق الدولة العثمانية؛ سواء في تركيا نفسها أو في العراق ومصر، أهمِّيتها الكبيرة. وللوثائق الفارسية أهمِّيتها أيضاً؛ سواء في القرن التاسع عشر أو في القرن العشرين. وإضافة إلى ذلك فإن للوثائق المَحلِّية بما فيها من صكوك وللتواريخ المكتوبة، والروايات الشفهية المتوارثة، والشعر؛ فصيحه وعَاميِّه، فائدة وأهمِّية. ولا شك أن الباحث سيفيد كثيراً من الوثائق الأمريكية؛ وبخاصة في الكتابة عن تاريخ البحرين من بداية القرن العشرين.

ومع ذلك المأخذ على الباحثة الكريمة فإنها قد وُفِّقت في اختتام تمهيدها بقولها: «لا بد أن أضيف بأن ما اعتقدت اليوم أنه أقرب إلى الحقيقة قد تنفيه وثيقة أخرى نكتشفها في الغد. وبذلك يبقى باب الاجتهاد والبحث العلمي والاستنتاج مفتوحاً لكل راغب في إكمال أجزاء مجهولة من تلك الصورة؛ أي صورة واقع المنطقة المُتحدَّث عنها.

وقد أعطت الكاتبة الكريمة في تقديمها لمحة موجزة جداً عن مسيرة الوجود البريطاني في الخليج من بدايات القرن السابع عشر إلى الربع الأوَّل من القرن العشرين. ولأنها لم ترجع إلى مصادر يمكن أن تفيدها فيما كتبت فقد اشتملت الَّلمحة التي أوردتها على أمور تحتاج إلى إعادة نظر. من ذلك ذكرها (ص١٤) أن بريطانيا وَقَّعت أولى اتِّفاقياتها مع سلطان مسقط عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ) بهدف الحَدِّ من نشاط الفرنسيين في عمان. ومن المعلوم أن تاريخ الاتِّفاقية يتزامن مع تاريخ دخول نابليون مصر. ولذلك فإن ما ذكرته الباحثة الكريمة بشأن الاتِّفاقية ربما كان هدفاً جوهرياً بالنسبة لبريطانيا. لكن ألا يحتمل، أيضاً، أن هناك هدفاً آخر لها؟ فمن المعلوم أن الدولة السعودية قد وصلت حينذاك إلى مياه الخليج؛ إذ انتزعت منطقة الأحساء والقطيف وما يتبعهما من البلاد التابعة لبني خالد،

وأدخلت تحت حكمها شبه جزيرة قطر، وهاجمت بلدة الكويت، التي كانت قد انتقلت إليها الوكالة البريطانية من البصرة بين عامي ١٧٩٣و١٧٩٥م، وشاركت هذه الوكالة بالدفاع عنها.

وإضافة إلى ذلك كان القائد السعودي، إبراهيم بن عُفَيْصان، قد وصل إلى البُرَيْمي عام ١٧٩٥م وبنى فيها قصراً قاعدة لقواته. وكانت الاتِّفاقية متزامنة، أيضا، مع تحالف القواسم مع آل سعود. ومن المعروف أن القواسم كانوا قوة بحرية مرهوبة الجانب، وأن نشاطهم لم يقتصر على الاشتباك مع قوات سلطان عمان؛ بل هاجموا سفينتين بريطانيتين في الخليج عامي ١٧٩٧ و١٧٩٨م. أفلا يكون نجاح السعوديين في المنطقة وتحالف القواسم معهم عاملاً مُهمّا في توقيع البريطانيين اتِّفاقية مع السلطان العماني؟ وإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة لبريطانيا فإن من المُرجَّح أنه كان السبب الجوهري وراء عقد السلطان الاتِّفاقية مع بريطانيا.

ومما ذكرته الباحثة الكريمة في تقديمها (ص١٤) أنه "في عام ١٨١٨م نزلت القوات البريطانية إلى ساحل الإمارات. وبالتعاون مع حليفها سلطان مسقط تَمَّ تدمير الأساطيل العربية الباقية وقطع الذراع البحري للوجود الوهابي في قلب الجزيرة".

وهذا الكلام يحتاج إلى تدقيق. فالثابت تاريخياً أن البريطانيين هاجموا رأس الخيمة عام ١٨٠٩م (١٢٢٤هـ)، لكنهم لم يبقوا فيها إلا يوماً واحداً، ثم غادروها. على أن نشاط القواسم ازداد ووصلت سفنهم في تَحدِّيها للبريطانيين إلى مسافة لا تبعد أكثر من ستين ميلاً عن بمبي نفسها. وتزامن هذا التحدي مع قضاء والي مصر العثماني حينذاك، محمد علي باشا، على الدولة السعودية عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م. فكان أن أرسل البريطانيون حملة بحرية قوية ضد رأس الخيمة عام ١٨١٩م وصمد القواسم شهرين، لكن تدمير قاعدتهم أجبرهم على عقد اتِّفاقية مع بريطانيا في العام التالي.

- ٢ -

وتَحدَّثت الباحثة الكريمة، مَيّ الخليفة، في الباب الأوَّل من كتابها عن لويس بيلي (١٨٢٥-١٨٩٣م)، وابتدأته بعنوان هو: "اسم يثير الرعب"، وأشارت إلى الموقف الذي اتَّخذه حيال أحد زعماء الهند، فجعل إطلاق تلك التسمية عليه إطلاقا مناسباً. وعندما تَأزَّم الخلاف بين بريطانيا والأمير شير علي في أفغانستان، التي عَدَّها اللورد كرزون "مصدر شؤم وإحباط للإنجليز"، اختارت بيلي لمواجهة ذلك الأمير. وقد رفض الأمير استقباله، وأعلن استعداده "للجهاد وشَنِّ حرب دينية ضد الوجود الإنجليزي في الهند وأفغانستان".

على أن الحديث في الكتاب عن بيلي منصب على عمله خلال تَولِّيه منصب المقيم السياسي البريطاني في بوشهر بين عامي ١٨٦٢ و١٨٧٣م. وقد ذكرت الباحثة الكريمة أنه كان مهتماً بالتراث التاريخي والديني لأهالي المنطقة والخلاف المذهبي بينهم. وقالت (ص٢٢): إن هذا الاهتمام ربما كان أحد الأسباب التي حَرَّضته على القيام برحلة إلى الرياض عام ١٨٦٦م. لكنها نسيت، فيما يبدو، أنها ذكرت هذا السبب عندما قالت (ص١٢٢): "الأسباب الرئيسية لرحلة الرياض أوَّل أهدافها خلق علاقة دبلوماسية مع الأمير فيصل بعد ضرب الدمام عام ١٨٦١م، وبسبب امتداد النفوذ السعودي إلى المنطقة الشرقية المُطلَّة على الخليج مما يُهدِّد المصالح البريطانية هناك، وشرح وجهة نظر بريطانيا بمنع تجارة الرقيق".

ونقلت الباحثة الكريمة (ص٢٥) عن لاندن أنه بتَسلُّم بيلي عمله مقيماً بريطانياً في الخليج "بدأت مرحلة جديدة من العلاقات بين بريطانيا وسكان المنطقة أبرز ما يُميِّزها التدخُّل المباشر في الشؤون السياسية الداخلية الأمر الذي ترك أثره الواضح على مجرى التاريخ القومي لسكان الخليج وحكامه".

وقد تَحدَّثت الباحثة عن مسيرة بيلي العملية السياسية، وذكرت كيف وصل به الغرور الى أن يُسمِّي نفسه رائد التغيير ورسول الحضارة والعهد الجديد. وما أكثر ما ادَّعى الغربيون؛ أفراداً وحكومات، أموراً لا تَتَّفق مع الواقع. ولَعلَّ مما يُبيِّن بطلان ادِّعاءاتهم، في الوقت الحاضِر، بأنهم أنصار الحق والعدل والحرية تأييدهم، بصفة عامة، لجرائم الصهاينة في فلسطين وجرائم غيرهم ضد المسلمين في بلدان مُتعدِّدة.

ثم تَحدَّثت الباحثة الكريمة عن جهود بيلي المُتمثِّلة في تدوينه معلومات عن المنطقة؛ اجتماعياً وجغرافياً وتاريخياً، وامتدحت (ص٣٠) تدقيقه البَحثي فيما كتبه.

ومما أوردته من كتاباته يجد القارىء أنه ذكر أن معابد النار، التي كانت موجودة قبل الإسلام في جنوب غربي بلاد فارس، تَحولَّت الى مزارات للسُنَّة والشِّيعة؛ مثل مزار زاده، أو ابن الإمام، الذي هو مزار للشِّيعة. ولا أظن أن مُدقِّقاً في البحث سيصل الى ما تَوصَّل إليه بيلي.

وقد بدأت الباحثة الكريمة وصفها لتقرير بيلي عن رحلته الى الرياض بقولها (ص١٢١):

في عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) زار بيلي الرياض، التي سبقه إليها قبل ثلاث سنوات بالجريف، وقبله الروسي سيتزن، والسويسري بوركهارت. أما الذي سبق الجميع - ولأهداف عملية بحتة وحباً في الشرق واستجابة لسحره - فهو الدانمركي نيبور، الذي وصل عام ١٧٦٢م.

وكان المُؤمَّل أن تكون معلومات الباحثة الكريمة عن أولئك الرحالة وتاريخ المنطقة أحسن مما أوردته، هنا، عنهم وعن تاريخها. وإذا كان من المُرجَّح أن بالجريف قد زار الرياض - وفيلبي ينفي زيارته لها - فإن الثلاثة الآخرين، الذين ذكرت الباحثة الكريمة مَيّ زيارتهم لها، لم يزوروها، وإن زاروا مناطق أخرى من جزيرة العرب.

فسيتزن زار الحجاز واليمن، وبوركهارت زار الحجاز، ونيبور زار اليمن وساحل الخليج العربي. لكن هؤلاء لم يزوروا نجداً؛ ناهيك أن يكونوا قد زاروا الرياض[١]. على أن هناك أوروبياً وصل إلى الرياض عام ١٨١٩م؛ وهو الأيرلندي سادلير[٢] الذي أشارت إليه الباحثة الكريمة نفسها في هامش صفحة١٢٢ .

وقد نقلت الباحثة الكريمة (ص١٢٥) عن بيلي قوله: "الكويت تصغير كوت؛ وهو الاسم الذي أُطلق على قلعة يعود تاريخ بنائها الى مئة عام"؛ أي عام ١١٨٢هـ. ولم تُعلِّق على هذا القول، الذي يجعل بناء القلعة، التي اتَّخذت الكويت منها اسمها، في العام المذكور. ولو رجعت إلى مصادر أخرى لوجدت أنها قد بُنيت قبل ذلك التاريخ بزمن طويل. ومن ذلك أنه قد زار الكويت مُرتَضى بن علوان، سنة ١١٢١هـ، ووصفها وصفاً دقيقاً، فقال: "إنها في عمارتها وأبراجها تشبه مدينة الحسا (الهفوف التي في وسطها الكُوْت) إلا أنها أصغر منها"[٣]. وهذا دليل إضافي على أن التقارير البريطانية - بما فيها تقرير بيلي الذي قالت الباحثة الكريمة عنه: إنه دقيق في بحثه - عرضة للأخطاء؛ مثلها مثل التقارير الأخرى.

(١) لكاتب هذه السطور مقالة عنوانها: "نيبور ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب"، وهي موجودة في كتابه بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، ص ١١٥-١٢٦. وقد ترجم جزءاً من كتاب بوركهارت ملاحظات عن البدو والوهابيين؛ عنوانه مواد لتاريخ الوهابيين، ونُشر مع تعليقات عليه عام ١٤٠٥هـ. كما ترجم جزءاً آخر من ذلك الكتاب عنوانه من حديث بوركهارت عن الخيل والإبل العربية، ونُشر عام ١٤١٣هـ. ولبوركهارت كتاب آخر عنوانه رحلات في شبه جزيرة العرب، وقد ترجمه وعلَّق عليه الزميلان الدكتور عبدالعزيز الهلابي والدكتور عبدالرحمن الشيخ، ونُشر عام ١٤١٣هـ.

(٢) ترجم رحلة سادلير وعلَّق عليها، الأستاذ أنس الرفاعي، ونشرها الأستاذ سعود الجمران عام ١٤٠٣هـ. أما رحلة بيلي فترجمها الزميلان الدكتور عبدالرحمن الشيخ والدكتور عويضة الجهني مع تعليقات تُبيِّن الأخطاء الواضحة في بعض ما ذكره، ونشرت جامعة الملك سعود عملهما سنة ١٤١١هـ.

(٣) نشر كاتب هذه السطور بحثاً عن رحلة ابن علوان المُتضمِّنة الحديث عن الكويت في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عام ١٣٩٧هـ، ونُشر هذا البحث في كتابه بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، عام ١٤٠٤هـ.

قالت الباحثة الكريمة (ص١٢٩): "نلاحظ أن جميع الرحالة كتبوا عن الوهابية محاولين معرفة جذورها وتأثيرها. وإذا كان كل ما كتب (باستثناء كتابات نيبور) يرصد السلبيات ويُضخِّمها، أحياناً، فذاك مرده إلى الروح الصليبية وموقف الغرب من المسلمين؛ إضافة إلى الحقيقة الأكيدة الأخرى وما يعنيه اتِّحاد القبائل العربية تحت سلطة قوية واحدة يَمتدُّ نفوذها البحري إلى الخليج مُهدِّداً الوجود البريطاني في ذلك المَمرِّ المائي والمَعبَر الحيوي لناقلات شركة الهند الشرقية".

أما ما ذكرته الباحثة الكريمة عن تَخوُّف بريطانيا من سلطة عربية تُهدِّد نفوذها في الخليج فأمر واضح. لكن ما ذكرته عن كتابات الرحالة الغربيين عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب تنقصه الدِّقة والإنصاف، كان من أولئك الرحالة من يحمل روحاً صليبية ضد المسلمين، لكن كان منهم من كتب بتجرُّد وموضوعية. وإن من خصوم تلك الدعوة من المسلمين من كانت كتاباتهم عنها لا تَقلُّ سوءاً وتشويهاً عن كتابات الرحالة السيئة الناتجة عن جهل بحقيقتها أو تَعمُّد لتشويهها.

كان نيبور، فيما يبدو، يَتحرَّى الموضوعية، فقد قال: إنه لم تُتَح له فرصة مقابلة أيِّ فرد من أتباع الشيخ (محمد بن عبدالوهاب). ولذا فإنه لن يَتمكَّن من إعطاء فكرة مُؤكَّدة عن مبادىء دعوته. وذكر أخبارها عن أناس ليسوا من أتباعها. لذا لم يكن غريباً أن يجعل عنوان حديثه عنها: "الديانة الجديدة في نجد"، وأن يقول: «إن النجديين كانوا سُنِّيين محافظين قبل ظهور تلك الديانة»، وأن ينقل عن بدوي اعتاد أن يسافر مع التجار عبر جزيرة العرب قوله: "إن الشيخ يعتبر محمداً وعيسى وموسى وغيرهم ممن تُسمِّيهم السُّنة أنبياء مُجرَّد رجال عظماء؛ مُنكراً تدوين أيِّ كتاب بوحي إلهي أو إنزاله من السماء بوساطة جبريل". على أنه يَستنتج أن "دين الشيخ الجديد يَستحق أن يُعدَّ إصلاحاً للمحمدية (الإسلام) وعودة بها إلى حقيقتها الأولى".

وكانت كتابات بوركهارت عن دعوة الشيخ؛ وبخاصة في كتابه ملحوظات عن البدو والوهابيين، كتابة حياديَّة وافية. وأتى بعده رحالة غربيون؛ منهم من كتب بموضوعية، ومنهم من كَتَب بتَحيُّز. ومن العدل والإنصاف عدم تعميم حكم عليهم، كما فعلت الباحثة الكريمة؛ بل يحكم على كُلٍّ بما فعل.

وقد أوردت الباحثة الكريمة ما كتبه بيلي عن بعض الجماعات والمدن والقرى الساحلية على جانبي الخليج الشرقي والغربي، كما أوردت شيئاً مما دوَّنه عن رحلته إلى الرياض، ثم تكلَّمت باختصار عن أعماله في البحرين بالذات، وأوردت صوراً لعدد من الوثائق اختتمتها برسالة تهديد من بيلي إلى الإمام عبدالله بن فيصل (ص١٧٧).

وتَحدَّثت الباحثة الكريمة في الباب الثاني من كتابها عن اللورد كرزون (١٨٥٩ - ١٩٢٥م)، الذي كان نائباً لملك بريطانيا في الهند، ثم أصبح سكرتيراً لخارجيتها. فَتكلَّمت عن نشأته، وحياته إلى أن بلغ المناصب العليا، وأشارت إلى زيارتيه لمنطقة الخليج، فقالت (ص١٨١): إنه تَوجَّه في إحداهما، بالحديث إلى زعماء الساحل من عليائه والجميع منصتون شبه خاشعين، وفَصَّلت الحديث عن تَنقُّلاته واستقبالاته في تلك المنطقة، وما وَجَّه به من إجراءات. وقد اعتمدت في ذلك كثيراً على لوريمر في كتابه دليل الخليج. ثم تَحدَّثت عن عمله في الخارجية، وأشارت إلى أنه لم يكن الرجل المناسب في الوقت المناسب لذلك العمل، ونقلت عنه قوله (ص٢٢٩) في رسالة إلى اللورد سلبرون(١):

"أودُّ أن أُؤكِّد لكم أنني لم أحتج إلى أكثر من خمس دقائق للوصول إلى الحقيقة المكتوبة على كل الكرة الأرضية بكاملها وباللون الأحمر؛ وهي أننا غير مرغوب فينا". وتَحدَّثت الباحثة الكريمة بنوع من التفصيل عن موقف كرزوَن من

(١) كتبت في الهامش: اللورد سلبورن. Slbrne.

بلاد فارس؛ مُبيِّنة تحمُّسه لإبقاء النفوذ البريطاني فيها والدفاع عنها ضد الخطر الروسي، ثم تَحدَّثت عن حياته بعد اعتزاله السياسة وتَفرُّغه للكتابة إلى أن اختتمت كلامها عنه بقولها (ص ٢٤٤):

"ومن الريف البريطاني وأحلام كرزون المدفوعة مع نعشه القرمزي نعود ثانية إلى الخليج وإلى الوجه الثالث الذي اختاره كرزون بعناية فائقة ليحتلَّ منصباً حساساً، ويترك بدوره خطوطاً واضحة على خريطة الخليج. ذلك الأبولو الصامت السير بيرسي كوكس".

-٣-

ولقد خَصَّصت الباحثة الكريمة، مَيّ الخليفة، الباب الثالث من كتابها للحديث عن بيرسي كوكس، الذي قال عنه كرزون: "الأبولو الصامت"، وجعلت هذا القول أوَّل عناوين هذا الباب. وقد كتبت عن مولده، ونشأته، وبداية عمله الدبلوماسي إلى أن أصبح مقيماً سياسياً وقنصلاً عاماً في بوشهر عام ١٩٠٤م. ومع أنه ذهب للعمل فترة قصيرة في لندن، ثم في الهند، فإنه عاد مقيماً سياسياً في الخليج ودخل إلى البصرة عام ١٩١٥م حيث عُيِّن مُفوَّضاً مدنياً في العراق، وتَولَّى مناصب أخرى فيما بعد إلى أن تقاعد عام ١٩٢٣م.

ولقد فَصَّلت الباحثة الكريمة ما جرى بين كوكس وسلطان عمان بما في ذلك علاقة فرنسا بالسلطنة العمانية، لتنتقل بعد هذا إلى ما قام به من إجراءات في البحرين، وتورد المراسلات التي تَمَّت بين أطراف مُتعدِّدة خاصة بواقع هذا الوطن الكريم وشؤونه المختلفة.

ثم تكلَّمت الباحثة الكريمة عن الملك عبدالعزيز، فقالت: (ص ٣٥٧):

"في سنة ١٩٠٦م بعد مقتل ابن رشيد المنافس الأول لابن سعود وسيطرة الأخير الكاملة على الجزيرة العربية يَتحرّك المقيم السياسي (البريطاني) في بوشهر، ويُقدِّم على حكومة الهند عدة بدائل للعلاقة المطلوبة مع سَيِّد الجزيرة العربية".

ومن المعلوم أن مقتل الأمير عبدالعزيز بن رشيد في معركة روضة مُهنَّا، سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م، لم يُؤدِّ إلى سيطرة الملك عبدالعزيز على كل منطقة نجد؛ إذ بقي إقليم جبل شمَّر خارج حكمه حتى سنة ١٣٤٠هـ؛ ناهيك عن أن تكون قد تَمَّت له السيطرة الكاملة على الجزيرة العربية.

ولقد تكلَّمت الباحثة الكريمة عن محاولات الملك عبدالعزيز إقامة علاقات مع بريطانيا؛ ابتداء من عام ١٩٠٤م، وعدم استجابتها لتلك المحاولات الأولى مراعاة للعثمانيين الذين كانوا مستولين على منطقة الأحساء والقطيف. وبعد أن تَحدَّثت عن أوضاع المنطقة؛ وبخاصة بلاد فارس، عادت إلى الكلام عن علاقة كوكس بالملك عبدالعزيز، فقالت (ص٣٩٦):

"يبدو أن سباق الحصول على أجزاء من تركة الرجل المريض أصاب ابن سعود أيضاً. لذا نجده ينتصر على إمارة آل رشيد ويسترجع حائل في مايو ١٩١٣م. ومن هناك يواصل تَحرُّكه إلى الهفوف ويسيطر على القطيف والعُقَيْر تاركاً أمامه الحاميات التركية على ساحل الخليج. ورغم محاولة الأتراك استعادة المناطق المفقودة بقيت سيطرة ابن سعود ثابتة في الأحساء وساحل الجزيرة الشرقي معارضاً بذلك الاتِّفاق الأنجلو-تركي الذي يعطي الأتراك صلاحية كاملة في منطقة الأحساء".

ومن المعلوم أن الملك عبدالعزيز انتزع منطقة الأحساء والقطيف من العثمانيين عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م قبل أن تَتمَّ الاتِّفاقية بينهم وبين بريطانيا. وبذلك لم يكن للعثمانيين حق توقيع أيِّ اتِّفاقية بشأن المنطقة بعد أن خرجت عن حكمهم. وقد درس هذا الموضوع دراسة جيدة كُلٌّ من الدكتور خالد السعدون في كتابه <u>العلاقات</u>

بين نجد والكويت، والباحث الأمريكي ترولر في كتابه الذي ترجمة عنوانه مولد المملكة العربية السعودية. وإذا كان الملك عبدالعزيز قد انتزع منطقة الأحساء والقطيف من العثمانيين عام ١٣٣١هـ فإنه لم يقض على إمارة آل رشيد ويسترجع بلدة حائل إلا عام ١٣٤٠هـ؛ أي بعد تسع سنوات من انتزاعه الأحساء والقطيف.

ولقد تَحدَّثت الباحثة الكريمة عن مؤتمر العُقَيْر والظروف التي أحاطت بانعقاده ونتائجه. وقد اعتمدت في كثير مما كتبته عن نتائج ذلك المؤتمر على ما ذكره ديكسون؛ وبخاصة ما يَتعلَّق بالحدود السعودية الكويتية. ولو رجعت إلى الكتابين المذكورين سابقاً، وإلى ما ذكرته هي نفسها عن نفوذ الإمام فيصل بن تركي عند زيارة بيلي له عام ١٢٨٢هـ، وما ذكره ذلك البريطاني في رحلته عن مدى نفوذ أمير الكويت حينذاك، لأدركت أنه من الأفضل علمياً عدم أخذ رواية ديكسون على علاَّتها. ولقد ذكرت هي (ص٤٣١) أن ديكسون، خلال عمله مقيماً سياسياً فَي البحرينَ، خَلَّف وراءه عوامل انقسام وبذور فتنة بين أهلها. وكان هؤلاء قد تظاهروا ضده، وطالبوا شيخ البحرين برحيله. ورجلٌ قالت عنه، هنا، ما قالت أظن من المستحسن تدقيق ما كتبه وتمحيصه.

وفي حديث الباحثة الكريمة عن علاقات بريطانيا بالملك عبدالعزيز قالت (ص٤٠٩) ما ملخصه:

"في الفترة الواقعة بين عام ١٩١٣ حتى عام ١٩١٦م "عام الاستيلاء على الأحساء" كان عبدالعزيز بن سعود يومها يملك قلب الجزيرة العربية وأطرافها. ولذلك حين أُعلنت الحرب العالمية الأولى في أكتوبر ١٩١٤م طلب السير بيرسي كوكس من المعتَمد السياسي في الكويت الكابتن شكسبير التوجه لمقابلة ابن سعود وشرح موقف بريطانيا لديه... ثم رافقه إلى معركة الجراب (وصحتها جراب) قرب زلفي (وصحتها الزُّلفي)، وكان آنذاك مسؤولاً عن حملة البنادق في جيش ابن سعود وقُتِل في تلك المعركة".

ولَعلَّ مما يلفت النظر أن الباحثة الكريمة وضعت عبارة "عام الاستيلاء على الأحساء" بين قوسين بعد ذكرها عام ١٩١٦م مباشرة. والقارئ الذي لا يعرف تاريخ تلك الفترة سيفهم أن الملك عبدالعزيز استولى على الأحساء في ذلك العام. والصحيح أن استعادته الأحساء من العثمانيين قد تَمَّ سنة ١٩١٣م.

وما قالته الباحثة الكريمة من أن شكسبير "كان مسؤولاً في معركة جراب عن حملة البنادق في جيش ابن سعود" قول ليس في المصادر لتلك المعركة ما يُؤيِّده. وكان معظم أفراد الجيش السعودي من حملة البنادق، ولم يكن لشكسبير أيُّ دخل بهم.

وتَحدَّثت الباحثة الكريمة في الباب الرابع من كتابها عن الميجر ديلي، الذي أصبح مقيماً سياسياً في البحرين، أو الحاكم الفعلي لها على حد قولها (ص٤٣٥). وقد بدأت الحديث عنه باقتباس قول السيدة جرترود بل عنه: "ساعد الميجر ديلي بمعاملته الفَظَّة على إشعال نار الثورة في العراق". وقد اضطر إلى الهرب بالطائرة من مقر إدارته في الديوانية أمام تلك الثورة. فوصل إلى البحرين عام ١٩٢١م. ومع وجود بذور الفتنة التي خَلَّفها سلفه ديكسون، وصلاحيات قانون المستعمرات، الذي أعطاه سلطة شبه مطلقة، نجح الهارب من العراق في إشعال الفتنة في البحرين، وتجاوزت تَدخُّلاته في جميع شؤونها الحدود بحيث وصلت إلى عزل حاكمها، الشيخ عيسى، عن الحكم.

وحديث الباحثة الكريمة عن كُلِّ ذلك حديث مستفيض مُوثَّق، ومما قالته:

"وكان ديلي – ومن ورائه حكومة الهند البريطانية ـ لا يطيق أن يرى معارضاً لسياسته في البحرين. ومن بين من وَجَّه إليهم سهامه أرباب القلم. وكان من هؤلاء حافظ وهبة، أو المُلاَّ حافظ، كما يُسمَّى في السجلات البريطانية، الذي كان مديراً لمدرسة الهداية الخليفية بين عامي ١٩٢٠ و١٩٢٢م. وكان أحد المتهمين بالوطنية ومعاداة الإنجليز. وكان دوره مخالفاً للسياسة البريطانية ودوائرها في

الكويت والبصرة والبحرين، واتَّهمه ديلي بأنه كتب مقالاً في صحيفة الأخبار القاهرية عن تُدخُّلات ذلك المقيم في إدارة البلاد وأمورها الداخلية، فمنعه من العودة إليها".

وكان مما يلفت النظر في سياسة ديلي؛ إضافة إلى إشعاله نار الفتنة بين أهل البحرين، ما قالته الباحثة الكريمة (ص٦١١): «من أنه لم يقتنع بصلاحيتهم للخدمة في الشرطة؛ مُدَّعياً افتقادهم لروح الانضباط العسكري. والحقيقة أنه لجأ إلى غيرهم من الأجانب لضمان ولائهم. فَعيِّن في بداية الأمر فُرْساً. ولما رأى انحيازهم لبني جلدتهم في حادثة السوق حين اشتبكوا مع النجديين وضع بدلاً منهم فرقة من البلوش والهنود».

وقد اختتمت الباحثة الكريمة الباب الرابع، الذي تَحدَّثت فيه عن الميجر ديلي وأعماله في البحرين، بإيراد صور من الوثائق المُتَّصلة بتلك الأعمال؛ مبتدئة بإيراد بيتين في رثاء الشيخ عيسى، رحمه الله، هما:

سأماً أظنُّك قد ثَويت بحفرة
تَشكو همومك في مكانٍ خالي

أطبقتَ منك الجَفنَ في إطباقها
كيلا تَرى عيناك حَالَ أوالَ

ومن تلك الوثائق ثلاث رسائل من الملك عبدالعزيز، رحمه الله، إلى المُقدَّم نوكس بشأن حادثة السوق، أو الاشتباكات بين نجديين وفُرْس.

ولا يسع كاتب هذه السطور إلا أن يختتم حديثه عن كتاب الباحثة الكريمة، مَيّ الخليفة، بشكرها على ما قامت به من جهد، وتكرار ما سبق أن عَبَّر عنه من رجاء بأن يكثر الله من مثيلاتها.

قراءة في كتاب
التاريخ السياسي لإمارة حائل *
تأليف
جبَّار يحيى عُبَيد

- ١ -

يرتاح المرء إلى قراءة ما كُتب في ميدان تخصصه من كتابات، وإلى الكتابة في ذلك الميدان. ولئن شغلته عن هذا وذاك مجريات الأحداث التي تَمرُّ بها أُمَّته الآن؛ وهي أحداث ذات عواصف يرجو المخلصون أن يقيهم الله مصائبها فإنه يسعد بالرجوع إلى تخصصه. ولقد اقتضت مشيئة الله - سبحانه - أن أتَخصَّص في تاريخ هذا الوطن العزيز. ولذلك أجدني الآن مرتاحاً في تناولي جانباً من جوانب ذلك التاريخ؛ مُتحدِّثاً عن كتاب التاريخ السياسي لإمارة حائل، تأليف الدكتور جَبَّار يحيى عُبَيد، الذي نشرته الدار العربية للموسوعات في بيروت عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. وسيأتي الحديث عنه بنوع من التفصيل إن شاء الله.

والمُتأمِّل في تاريخ وطننا العزيز يجد أن هناك حدثين كان لهما ما لهما من دور مُهمٍّ في ذلك التاريخ، أحدهما - وهو الأهمُّ - ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، رحمه الله، وما تَرتَّب على ظهورها من قيام الدولة السعودية الأولى، التي ناصرت تلك الدعوة وانتصرت بمناصرتها لها. وثانيهما قيام إمارة آل رشيد في شمالي نجد، وما أدَّى إليه قيامها آخر الأمر من قُوَّة مكَّنتها - لظروف مُتعدِّدة - من حكم الأقاليم النجدية منفردة نحو عشر سنوات؛ إضافة - بطبيعة

---

* نُشرت في صحيفة الجزيرة في أربع حلقات أسبوعية أولاها بتاريخ ٠٣/ ٠٦/ ١٤٣١هـ الموافق ١٧/ ٥/ ٢٠١٠م.

الحال - إلى توحيد البلاد على يد الملك عبدالعزيز، رحمه الله. ومن المعروف أن الحدث الأوَّل كان حدثاً غَيَّر وجه تاريخ المنطقة لا في نجد وحدها فحسب؛ بل في مناطق جزيرة العرب كُلِّها، وامتد تأثيره إلى أبعد من ذلك. أما الحدث الثاني فَأهميَّته تبرز في كونه فترة فاصلة بين فترتين من فترات الحكم السعودي الثلاث وإن لم تَتعدَّ أبعاد أثره وسط الجزيرة العربية.

والكتابات عن الحدثين المذكورين سابقاً كثيرة وبلغات مُتعدِّدة؛ سواء كان ذلك مُتمثِّلاً في دراسات منفردة أو ضمن أحاديث عن تاريخ الوطن بصفة عامة. على أن مما يلفت النظر - ولَعلَّ ذلك من باب المصادفة فحسب - أن الدراسة الأكاديمية المنفردة الرائدة عن كُلٍّ من الحدثين قد تَمَّت في الولايات المتحدة الأمريكية. فقد كانت أوَّل دراسة أكاديمية منفردة عن دعوة الشيخ محمد وأنصاره هي تلك كتبها جورج رنتز، ونال بها درجة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا بمدينة بيركلي عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، وعنوانها ما ترجمته العربية: محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢م) وبداية الامبراطورية التوحيدية في جزيرة العرب. وكانت أوَّل دراسة أكاديمية منفردة عن إمارة آل رشيد هي تلك التي كتبها مايكل بارون، ونال بها درجة الدكتوراه من جامعة ميتشجن عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م. وعنوانها ما ترجمته العربية: الإمارة الرشيدية. ولكلٍّ من هاتين الدراستين فضل السبق والرِّيادة في تناولهما ما تناولتاه بطريقة أكاديمية تَتَّسم بصفات البحث العلمي المتعارف عليها.

أما مؤلف الدراسة الأولى، جورج رنتز، فكان في فترة من حياته قد عمل في العلاقات العامة بشركة أرامكو. وله كتابات عديدة تتناول جزيرة العرب؛ تاريخياً وجغرافياً. ومن هذه الكتابات كتابته المُطوَّلة عن الجزيرة العربية، وكتابته عن إقليم العارض؛ وذلك في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية باللغة الإنجليزية. ومن آخر هذه الكتابات بحثه الذي ألقاه في الندوة الأولى لتاريخ الجزيرة العربية،

ونشرته جامعة الملك سعود عام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ضمن بحوث تلك الندوة (ج١، ص ص٢٥-٣٥). وعنوان ذلك البحث ما ترجمته العربية: فيلبي مُؤرِّخاً للمملكة العربية السعودية. وقد اعتمد في كتابته المذكورة سابقاً عن الشيخ محمد على المراجع العربية، التي كُتبت في عهد ذلك الشيخ أو بعده بقليل كابن غَنَّام وابن بشر. وجاءت كتابته وصفية لمجريات الأحداث مطابقة للواقع على العموم، ولكنها تحتاج إلى مزيد من التحليل والتعليل.

وأما دراسة مايكل بارون عن إمارة آل رشيد فكانت أوَّل دراسة أكاديمية منفردة عن تلك الإمارة حسب علم كاتب هذه السطور. وبالرَّغم مما في هذه الدراسة من عرض جَيِّد فإن من قام بها لم يستعمل رافدين مُهمَّين من روافد مصادر تلك الفترة التاريخية. أما الأوَّل فهو الوثائق العثمانية؛ سواء التي في الأرشيف العثماني نفسه أو التي في دار الوثائق المصرية. وأما الثاني فهو الشعر العامي أو ما يُسمَّى، أحياناً، الشعر النبطي. ومن المُرجَّح أنه لو استعمل هذين الرافدين من روافد المصادر لظهرت دراسته أكثر جودة.

وقد سبق بارون إلى دراسة علمية أكاديمية ذات صلة بآل رشيد - إلى حَدٍّ ما - باحث أمريكي آخر هو جون وليمسون، الذي حصل على الدكتوراه من جامعة إنديانا سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م بدراسة ترجمة عنوانها العربية: التاريخ السياسي لقبيلة شَمَّر الجَرْبا في الجزيرة (١٨٠٠-١٨٥٨م).

على أن أوَّل دراسة أكاديمية منشورة منفردة عن قيام إمارة آل رشيد كانت تلك التي قام بها كاتب هذه السطور؛ وعنوانها نشأة إمارة آل رشيد. وكان نشر الطبعة الأولى منها عن طريق جامعة الملك سعود عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. وكانت مكوَّنة من ١٢٧ صفحة، ثم طَوَّرها بعد أن لقي ما يُقدِّره ويُجلُّه من تشجيع كان من مظاهره إمداده بمعلومات مفيدة وملحوظات قَيِّمة في طليعتها تلك التي كانت من

طالبات الدراسات العليا وطلابها، وبعد أن اطَّلع على مزيد من المصادر؛ وبخاصة الوثائق، التي كان من أهمِّها تلك التي يعود الفضل الأكبر في جمعها ونشرها إلى الدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، رحمه الله، في مُجلَّدين: أحدهما نُشر عام ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، وثانيهما نُشر في العام الذي تلاه. وإضافة إلى ذلك ما وصل إليه من شعر عامي، أو نبطي، أكثر من ذي قبل. فكان أن ظهرت الطبعة الثانية من تلك الدراسة مُكوَّنة من ٢٧٧ صفحة؛ أي بزيادة ١٥٠ صفحة عن الطبعة الأولى.

وقد ذكرت في مُقدَّمة تلك الدراسة أن من أكبر عوامل تركيز اهتمامها على نشأة إمارة آل رشيد أن تلك النشأة لم تُدرَس دراسة تجيب عن كثير من الأسئلة بدرجة كبيرة، وأن تاريخ حياة مؤسسها قبل أن يصل إلى الإمارة، والطريقة التي وصل بها إليها، من أبرز الأمور التي ندرت عنها المعلومات، أحياناً، واختلفت حولها أقوال المصادر أحيانا أخرى.

وكان من الدراسات، التي تناولت إمارة آل رشيد بصورة منفردة بكل جوانبها أو بجانب من هذ الجوانب، دراسة قامت بها الباحثة مضاوي الرشيد، ونالت بها درجة الدكتوراه من جامعة كيمبرج البريطانية عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، وصدرت بالإنجليزية عام ١٩٩٠م. وترجمة عنوانها بالعربية السياسة في واحة عربية: الدولة الرشيدية القبلية، ثم ترجمها إلى العربية الأستاذ عبدالله النعيمي، وصدرت من دار الساقي، عام ١٩٩٨م، بعنوان السياسة في واحة عربية - إمارة آل رشيد، دون إيراد كلمة "القبلية" مع أهمِّية مدلولها. ومن تلك الدراسات دراسة قام بها الباحث محمد الزعارير، ونال بها درجة الماجستير من الجامعة الأردنية عام ١٩٩١م، ثم صدرت في كتاب من بيسان عام ١٩٩٧م. ومنها دراسة للدكتور محمد الثُّنَيان صدرت عام ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م بعنوان «عبدالعزيز بن رشيد والحماية البريطانية». وقد سبق أن تَحدَّثت عن هذه الدراسات الثلاث،

وأصدرت حديثي عنها ضمن كتاب مُكوَّن من ١٦٦ صفحة عنوانه قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد؛ وذلك عام ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- ٢ -

والعنوان الكامل للكتاب، الذي تتناوله هذه القراءة، هو: التاريخ السياسي لإمارة حائل: ١٨٣٥-١٩٢١م. وهو من تأليف الدكتور جَبَّار يحيى عُبَيد، وتقديم ومراجعة الأستاذ الكريم عبدالله بن محمد المنيف. وقد صدر عن الدار العربية للموسوعات عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. وأصل هذا الكتاب رسالة مُقدَّمة إلى كلية الآداب بجامعة بغداد؛ جزءاً من مُتطلبَّات درجة الماجستير في التاريخ الحديث عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م بإشراف الدكتور إبراهيم خلف العُبَيدي.

وكانت معرفتي بتلك الرسالة - الكتاب فيما بعد - قد تَمَّت في عام مناقشتها وإجازتها من اللجنة التي امتحنت كاتبها. وذلك بأن تكرَّم المشرف الفاضل عليها بإهداء نسخة منها إليَّ. وكان كاتبها قد اطلَّع على الطبعة الأولى من كتابي نشأة إمارة آل رشيد، الذي أصدرته - كما سبق أن ذكر في الحلقة الأولى - جامعة الملك سعود عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م؛ إذ قال في المُقدَّمة بعد حديثه عن المصادر:

"أما بالنسبة للمؤلفات الحديثة فيأتي كتاب ابن العثيمين نشأة إمارة آل رشيد في طليعة المراجع لكونه كشف كثيراً من الغموض الذي اكتنف نشأة الإمارة".

وكنت قد قرأت كتاب الدكتور جبَّار واتَّضح لي أنه:

١- لا يشير إلا نادراً إلى صفحات المصادر أو المراجع التي اعتمد عليها إذا كانت باللغة العربية.

٢- أنه إذا أشار إلى اختلاف المصادر في مسألة مُعيَّنة يورد تلك المصادر، لكنه لا يُحدِّد، في الغالب، من الذي قال بهذا ومن الذي قال بذاك.

٣- يخلط - في كثير من الأحيان - بين الحوادث، فيضع ما تَقدَّم بعد ما تَأخَّر منها.

٤- يعطي حكماً عاماً عن أوضاع إمارة آل رشيد معتمداً على مصدر تَحدَّث عنها في فترة مُعيَّنة دون أن ينتبه إلى تَغيُّر مساحتها من وقت إلى آخر، وتَغيُّر تلك الأوضاع نتيجة لذلك التغيُّر في المساحة.

٥- ينقل - فيما يظهر - عن الآخرين دون تَأمُّل فيما يحدث من تناقض بين ما يذكر في موضع وما يذكره في موضع آخر.

ويَتكوَّن كتاب الباحث جَبَّار عُبَيد - كما نشرته الدار العربية للمطبوعات - من ٢٦٣ صفحة مشتملة على تقديم ومراجعة بقلم الأستاذ الكريم عبدالله المنيف، فَمقدِّمة، ثم فصول خمسة، فخاتمة، ثم قائمة بالمصادر والمراجع. وسيقتصر الحديث في هذه الحلقة على ما ورد في التقديم للكتاب.

١- قال الأستاذ الكريم عبدالله المنيف في تقديمه للكتاب (ص٦): "هذه الدراسة، التي بين أيدينا، من الدراسات المبكرة التي تناولت التاريخ السياسي لإمارة حائل. وهي من الدراسات الجيدة، التي استفاد منها الباحث محمد عبدالله الزعارير، ولم يُشر إليها لا في بحثه ولا في قائمة مصادره لكتابه، الذي جاء بعنوان إمارة آل رشيد في حائل، ونُشِر عام ١٩٩٧م، وكان في أصله رسالة علمية".

أما القول بأن تلك الدراسة من الدراسات المبكرة في موضوعها فقول لا غبار عليه. وأما القول بجودتها فقول له احترامه، والقارئ لهذه الدراسة يمكن أن يحكم على ذلك. ومما يحسب نقطة إيجابية لها أنها كانت، في الأصل، رسالة مكملة لمتطلبات الماجستير أجيزت من لجنة علمية في جامعة لها مكانتها الرفيعة. والقول بأن الباحث الزعارير لم يشر إليها في بحثه ولا في قائمة مصادره قول

صحيح. على أن القول بأنه استفاد من بحث جَبَّار عُبَيد قول يحتاج إلى تَأَمُّل دقيق ليت الأستاذ الكريم عبدالله قام به.

كان كتاب الزعارير، في الأصل، دراسة قُدِّمت إلى كلية الآداب في الجامعة الأردنية؛ جزءاً من مُتطلَّبات الماجستير، بإشراف الدكتور عبدالكريم غرايبة. وقد نُوقشت، وأجيزت عام ١٩٩١م، ثم صدرت كتاباً عن طريق بيسان عام ١٩٩٧م. وبذلكَ يَتبيَّن أن إجازة عمل الزعارير؛ جزءاً مكملاً لنيل الماجستير، قد تَمَّت قبل اثنتي عشرة سنة من نشر عمل جَبَّار عُبَيد، وأن نشر تلك الرسالة كتاباً قد تَمَّ قبل ست سنوات من نشر عمل جَبَّار عُبَيد أيضاً.

والمُتأمِّل في كتابة الزعارير يرى أنه لم يَتردَّد في الإشارة إلى دراسات اطَّلع عليها وأفاد منها. ومن ذلك إشارته إلى دراسة العثيمين بقوله (ص١٩):

"وحول الدراسات الحديثة، التي استفاد منها الباحث، كان من أبرزها دراسة الدكتور عبد الله الصالح العثيمين حول نشأة إمارة آل رشيد، التي اعتبرت من أهم الدراسات المتخصصة التي ألقت الضوء على الظروف التي نشأت فيها أسرة آل رشيد، والأركان التي أقام عليها عبدالله بن رشيد إمارته".

٢- قال الأستاذ الكريم عبدالله المنيف في تقديمه لكتاب جَبَّار عُبَيد (ص٦):

"يجد القارئ أنه عند نشر هذا العمل على هيئة كتاب قام الباحث بالنظر فيه مرة أخرى راغباً تلافي الأخطاء وتصحيحها لتكون الاستفادة منه كبيرة فاطَّلع على مصادر نُشرت بعد تاريخ مناقشة الرسالة سوف يجدها القارئ في قائمة المصادر والمراجع".

أما كاتب البحث الكريم نفسه، جَبَّار عُبَيد، فلم يذكر في مُقدَّمة كتابه المنشور أنه "قام بالنظر فيه مرة أخرى"؛ أي في العمل الذي قام به؛ وهو الرسالة التي قَدَّمها إلى كلية الآداب بجامعة بغداد، والتي ما زلت أحتفظ بنسخة منها لحسن

الحظ. على أن الكتاب - بصورته التي نُشر بها - أساء كثيراً إلى البحث نفسه، كما سيشار إلى شيء من تلك الإساءة فيما بعد.

وأما القول بأن الباحث قد أضاف إلى قائمة مصادره ومراجعه ما يشير إلى اطّلاعه على مصادر نُشرت بعد تاريخ مناقشة الرسالة فهو قول يحتاج إلى تدقيق. فالباحث أضاف إلى تلك القائمة عملين فقط الأول تاريخ الفاخري بتحقيق الدكتور عبدالله الشبل؛ قائلاً عنه: إنه طُبع أول مرة عام ١٤١٩هـ. والصحيح أن هذا الكتاب سبق أن نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٣٩٩هـ، بعنوان الأخبار النجدية، ثم أعاد مُحقِّقه الكريم تَحقيقه وعَدَّل عنوانه، وطُبع سنة ١٤١٩هـ؛ أي بعد عشرين عاماً من نشره أوَّل مرة. والعمل الثاني كتاب الزعارير إمارة آل رشيد. أما تاريخ الفاخري فقد سبق أن أشار إليه الباحث عُبَيد في أحد هوامش الرسالة (ص٥٠)؛ نقلاً عن كتاب العثيمين وإن لم يورده في قائمة مصادر تلك الرسالة. وقد ذكره في هامش الكتاب المنشور مرتين في هامش صفحة ٦١ . أما في الأولى فلم يضف جديداً على ما في المتن؛ إذ بقيت العبارة كما هي في الرسالة دون تغيير أو تعديل. فهي في الرسالة معتمد فيها على الفاخري عبر كتاب العثيمين، وفي الكتاب المنشور معتمد فيها على الفاخري مباشرة. وأما في الثانية فقد أقحم اسم الفاخري في المتن إقحاماً لم يلتفت إلى أثره في العبارة. فكانت العبارة في الرسالة:

"واختلفت المصادر في تحديد وفاته (أي وفاة عبدالله بن رشيد). وأقرب الروايات إلى الدِّقة رواية ابن بشر والمُؤرِّخة في يوم الجمعة من شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م لكونه أقرب من المصادر الأخرى إلى معايشة تاريخ المنطقة".

لكنه في الكتاب المنشور أقحم اسم الفاخري بعد اسم ابن بشر، وهنا أمران: الأول أن كلمة "لكونه" بقيت في العبارة كما هي في الرسالة مع أن إقحام اسم

الفاخري يقتضي ان تُعدَّل إلى "لكونهما"، والأمر الثاني؛ وهو الأهمُّ، أن إيراد اسم الفاخري في المتن والهامش يعني أنه حدَّد يوم وفاة ابن رشيد من الأسبوع كما حَدَّد الشهر؛ تَماماً كما فعل ابن بشر. ومن يرجع إلى الفاخري يجد أنه لم يُحدِّد يوماً كما لم يُحدِّد شهراً لتلك الوفاة.

وماذا عن العمل الثاني؛ وهو كتاب الزعارير؟

لقد أشار الباحث عُبَيد إلى كتاب الزعارير في ثلاثة هوامش؛ مضافاً إلى مصادر ومراجع أخرى. غير أن عبارة المتن في الكتاب المنشور لم يدخل عليها أيُّ تغيير أو تعديل عما كانت عليه في الرسالة بحيث يمكن أن يقال: إن إضافة اسم كتاب الزعارير إلى تلك المصادر والمراجع قد أتت بجديد في الموضوع.

وإذا كان الباحث عُبَيد قد أضاف إلى قائمة مصادر الكتاب ومراجعه تاريخ الفاخري، الذي سبق أن أشار إليه في هامش الرسالة أيضاً عبر كتاب العثيمين، وكتاب الزعارير، الذي أشار إليه في عدَّة هوامش دون أن يكون لذلك أثر في عبارة المتن فإنه أسقط – مع الأسف الشَديد – من قائمة المصادر والمراجع في الكتاب المنشور ثلاثة عشر عملاً؛ مصادر ومراجع، كَوَّنت صفحة كاملة هي صفحة ٢٥٤ من الرسالة. ومن هذه الأعمال ما هو مُهمٌّ رجع إليه مراراً في الهوامش. على أن الأسوأ من ذلك هو عدم وجود أكثر أرقام الصفحات في الكتاب المنشور بالنسبة إلى الأعمال التي ذكر الرجوع إليها في الهوامش؛ وبخاصة الأعمال التي هي بالعربية، مع أن تلك الأرقام موجودة في الرسالة قبل نشرها كتاباً. ومما يلفت النظر أنه قد حُذف من الكتاب المنشور ثلاثة ملاحق مُكوِّنة ثلاث خرائط موجودة في أصل الرسالة.

وبذلك يَتبيَّن أن كتاب الباحث جَبَّار عُبَيد التاريخ السياسي لإمارة حائل يكاد يكون رسالته نفسها، التي قَدَّمها إلى جامعة بغداد إلا بتغيير طفيف لا يَمَس

جوهرها، وأن هذا الكتاب - بالصورة التي نُشِر بها - قد أساء إلى البحث إساءة كان من المُؤمَّل عدم حدوثها.

- ٣ -

أما الأخطاء اللغوية، أو المطبعية، فليست كثيرة، وبعضها كانت موجودة في الرسالة، لكن منها ما لم ترد خطأ إلا في الكتاب بعد نشره. ومن ذلك أن السطر الأول من المُقدَّمة (ص٧) أتى: "تشكل دراسة التاريخ السياسي لإمارة حائل، محاول (وصحتها محاولة) لكشف الغموض . . . "وكانت قد وردت صحيحة في الرسالة. ووردت الإشارة إلى مجلة الدارة (ص١٥، هـ٣): "السنة الثانية". وصحتها: السنة الثامنة. وقد وردت في الرسالة صحيحة.

وقد تَحدَّث الباحث الكريم، جَبَّار عُبَيد، في مُقدَّمة كتابه (الرسالة أصلاً) عن تقسيمه لفصوله، وعن المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في كتابة بحثه. ثم أعقب المُقدَّمة بتمهيد عن موقع إمارة حائل وأهمِّيته وعن السكان وأهمِّ المدن التابعة لحائل؛ بادئاً ذلك بسبب تسمية حائل بهذا الاسم.

وكان العنوان لذلك في الرسالة هكذا: "التمهيد" وتحته عناوين فرعية هي: التسمية - موقع إمارة حائل وأهمِّيته - السكان - أهمُّ المدن التابعة لحائل. فأصبح في الكتاب المنشور: "موقع إمارة حائل وأهمِّيته - السكان وأهم المدن التابعة لحائل". وهكذا حُذفت كلمة "التسمية"، التي هي أحد هذه العناوين. ومع ذلك فإن الحديث - بعد العَنوان - في الكتاب أتى وفق ما هو في الرسالة؛ أي التسمية، فالموقع وأهمِّيته، فالسكان، ثم أهمّ المدن. وبذلك يَتبيَّن أن ما هو في الرسالة أصح.

وفي ذلك التمهيد المُكوَّن من ١٦ صفحة لم تذكر أرقام صفحات أكثر من خمسين مصدراً أو مرجعاً أشير إليها في الهوامش في حين أن تلك الأرقام مذكورة في الرسالة، التي هي أصل الكتاب.

أما الفصل الأول من الكتاب فعنوانه: "نشوء الإمارة واتِّساعها". وتحت هذا العنوان عناوين فرعية هي: الظروف السياسية - دور عبدالله بن علي الرشيد في تأسيس الإمارة - تأسيس الإمارة - الأسرة الحاكمة.

ولقد قال المؤلف (ص٣٥):

"واصل السعوديون تَوسُّعهم بقوة السلاح حتى خضعت نجد والأحساء لنفوذهم، ثم اتَّجهوا شمالاً حتى الأراضي العراقية. ويبدو أن هذا التوسع وما صحبه من مخاطر لم يثر الدولة العثمانية بالشكل الذي يدعوها إلى الرَّد عليها بتجهيز الحملات إلا بعد أن دخل السعوديون الأماكن المقدسة في الحجاز".

والقول: إن اتِّساع الحكم السعودي قد تَمَّ بقوة السلاح قول فيه تجاوز وتعميم. ذلك أن من البلدان النجدية ما دخل تحت ذلك الحكم طوعاً واختياراً. ومن تلك البلدان ما كان زعماؤها قد بدؤوا العدوان على المناطق التي تحت حكم آل سعود، فاستعمال هؤلاء السلاح ضدها كان رَدَّ فعل على ذلك العدوان. والقارئ للتاريخ السعودي قراءة تَأمُّل يدرك أن غزو آل سعود للأحساء كان بمثابة رَدَّ فعل على عدوان قادة تلك المنطقة المُتكرِّر وغزواتهم ضد الأراضي السعودية في نجد، وقد تناولت ذلك بنوع من التفصيل في الجزء الأول من <u>تاريخ المملكة العربية السعودية</u>، ط ١٥، ص ص ١٢٥-١٣٢. والقول: إن اتِّساع الحكم السعودي"، أو كما وصفه المؤلف بالتوسُّع، "لم يثر الدولة العثمانية بالشكل الذي يدعوها إلى الرَّد عليه بتجهيز الحملات إلا بعد أن دخل السعوديون الأماكن المقدسة في الحجاز" قول لا يَتَّفق مع الواقع التاريخي. فأشراف مكة التابعون للدولة العثمانية قد ناصبوا الدولة السعودية العداء من بداية حكم هذه الدولة؛ وذلك بتكفيرهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومنع أتباعه من أداء الحج أكثر من خمسين عاماً باستثناء عامين من تلك الأعوام، وبدؤوا يحاربونها عسكرياً من عام ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م. ولما هُزِموا في معركة الجَمَّانية، عام ١٢١٠هـ؛ إضافة إلى

نجاح آل سعود في إدخال منطقة الأحساء والقطيف تحت حكمهم عام ١٢٠٨هـ بحيث أصبح حكمهم متاخماً لولاية العراق العثمانية، بدأ العثمانيون بحربهم؛ وذلك بإرسال حملة ضدهم بقيادة ثُوَيني بن عبدالله زعيم المُنتفق عند نهاية عام ١٢١١هـ، لكن قائد تلك الحملة قُتل قبل التحام الطرفين في بداية العام التالي، ففشلت الحملة وعادت إدراجها إلى العراق.

ثم أرسل والي العراق حملة أخرى ضد الأراضي السعودية بقيادة نائبه عام ١٢١٣هـ، فوصلت إلى الأحساء، وحاصرت حصونها، لكنها هي الأخرى فشلت، فعادت أدراجها إلى العراق. أما دخول الأماكن المقدسة في الحجاز تحت الحكم السعودي فكانت بدايته في عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م، ثم اكتمل في نهاية عام ١٢٢٠هـ. وبذلك يَتبيَّن أن الدولة العثمانية قد أرسلت حملتين من العراق ضد الأراضي السعودية؛ إضافة إلى غزوات واليها على مكة ضد تلك الأراضي، قبل دخول الأماكن المقدسة في الحجاز تحت الحكم السعودي. وقد تَحدَّثت عن ذلك بنوع من التفصيل في الجزء الأول من تاريخ المملكة المشار إليه سابقا (ص ص ١٣٢-١٤٨ و١٦٥-١٧٨).

- قال الباحث جَبَّار عُبَيد (ص ٥٧): "مَدَّ (عبدالله بن رشيد) سيطرته على بلاد القصيم سنة ١٨٤١م، حيث وقعت معركة عنيفة بين ابن رشيد من جهة وأهل القصيم وحلفائهم من قبيلة عنزة من جهة أخرى، وعُرِفت باسم معركة بقعا".

والواقع أن أهل القصيم، بقيادة عبدالعزيز بن محمد آل أبو عليان أمير بُرَيْدة وتوابعها ويحيى بن سُلَيْم أمير عُنَيزة؛ إضافة إلى فئة من عنزة قد قاموا بغزو إلى جهات جبل شَمَّر، فحدثت بينهم وبين ابن رشيد وأتباعه معركة بقعاء، عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م، حيث هُزموا هزيمة كبيرة، وقُتل يحيى بن سُلَيْم صبراً بعد مجيئه إلى ابن رشيد إثر نهاية تلك المعركة. على أن المعركة لم تؤدِّ إلى سيطرة

عبدالله بن رشيد على القصيم كما ذكر الباحث عُبَيد. بل إن القصيم لم تدخل تحت حكم آل رشيد إلا بعد هزيمة أهلها في معركة المُلَيْداء أمام الأمير محمد بن رشيد عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م.

- قال الباحث جَبَّار عُبَيد (ص٥٨): "كانت زكاة إمارته (أي إمارة عبدالله بن رشيد) تُنفَق في داخلها ولا يرسل منها شيئاً إلى الرياض"، غير أنه ذكر (ص٢٢٧) أن الملك عبدالعزيز طالب آل رشيد - بعد مقتل الأمير عبدالعزيز بن متعب - بدفع مُتأخِّر الزكاة التي كان يدفعها أمير حائل للرياض سابقاً. ومن المُؤكَّد أن المراد بهذا الأمير لم يكن محمد بن عبد الله ولا عبدالعزيز بن متعب. ولذلك فإنه يبدو وجود تناقض بين ما ذُكِر في الموضعين المذكورين. ولقد ناقش العثيمين هذه القضية بنوع من التفصيل في كتابه نشأة إمارة آل رشيد، ص ص٢٢٨ - ٢٣١، وخلص - في ضوء مقارنة المصادر المختلفة - إلى أن الأمير عبدالله بن رشيد كان - على الأرجح - يحتفظ بزكاة البلاد التابعة لإمارته، أو على الأقل كان يحتفظ بجزء كبير منها. لكنه كان يرسل إلى الإمام فيصل هدايا قَيِّمة، في مُقدَّمتها الخيول الأصيلة والإبل النجدية.

- قال الباحث عُبَيد (ص ٦٣، هـ ٦): "ذكرت بعض المصادر أن وفاة طلال ابن رشيد كانت ١١ آذار ١٨٦٨م، والبعض الآخر حَدَّدها في ١٨٦٦م، والآخر في ١٨٦٥م. ونرى أن التاريخ هو صفر ١٢٨٣هـ، ١١ آذار ١٨٦٦م هو أقرب إلى الصحة لإجماع المصادر الأخرى عليه".

وبِغَضِّ النَّظر عما في الفقرة السابقة من ركاكة السبك فإن مما يؤخذ عليها:

١ - عدم تَواؤم العبارة، إذ ما دام هناك خلاف بين المصادر المذكورة فالإجماع غير موجود.

٢- ذكر المؤلف ستة مصادر دون أن يوضح أيّها أخذ بأحد تلك الآراء الثلاثة المشار إليها.

٣- ذكر أن وفاة طلال كانت في صفر سنة ١٢٨٣هـ، وحدَّده بالتاريخ الميلادي باليوم الحادي عشر من آذار عام ١٨٦٦م. ومن المعلوم أن عام ١٢٨٣هـ لا يبدأ إلا في السادس عشر من أيار/ مايو عام ١٨٦٦م. فبداية صفر لا بد أنها كانت في حزيران/ يونيو، لا في آذار. أما في الرسالة فلم يذكر التاريخ الهجري. ولذلك لم يحدث في عبارتها ما حدث في عبارة الكتاب المنشور من خطأ.

وجدير بالذكر أن الزعارير جعل نهاية عهد طلال في صفر سنة ١٢٨٣هـ/ ١١ آذار ١٨٦٦م. ومقابلة التاريخ الميلادي بالهجري خطأ، كما ذكر سابقاً، فهل قَلَّد عُبَيد في الكتاب المنشور الزعارير دون تَدبُّر، فوقع في خطأ لم يحدث منه في الرسالة، التي لم يذكر فيها التاريخ الهجري؟

- ٤ -

- قال الباحث جَبَّار عُبَيد (ص٦٦): "استطاع الأمير محمد بن رشيد استغلال الفراغ السياسي، الذي تركه الانسحاب المصري من نجد واستغلال الظروف الناجمة عن القتال بين أفراد الأسرة السعودية وسيطرة الدولة العثمانية على الأحساء في تحقيق طموحاته والسيطرة على شرق ووسط الجزيرة العربية".

ومن المعروف أن الانسحاب المصري من نجد قد تَمَّ عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م نتيجة لقرار مؤتمر لندن عام ١٨٤٠م. وكان ذلك في حياة الأمير عبدالله بن رشيد المُتوفَى سنة ١٢٦٣هـ. ومن المعروف، أيضاً، أن الأمير محمد بن رشيد لم يَتولَّ الإمارة إلا في عام ١٢٨٩هـ؛ أي بعد ثلاثين عاماً من الانسحاب المذكور، وأنه لم

يسيطر على شرق الجزيرة العربية؛ بل إن شرقها عند تَولِّيه الإمارة وحتى عام ١٣٣١هـ كان تحت حكم الدولة العثمانية. ولقد قال المؤلف نفسه في العبارة نفسها: إن تلك الدولة كانت مسيطرة على الأحساء. فكيف يقال: سيطرة محمد ابن رشيد على شرق ووسط الجزيرة العربية؟

وعنوان الفصل الثاني من كتاب الباحث جَبَّار عُبَيد "السياسة الداخلية للإمارة". ويَتكوَّن من محورين: الأول طبيعة الحكم، والثاني الشؤون الداخلية. ويَتضمَّن المحور الثاني أربعة أمور: القضاء، والنظام المالي، والجيش، والأوضاع الاقتصادية.

- ومما قاله المؤلف في حديثه عن طبيعة الحكم (ص ٨٤): "واختلفت إمارة حائل في طبيعة حكمها عن الإمارات المجاورة كإمارة آل سعود مثلاً في كونها فصلت الجانب الديني على الجانب السياسي، وبالتالي فهي ذات طبيعة قبلية وليس دينية".

ومن الواضح ما في الفقرة السابقة من ضعف لغوي؛ إذ الأصح عن الجانب السياسي، لا على الجانب السياسي. والواقع أن حكم آل سعود كان مبنياً على أساس ديني، وأن إمارة آل رشيد كانت مبنية على أساس قَبَلي إقليمي.

- في حديث المؤلف عن القضاء قال (ص ٨٦): "كان الأمير يعقد مجلس القضاء مرتين في النهار. وقد رأى فالين مئتي شخص وفدوا من مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية على عبدالله بن رشيد حتى يعرضوا عليهم (والصحيح عليه. وقد وردت صحيحة في الرسالة) دعاواهم مما يَدلُّ على علو كعبه في مجال القضاء".

ومن المعلوم أن كلمة القضاء إذا أُطلقت في بلد إسلامي مثل نجد فإن المراد بها ما يقوم به القاضي الشرعي المؤهل فَقهياً، وليس ما يَتلقَّاه الأمير من شكاوى أتباعه. فكون الناس يرفعون شكاواهم إلى الأمير شيء، وإجراء القضاء الشرعي

شيء آخر. وكان في حائل - زمن الأمير عبدالله بن رشيد - عالم شريعة يعمل قاضياً بين الناس. وكان يُعيَّن من الحكومة المركزية في الرياض. وكان القضاة في زمن ذلك الأمير: سُلَيْمان بن عُبَيد، وأخوه محمد، وعبدالعزيز بن عبدالجَبَّار، ومحمد بن يوسف.

- قال المؤلف (ص ص٨٦-٨٧): "كل ما نعرفه عن هذا الجهاز - أي جهاز القضاء - أن الأمير هو الذي يُعيِّن القاضي في منصبه بعد أن يَتلقَّى علومه في إحدى المدن الكبيرة المجاورة للإمارة خارج الجزيرة العربية كالقاهرة، أو داخل الجزيرة العربية كالمدينة المنورة والرياض".

ومما يُؤخَذ على الكلام السابق أن القاهرة ليست من المدن المجاورة لإمارة حائل. والذين تَولَّوا القضاء في عهد عبدالله بن رشيد عُيِّنوا من الحكومة المركزية في الرياض - كما سبق أن ذكر - ولم يكونوا، أصلاً، من بلدة حائل (انظر علي الهندي زهر الخمائل[1]، ص ص٨٠-٨١). وكانت دراستهم في نجد.

أما الفصل الثالث من كتاب الباحث جَبَّار عُبَيد فعنوانه: "العلاقات مع الأقطار العربية". وتَتكوَّن تلك الأقطار من ثلاثة هي الكويت، والحجاز، وقطر.

- في حديث المؤلف عن علاقة إمارة حائل بالكويت قال (ص١١٦):

"استطاع مبارك بقواته النجدية دخول مدينة بُرَيْدة وعُنَيزة، وواصل تَقدُّمه حتى وصل قرية الطَّرفيَّة على بعد ٢٠ ميلاً عن بُرَيْدة، وجعلها قاعدة لجيشه. وكان كلما مَرَّ بمنطقة استمال إليه أهلها".

والواقع أن مبارك بن صباح لم يدخل مدينة بُرَيْدة ولا مدينة عُنَيزة؛ بل الذين دخلوهما حلفاؤه من آل مُهنَّا أبا الخيل وآل سُلَيْم. فآل مُهنَّا دخلوا بُرَيْدة وآل

(١) زهرة الخمائل في تراجم علماء حائل، جدة ١٣٨٠هـ.

سُلَيْم دخلوا عُنَيزة، ثم انسحب هؤلاء وأولئك من المدينتين بعد العلم بهزيمة مبارك الساحقة في الطّرفيَّة، أو الصَّريف كما تُسمَّى في المصادر أحياناً.

- قال المؤلف (ص ص ١٧٨-١٧٩): "دخلت القوات العثمانية مجتمعة إلى جانب قوات ابن رشيد في معركة فاصلة ضد القوات السعودية في فجر الخامس عشر من تموز ١٩٠٤م بجوار قرية البُكَيرية . . وتَشتَّتت القوات السعودية في بداية المعركة على أثر القصف المدفعي العثماني عليها وإصابة قائدها الملك عبدالعزيز آل سعود، في يده اليسرى، وأُشيع عن مقتله أو أسره في المعركة مما كان له الأثر على معنويات أتباعه، وفرارهم من ساحة المعركة دون هدف، ولكن ابن سعود أدرك هذه الكارثة في جنده، فرجع مرة أخرى لجمع قواته. وقد عَبَّر السلطان العثماني عن فرحته بهذا الانتصار بمنح المشاركين في هذه المعركة ميداليات فضية. أما ضباطهم فَمُنحوا ميداليات ذهبية".

وما حدث في المعركة البُكَيرية جدير بأن يُتحدَّث عنه بنوع من التوضيح. وكان كاتب هذه السطور ممن تَحدَّثوا عنه بالتفصيل؛ سواء في الجزء الثاني من تاريخ المملكة العربية السعودية، ج٢، ط٨، ١٤٢٧هـ، ص ص٨٣-٩١، أو في كتابه معارك الملك عبدالعزيز المشهورة لتوحيد البلاد، ط ٣، الرياض١٤١٩هـ، ص ص٨٩-٩٥ . وملخص ما حدث كان كما يأتي:

زحف الأمير عبدالعزيز بن رشيد بأتباعه ومعه القوة العثمانية إلى القصيم حتى وصل إلى الشِّيحيَّة المجاورة لبلدة البُكَيرية. أما الملك عبدالعزيز فأرسل إلى أتباعه لموافاته بالمقاتلين حتى اجتمع لديه منهم عدة آلاف. فخرج من بُرَيْدة ونزل البُصْر، ثم ارتحل إلى البُكَيرية محاولاً أن يمنع خصمه من دخولها. وما إن وصل إلى البلدة في منتصف نهار آخر يوم من ربيع الآخر عام ١٣٢٢هـ (١٢/ ٧/ ١٩٠٤م) حتى رأى ابن رشيد مستعداً لقتاله. ويبدو أن الملك قسم أتباعه إلى قسمين:

الأول كانوا مقاتلي الأقاليم النجدية الواقعة جنوب القصيم والثاني كانوا أهل القصيم. ومع هؤلاء وأولئك أقوام من البادية. وقد ركَّز ابن رشيد هجومه ونيران مدافعه على القسم الأول حتى أُنهك هذا القسم؛ ولا سيما من نيران المدافع، فبدؤوا ينهزمون، واقتفى أثرهم قوم ابن رشيد، لكن أهل القصيم أحرزوا تَقدُّماً كبيراً على من كانوا أمامهم من جيش ابن رشيد، وهزموهم، وفي تَعقُّبهم للمنهزمين وصلوا إلى أولئك الذين كانوا في ساقة المنهزمين من أتباع الملك عبدالعزيز، فَظنَّ أولئك المُتعقِّبون أن الملك لم ينهزم؛ بل عمل التفافاً، فانهزموا، أيضاً، أمام أهل القصيم. وهكذا كانت نتيجة البُكَيرية غريبة؛ إذ انهزم فيها قسم من أتباع الملك عبدالعزيز بقيادته، وانتصر قسم آخر من أولئك الأتباع، ورجحت كفة جيش ابن رشيد في بداية المعركة بدرجة كبيرة، لكنه انهزم في نهايتها. وكان أغلب قتلى من كانوا مع ابن رشيد من الجنود النظاميين؛ وذلك لأن فرسانه من الحاضرة والبادية تَمكَّنوا من الهروب أمام نيران بنادق أهل القصيم أسرع من أولئك الجنود.

قراءة في كتابة الدكتور إبراهيم عبد العال

وعنوانها:

بريطانيا والصراع العربي/ العربي خلال الربع الأول من القرن العشرين

"ابن سعود والشريف حسين بن علي[(1)]"

-١-

أولاً: ملحوظة عامة:

هذا الموضوع سبق أن تناولته بحوث وكتابات جيدة، وله مصادر مُهِمَّة كثيرة. ومن تلك البحوث والكتابات والمصادر:

- كتاب طالب وهيم، الذي أصدره مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة عام ١٩٨٢م بعنوان: مملكة الحجاز (١٩١٦-١٩٢٥): دراسة في الأوضاع السياسية، ص ص٤٦-٧٤، ١٤٧ - ٤٤٥.
- بحث ترولر المنشور في المجلة التاريخية العالمية سنة ١٩٧١م بعنوان ترجمته: "ابن سعود والشريف حسين: مقارنة في الأهمِّية خلال السنوات المُبكِّرة من الحرب العالمية الأولى"، ص ص٦٢٧ - ٦٣٣.
- كتاب هيفاء العنقري، الذي طُبِع في بيروت عام ١٩٩٨م، وترجمة عنوانه: الصراع من أجل السلطة في شبه الجزيرة العربية: ابن سعود والحسين وبريطانيا العظمى ١٩١٤ - ١٩٢٤م.
- كتاب فاسيلييف تاريخ العربية السعودية، الذي صدر مُترجَماً في موسكو

---

(١) نُشرت تلك الكتابة في العدد ١٠٥ (مُحرَّم - صفر - ربيع الأول ١٤٢٣هـ) من مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. أما القراءة لها، فنُشِرت في صحيفة الجزيرة في حلقتين أسبوعيتين أولاهما بتاريخ ٢٢/٣/١٤٢٣هـ.

عام ١٩٨٦م؛ وبخاصة الفصل العاشر منه الذي عنوانه: "نجد والحجاز إبَّان الحرب العالمية الأولى." والفصل الحادي عشر الذي تحدَّث فيه عن دخول الحجاز تحت الحكم السعودي.

- كتابة تركي بن سعود "علاقة بريطانيا بالملك عبد العزيز ١٩٠٢-١٩٢٥م" الدارة، رجب ١٤٠٦هـ، ص ص ٣٨ - ٥٢ .

- كتابة خالد السعدون "المفاوضات التي أدَّت إلى عقد معاهدة سنة ١٩١٥م بين عبد العزيز بن سعود وبريطانيا"، الدارة، رمضان ١٤١٠هـ، ص ص١٥٠ - ١٧٥ .

- كتاب سليمان موسى صفحات مطوية: مفاوضات المعاهدة بين الشريف حسين وبريطانيا ١٩٢٠ - ١٩٢٤م، الذي صدر في الأردن عام ١٩٧٧م، وكتابه الحركة العربية ١٩٠٨- ١٩٢٤م، الذي صدر عام ١٩٧٠م.

- كتاب أمين سعيد أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، وكتابه الثورة العربية الكبرى.

- كتاب الزركلي شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز، الذي صدر عام ١٩٧٠م.

- كتاب أحمد السباعي تاريخ مكة، الذي صدر عام ١٣٨٥هـ.

- كتاب أنيس صائغ الهاشميون والثورة العربية الكبرى، الذي صدر في بيروت عام ١٩٦٦م، وكتابه الهاشميون وقضية فلسطين، الذي صدر في بيروت عام ١٩٦٦م.

- كتاب جولدبيرج السياسة الخارجية للدولة السعودية الثالثة ١٩٠٢- ١٩١٨م وهو رسالة دكتوراه عُملت في جامعة هارفرد سنة ١٩٧٨م.

- الوثائق الهاشمية؛ وبخاصة المجلد السابع الصادر في الأردن عام ١٩٩٦م.

- الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين، الصادر في بيروت عام ١٩٧٢م.
- جريدة القبلة التي كانت تصدر في مكة في عهد الحسين بن علي.
- كتابة فيلبي بعثة إلى نجد ١٩١٧ - ١٩١٨م، التي قَدَّم لها تاريخياً وترجمها وعَلَّق عليها كاتب هذه السطور، وصدرت الطبعة الثانية منها في الرياض عام ١٩٩٨م.

ومما يلفت النظر أن الدكتور إبراهيم عبدالعال بينما لم يرجع إلى تلك الدراسات والكتابات المُتخصِّصة والمصادر المُهمَّة اعتمد، أحياناً، - في مسائل تحتاج إلى اعتماد على مصادر أصلية - على كتابات هي بمثابة المراجع العامة؛ مثل كتاب أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي، وكتاب زاهية قدورة تاريخ العرب الحديث، وكتاب جلال يحيى العالم العربي الحديث والمعاصر.

ثانياً: ملحوظات تفصيلية:

ذكر الدكتور إبراهيم في ملخص الدراسة أن البحث يدور حول ثلاثة محاور، الأول علاقة ابن سعود ببريطانيا قبيل الحرب العالمية الأولى وإبَّانها، والثاني علاقة الشريف حسين ببريطانيا قبيل تلك الحرب وإبَّانها، والثالث الدور البريطاني في الصراع بين ابن سعود والحسين بعد الحرب.

ومن الواضح أن الدكتور إبراهيم قد اتَّخذ موقفاً مُعيَّناً من ابن سعود يَتَّضح في قوله (ص ١٥٠): "تَمكَّن ابن سعود من القضاء على الحسين وملكه مُؤدِّياً بذلك خدمة جليلة لبريطانيا التي كافأته على ذلك بمكافآت ما كان يحصل عليها لولا هذه الخدمة العظيمة لسياسة المستعمر البريطاني في بلاد العرب"، وفي قوله (ص١٥٢): "وأخيراً يُركِّز البحث على موقف الزعامة السعودية بصفة خاصة من الدور البريطاني المشين، الذي استخدمها كأداة للقضاء على الزعامة الأخرى (حكم الحسين بن علي). وينظر البحث نظرة مختلفة عن معظم الكتابات التي

بهرتها نجاحات ابن سعود دون أن تلتفت إلى الثمن الذي دفعه العرب جميعاً بسبب طموحاته لاسترداد ملك أسرته مُحمِّلة إيَّاه جزءاً كبيراً من المسؤولية في الخسارة العربية التي لم يستطع العرب تعويضها إلى اليوم» .

ويفهم من كلام الدكتور إبراهيم أن قضاء ابن سعود على ملك الحسين كان خدمة عظيمة لسياسة بريطانيا الاستعمارية نتج عنه مكافأته بما لم يكن ليحصل عليه لولا قيامه بها . والواقع أن تلك الدولة - بعد أن أدركت ما سعت إليه من تعاون الملك الحسين معها - لم تعد مهتمة بالدفاع عنه أمام من لم يُوفَّق هو نفسه بتحدِّيه ؛ وهو الملك عبد العزيز . على أن من المعروف أن بريطانيا قد طَوَّقت حكم عبد العزيز بتعيين اثنين من أبناء الحسين على حدود بلاده أحدهما في العراق والثاني في الأردن . ومما يلفت النظر أن الدكتور إبراهيم نفسه قال (ص١٧٦ -١٧٧) :

« إن ابن سعود أظهر اعتراضه فقط على تَلقُّب الحسين بملك البلاد العربية ، وإنه عَبَّر عن تبجيله له ، وهَنَّأه باستيلاء ابنه عبد الله على المدينة . غير أن الحسين أعطى الفرصة لأمير نجد حين شرع في الاستيلاء على الخُرْمة التي عَدَّها هذا الأمير داخلة في نطاق الأراضي التابعة لأجداده ؛ وغالبية سكانها من الوهابيين . . وكانت محاولة الحسين احتلال الخُرْمة مظهراً من مظاهر مبالغته في قوته ، فقد اعتقد أن نجاحه في المدينة بداية لاستيلائه على الجزيرة العربية كلها» .

ثم قال الدكتور إبراهيم : « إن بريطانيا لم تكبح جماح الحسين وتمنعه من مهاجمة أراضٍ تابعة لأمير نجد . وحينما صَمَّم هذا الأمير على حقوقه في الخُرْمة حاولت أن تثنيه عَن رَدِّ الهجوم الحسيني عن أراضٍ عدَّها داخلة في نطاق حكمه» .

وبعد الكلام السابق ألا يحق للمرء أن يسأل من الذي بدأ بإثارة الآخر؟ أكان الحسين أم ابن سعود؟ وإضافة إلى هذا فإن المعروف أن الحسين قد منع أتباع ابن سعود سنوات من أداء الحج قبل بدء الصراع المُسلَّح بينهما على الحجاز .

ومما يلفت النظر أن الدكتور إبراهيم أشار إلى أن معظم الكتابات التي بهرتها

نجاحات ابن سعود، لم تلتفت إلى الثمن الذي دفعه العرب جميعاً لاسترداد ملك أسرته. ولنفترض أن كلام الدكتور الكريم، هنا، صحيح. فكيف ينسجم مع ما يليه مباشرة؛ وهو: "مُحمِّلة إيَّاه جزءاً كبيراً من المسؤولية في الخسارة العربية التي لم يستطع العرب تعويضها إلى اليوم". إذا كانت تلك الكتابات قد انبهرت بنجاح ابن سعود ولم تلتفت إلى الثمن المدفوع فكيف تحمِّل الكتابات ذاتها ذلك الرجل جزءاً كبيراً من المسؤولية في خسارة العرب؟

ويبقى لكل امرىء رأيه في تفسير الأحداث. لكن، هل نجاحات ابن سعود في توحيد أجزاء كبيرة من جزيرة العرب خسارة للعرب؟ وهل كان من ربح العرب وصالحهم لو أنه لم ينجح فيما نجح فيه؟ هل كان من مصلحة العرب لو ظلَّت في نجد قوتان هما إمارة آل رشيد في شمالها وإمارة آل سعود في وسطها وجنوبها، وفي الحجاز حكومة للأشراف، وفي عسير إمارة لآل عائض، وفي جازان إمارة للأدارسة، وفي نجران إمارة بذاتها، وفي الأحساء والقطيف إمارة مستقلة أو تابعة لبريطانيا أو تركيا؟ إذا كان المخلصون من أبناء الأمة العربية يطمحون إلى تكوين وحدة، أو اتحاد، فيما بينهم، ويرون أن في الاتحاد، أو الوحدة، قوة فإني لا أعتقد أن من المنطقي أن يُعدَّ توحيد ما أمكن توحيده من مناطق الجزيرة العربية خسارة للعرب. ولقد ذكر الدكتور إبراهيم نفسه (ص١٦٨) أن بريطانيا لا ترغب في رؤية جزيرة عربية مُوحَّدة، بل في رؤية جزيرة عربية ضعيفة مُفكَّكة مُجزَّأة إلى إمارات صغيرة . . . ".

وعلى أيٍّ حال، فلو فُرض أن الملك عبد العزيز لم ينتزع حكم الحجاز من الشريف حسين، رحمهما الله، هل يَتصوَّر من له إلمام بمجريات الأحداث حينذاك أن تترك فرنسا سوريا ولبنان، وتترك بريطانيا فلسطين؛ وبخاصة بعد أن وضعت على العراق وشرق الأردن ابنين من أبناء الحسين مع بقاء نفوذها في هذين القطرين؟

بعد نهاية المُقدَّمة بدأ الدكتور إبراهيم كلامه عن علاقة بريطانيا بابن سعود قبيل الحرب العالمية الأولى وإبَّانها بالإشارة إلى بداية أعمال تلك الدولة ضد السفن العربية؛ وبخاصة سفن القواسم، وأظهر تلك الأعمال وكأنها كانت رداً على عدوان من هذه السفن. وهذا الموضوع سبق أن درسه باحثون وأوضحوا حقيقته، التي لا تتَّفق مع أظهره الدكتور إبراهيم، وفي طليعة هؤلاء الدكتور صالح العابد في كتابه دور القواسم في الخليج العربي الصادر ببغداد سنة ١٩٧٦م، والشيخ الدكتور سلطان القاسمي، حاكم الشارقة، في كتابه الذي ترجمة عنوانه: خرافة القرصنة العربية في الخليج، الصادر عام ١٩٨٦م.

- قال الدكتور إبراهيم (ص ١٥٣): إن فترة حكم فيصل بن تركي انتهت سنة ١٨٦٨م، لكنه ذكر في الهامش أن حكمه انتهى سنة ١٨٦٥م. وهذا هو الصحيح. ولعلَّ ما ورد في المتن كان غلطة مطبعية. وقال عن فيصل إنه "الأمير السعودي الذي نجح في إعادة ملك السعوديين في نجد والأحساء بعد زوال السيادة المصرية من جزيرة العرب".

ولَعلَّ من المستحسن توضيح هذه المسألة: الواقع أن تركي بن عبد الله، والد فيصل، قد نجح في إجبار حاميات محمد علي باشا على مغادرة نجد عام ١٨٢٤م؛ أي قبل مؤتمر لندن الذي كان من بين قراراته سحب قوات الحاكم المصري من جزيرة العرب، بستة عشر عاماً. وكان تركي بذلك النجاح هو الذي أعاد الحكم السعودي. ولم يقتصر حكمه على نجد بمختلف أقاليمها؛ بل شمل منطقة الأحساء والقطيف وأكثر الجهات التي كانت تابعة للدولة السعودية الأولى في السواحل الشرقية للجزيرة العربية.

ولما اغتيل تركي بن عبد الله، سنة ١٨٣٤م، نجح ابنه فيصل في القضاء على مُدبِّر اغتياله، مشاري بن عبد الرحمن، بعد أربعين يوماً من ذلك الاغتيال،

واستمر فيصل حاكماً حتى أنهت قوات محمد علي فترة حكمه الأولى سنة ١٨٣٨م. ولم يلبث خالد بن سعود، الذي كان مع تلك القوات حاكماً للمنطقة تابعاً لمحمد علي، في السلطة إلا سنتين وبضعة أشهر؛ إذ أجلى الأمير عبد الله بن ثنيَّان آل سعود حامية محمد علي التي كانت تحرس خالداً في الرياض، وهرب خالد من نجد.

- قال الدكتور إبراهيم (ص ١٥٣): "أرسل مدحت باشا، عام ١٨٧١م حملة استولت على نجد والأحساء بقيادة نافذ باشا، وأعلن الأتراك خلع الأسرة السعودية كلية من ولاية نجد، وأقاموا بها مُتصرِّفية تركية".

والواقع أن الحملة العثمانية استولت على منطقة الأحساء، وأقامت بها وجعلتها مُتصرِّفية. لكنها لم تصل إلى نجد، ولم تستول عليها، ولم تخلع الأسرة السعودية؛ بل ظَلَّت هذه الأسرة ـ رغم ضعفها نتيجة الخلافات الداخلية ـ تحكم في نجد حتى قضى عليها الأمير محمد بن عبد الله بن رشيد عام ١٨٩١م؛ أي بعد الحملة العثمانية على الأحساء بعشرين سنة.

- قال الدكتور إبراهيم (ص ١٥٤): "إن عبد الله بن رشيد خلفه ابنه طلال، ثم جاء بعده الابن الثالث؛ وهو محمد بن رشيد . . . ، الذي كان أهم ما حَقَّقه الاستيلاء على الرياض خلال فترة النزاع بين عبد الله بن فيصل وأخيه سعود".

والصحيح أن الذي خلف طلال بن عبد الله بن رشيد في الإمارة هو أخوه متعب، ثم قام ابنا طلال، بندر وبدر، بقتل عَمِّهما متعب، وتَولَّى بندر الإمارة. وبعد ذلك قام محمد بن عبد الله بقتلهما مع عدد من إخوتهما وتَولَّى الإمارة. أما استيلاء محمد بن رشيد على الرياض فلم يحدث إلا عام ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م؛ أي بعد وفاة سعود ـ سنة ١٢٩١هـ ـ بأربعة عشر عاماً.

- قال الدكتور إبراهيم (ص ١٥٥): "في عام ١٩٠١ قاد الأمير (عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود) حملة أعدَّها له أمير الكويت ضد آل رشيد، ولم تنجح هذه الحملة لعدم رغبة ابن سعود في نجاحها؛ ربما لخوفه أن تنتقل السلطة في نجد من آل رشيد إلى آل صباح". وعزا آخر الكلام إلى فؤاد حمزة في كتاب قلب جزيرة العرب.

وبالرجوع إلى حمزة يَتَّضح أنه قال (٣٦٣):

"كان من جَرَّاء المنافسة بين مبارك الصباح وعبد العزيز بن رشيد أن جَهَّز مبارك، عام ١٣١٨هـ (١٩٠١م)، جيشاً عظيماً بلغ عشرة آلاف مقاتل، وسار هو على رأسه يرافقه الإمام عبد الرحمن آل سعود والشاب عبد العزيز وأبناء عمومته وأقاربه من آل سعود. فلما وصل الجيش إلى الشوكي الواقعة على حافة الدهناء الغربية رأى عبد العزيز أن قيادة الجيش لا تبعث الاطمئنان إلى النفوس في إدارتها. فعزم على عدم المجازفة والمغامرة بنفسه وبشباب آل سعود. فاستأذن من مبارك بالذهاب إلى أواسط نجد علَّه يستطيع إفادته من تلك الناحية ضد ابن رشيد. وألفى مبارك الخطة معقولة فوافق عليها. أما حملة مبارك فقد أحاق بها الفشل في المعركة التي دارت بين قواته وقوات ابن رشيد في الصريف. وأما عبد العزيز فإنه احتل الرياض ما عدا الحصن. ولكن نتائج معركة الصريف أجبرته على الانسحاب من العارض إلى الكويت لانتظار فرصة أخرى يثب بها إلى غرضه".

وهكذا يَتَّضح أن حمزة لم يقل: إن ابن سعود لم يرغب في نجاح الحملة التي قادها الشيخ مبارك، ولم يُعلِّل عدم رغبته في نجاحها - لو كان فعلاً لم يرغب ذلك - بخوفه أن تنتقل السلطة في نجد من آل رشيد إلى آل صباح؛ بل إن حمزة ذكر ما لا يتنافى مع الحقيقة التاريخية. وكل من له معرفة بتاريخ نجد والكويت يعلم أن ما ذكره الدكتور إبراهيم، هنا، غير صحيح.

والواقع أنه في عام ١٣١٨هـ (١٩٠١م) انطلقت حملة من الكويت إلى نجد بقيادة الشيخ مبارك بن صباح - ومعه حاضرة من الكويتيين والنجديين وبادية من قبائل مُتعدِّدة. ومن الشخصيات النجدية الحضرية عبد الرحمن بن فيصل وابنه عبدالعزيز وأفراد من آل مُهنَّا وآل سُلَيم، أمراء بريدة وعنيزة - ؛ وذلك لمحاربة الأمير عبد العزيز بن رشيد.

ورأت قيادة ذلك الجيش ـ عند وصوله إلى الشوكي بنجد ـ فتح جبهات مُتعدِّدة ضد ابن رشيد. فذهب عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بقوة للاستيلاء على الرياض، وذهب آل مُهنَّا إلى بريدة وآل سُلَيم إلى عنيزة، في حين استمر الجيش الأساسي بقيادة مبارك ومعه عبد الرحمن بن فيصل لمواجهة ابن رشيد. ودخل عبدالعزيز بن سعود الرياض، كما دخل آل مُهنَّا بريدة وآل سُلَيم عنيزة. لكن المعركة التي دارت بين الجيش الأساسي وابن رشيد في الصريف انتهت بانتصار الأخير انتصاراً عظيماً. وما إن علم آل مُهنَّا وآل سُلَيم بأخبار المعركة حتى عادوا مسرعين إلى الكويت. وقد أرسل عبد الرحمن بن فيصل إلى ابنه عبد العزيز، الذي كان داخل الرياض يحاصر حامية ابن رشيد فيها، يخبره بما حدث في الصريف. ولخوف عبدالعزيز من أن يَتَّجه إليه ابن رشيد، ويقضي عليه في الرياض، خرج منها وعاد إلى الكويت.

ـ ٢ ـ

لقد أشار الدكتور إبراهيم (ص ١٥٦ - ١٥٧) إلى محاولة الملك عبد العزيز إقامة صلات مع بريطانيا للحصول على مساعدتها؛ وذلك بعد انتزاعه الرياض من عامل ابن رشيد عام ١٩٠٢م، ولكنها لم تستجب لمحاولته. وهذا صحيح. لكن لَعلَّ من الغريب، والجدير بالذكر، أن الأمير عبد العزيز بن رشيد قد فاتح تلك الدولة طالباً عقد اتِّفاقية حماية معها سنة ١٩٠١م، لكنه فشل في

مسعاه. وقد ذكر ذلك كُلٌ من لوريمر(١)، والدكتورة سلوى الغانم(٢)، والدكتور محمد الثنيان(٣).

- قال الدكتور إبراهيم (١٥٨): "إن ابن سعود استولى على القصيم عام ١٩٠٦. وبعد ذلك تَطلَّع إلى إقليم الأحساء". وعزا ذلك إلى جمال زكريا قاسم. ثم قال: "هكذا صار إقليم الأحساء، الذي كان تحت سيادة الدولة العثمانية هو المجال الطبيعي لإرضاء طموح ابن سعود من جهة ويبعده عن التورُّط مع بريطانيا من جهة أخرى". وعزا ذلك إلى صلاح العقاد.

والصحيح أن استيلاء ابن سعود على القصيم حدث سنة ١٩٠٤م. أما أن يكون تَوجُّه نظره إلى الأحساء مبعداً عن التورُّط مع بريطانيا فأمر ليس من المُسلَّم بصحته. ذلك أن امتداد نشاطه إلى منطقة الأحساء، التي هي منطقة تقع على ساحل الخليج الذي فيه نفوذ لبريطانيا، أمر أقرب إلى أن يُورِّطه معها مما لو بقي نشاطه في نجد التي هي منطقة داخلية. وتَخوُّف بريطانيا من وصول الملك عبدالعزيز إلى ساحل الخليج أمر ذكره الدكتور إبراهيم نفسه بعد عِدَّة سطور مما قاله سابقاً.

- قال الدكتور إبراهيم (ص ١٦٤): "كان هناك خطر كبير على ابن سعود من جهة أمير الكويت الشيخ مبارك وخلفائه الذين شَجَّعوا قبائل العجمان للثورة ومهاجمة أراضي ابن سعود وإمدادهم بالأسلحة اللازمة لذلك".

والمتأمل في المصادر يجد أن الخلاف الذي حدث بين العجمان والملك عبدالعزيز، وأدَّى إلى معركة كنزان، لم يكن بتشجيع من الشيخ مبارك، ويجد

---

(١) لوريمر، دليل الخليج، ترجمة مكتب أمير دولة قطر، ١٩٧٥م، القسم التاريخي، ج ٣، ص ص١٦٩٨ و١٧٣٩-١٧٤٠.

(٢) سلوى الغانم، وترجمة عنوان كتابها عهد مبارك الصباح شيخ الكويت ١٨٩٦-١٩١٥، لندن ١٩٩٨م، ص٩٩.

(٣) محمد الثنيَّان، عبد العزيز بن رشيد والحماية البريطانية، الرياض ١٩٩٩م، والكتاب كلُّه يَتحدَّث عَمَّا يفيده عنوانه.

أنها لم تذكر أن ذلك الشيخ أمدَّ العجمان بأسلحة ليثوروا ضد الملك عبد العزيز أو مهاجمة أراضيه، وإنما ذكرت أن الشيخ مباركاً أرسل قوة مع ابنه سالم لمساعدة الملك عبدالعزيز عندما كان العجمان يحاصرونه في بلدة الهفوف إثر هزيمتهم له في معركة كنزان عام ١٩١٥م. ومع أن الشيخ مباركاً قبل لجوء العجمان إلى بلاده بعد أن انسحبوا أمام هجوم الملك عبد العزيز المضاد عليهم فإنه لم يُسلِّحهم لمهاجمة الأراضي السعودية. أما خليفته، ابنه جابر، فقد أخرجهم من الكويت؛ وذلك بناء على طلب من الملك عبدالعزيز وحَثٍّ من بريطانيا. وممن أفاض الحديث عن هذه القضيَّة فيلبي؛ وذلك في أوَّل كتابة له عن شبه الجزيرة العربية. وقد ترجم كاتب هذه السطور تلك الكتابة، وقَدَّم لها تاريخياً، وعَلَّق عليها، فصدرت الطبعة الثانية منها في الرياض سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م[١]. وإضافة إلى فيلبي تَحدَّث عنها خالد السعدون في كتابه العلاقات بين نجد والكويت ١٣١٩-١٣٤١هـ/ ١٩٠٢- ١٩٢٢م[٢].

- قال الدكتور إبراهيم (ص ١٧٣):

"إن المعونة المالية التي خَصَّصتها بريطانيا لابن سعود كان يَتسلَّمها عن طريق الحسين مما يعني وضعه في مركز التابع لشريف مكة".

وعزا ذلك إلى الدكتور جلال يحيى في كتابه العالم العربي الحديث والمعاصر. وهذا الكتاب - كما هو معروف - كتاب عام. وما ذُكر، هنا، لا يستند إلى أساس تاريخي. ولقد أوضح فيلبي، الذي كان أحد مفاوضي الملك عبد العزيز البريطانيين بشأن المعونة؛ عسكريا ومالياً، كيفية تسليم تلك المعونة إلى الملك، وأنها كانت تُسلَّم إليه مباشرة[٣].

---

(١) انظر ص ص١٢٠ - ١٣٣.

(٢) طبعت هذا الكتاب دارة الملك عبد العزيز في الرياض عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. وقد ورد الحديث عن قضية العجمان ص ص١٧٠-١٧٨ و١٨٥-١٨٨ و١٩٧-٢٠٧.

(٣) مصدر سبق ذكره، ص ص١٦٥ - ١٦٦ و٢٥٨-٢٥٩.

- وقال الدكتور إبراهيم (ص ١٧٤):

"إن ابن سعود، الذي كان يَتملَّق الحسين في رسائله إبَّان فترة الحرب، غيَّر موقفه بعد الحرب بسبب تَغيُّر الموقف البريطاني".

وعزا ذلك إلى الدكتور محمد مرسي عبد الله. والمُدقِّق في قراءة الكتابات العلمية، التي كتبت عن هذا الموضوع، يجد أن الملك عبد العزيز كان يظهر مسالمته وتأييده للحسين إبَّان الحرب. لكن بعد انتهاء الحرب تَغيَّر موقف الحسين. ذلك أنه - كما قال الدكتور إبراهيم نفسه (ص١٧٧) - "ضايق أمير نجد حين شرع في الاستيلاء على الخُرْمة التي عَدَّها هذا الأمير داخلة في نطاق الأراضي التابعة لأجداده . . . "إلخ. ويضاف إلى هذا أن الحسين - نتيجة لتوتُّر العلاقات بين الطرفين بعد احتدام الخلاف حول الخُرْمة وتُرَبة - قام بمنع أتباع الملك عبدالعزيز من أداء الحج. وفي هذا ما فيه من تَحدٍّ وظلم.

- قال الدكتور إبراهيم (ص ١٧٨): بعد معركة تُرَبة، سنة ١٩١٩م، كان خطر ابن رشيد ما يزال مُهدِّداً لاستقلال ابن سعود.

والدارس لتاريخ وسط الجزيرة العربية حينذاك يجد أنه من سنة ١٩١٥م لم تعد إمارة آل رشيد تُمثِّل خطراً على استقلال الملك عبد العزيز في المناطق التي دخلت تحت حكمه. بل إنه قد أصبح الجانب الأقوى في نزاعه مع آل رشيد بعد دخول القصيم تحت حكمه سنة ١٩٠٤م، ومقتل الأمير عبد العزيز بن رشيد، خصمه الأكبر من تلك الأسرة، عام ١٩٠٦م. ومن أدلّة قوتّه أنه تَمكَّن بالمفاوضات من ترحيل القوات العثمانية عن القصيم في أواخر ذلك العام، وأنه انتزع من العثمانيين منطقة الأحساء والقطيف عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م، وأنه كَوَّن من البادية قوَّة لا يستهان بها بعد أن اعتنقوا حركة الإخوان، وكان ممن اعتنق هذه الحركة فئات من شَمَّر ذاتها. وإذا كان الملك عبد العزيز في موقع أقوى من ابن رشيد

خلال الحرب العالمية الأولى، التي انتهت عام ١٩١٩م، فكيف يكون هناك خطر عليه بعد نهاية تلك الحرب التي خسرت فيها الدولة العثمانية المُؤيِّدة لآل رشيد وأخرجت من جزيرة العرب والأقطار الواقعة شمالها؟

وإضافة إلى ذلك فإن اغتيال الأمير سعود بن رشيد في رجب بعد أقلَّ من عشرة شهور على معركة تُرَبة كان كارثة على إمارة آل رشيد؛ إذ تلاه صراع زاد في ضعفها. ونتيجة لذلك قدم وفد من تلك الإمارة إلى الملك عبد العزيز آملاً في تجديد ما كان بينها وبينه من صلح، فاشترط أن تكون لآل رشيد إدارة الشؤون الداخلية لإقليم جبل شَمَّر، وأن تكون الشؤون الخارجية في يده، فلم يقبلوا. ومن الواضح أن اتِّخاذه ذلك الموقف الحازم كان من أسبابه ازدياد قوة وضعه العسكري بشكل برهن عليه انتصار أتباعه في تُرَبة، ثم نجاحه في إدخال منطقة عسير تحت حكمه في شعبان سنة ١٣٣٨هـ (مايو ١٩٢٠م). أما إصراره على أن تكون الشؤون الخارجية لإمارة جبل شَمَّر في يده فسببه الواضح خشيته من حدوث تحالف بينها وبين الملك حسين في الحجاز وابنيه في العراق وشرق الأردن. وكان عدم قبول وفد تلك الإمارة بما أصرَّ عليه أحد الأسباب التي دفعته إلى أن يُقرِّر إنهاءها داخلياً وخارجياً. فَتمَّ له ذلك عام ١٩٢١م[1].

ومما يلفت النظر أن الدكتور إبراهيم قال (ص١٨١): إن انطونيوس عَبَّر عن موقف الحسين الشائك الذي وضعه فيه عناده في المطالبة بحقوق العرب من بريطانيا أصدق التعبير بقوله. ثم أورد نصاً على أنه من قول ذلك الكاتب. لكنه بعد إيراد النص أحال في الهامش إلى حافظ وهبه. وهذا العمل غريب منهجياً. فإذا كان النص المورد اقتباساً من كلام انطونيوس فإن من أوليَّات البحث العلمي

(١) من الكتابات التي فَصَّلت ذلك كتاب معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد، لكاتب هذه السطور، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص ص٢٠٧-٢٢٥ .

أن يشار في الهامش إلى كتابه؛ وبخاصة أنه مطبوع مشهور، وأن الدكتور إبراهيم نفسه قد استعمله في كتابته.

- قال الدكتور إبراهيم (ص ١٨٣): "الإخوان: القوات الوهابية التي اعتمد عليها عبد العزيز بن سعود في توسعاته بجزيرة العرب. وقد قامت بهذه المَهمَّة باستبسال وحماس منقطع النظير. ثم عمل عبد العزيز بعد ذلك على استيطانهم في مواقعهم وإدخال نظم الاستقرار في حياتهم بعد أن كانوا غير نظاميين".

وكلام الدكتور إبراهيم يفهم منه أن تَوطُّن الإخوان حدث بعد أن قاموا بما قاموا به من جهود في توحيد ما وَحَّده الملك عبد العزيز تحت حكمه. وهذا يدل على أن معلوماته عن الإخوان ضيئلة جداً. ولقد كتبت عن الإخوان عدة كتابات علمية؛ منها رسالة جون حبيب للدكتوراه. ومن المعروف أن كلمة الوهابية - بغض النظر عن قبول هذا الاستعمال أو عدم قبوله - تشمل أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب؛ حاضرة وبادية. أما الإخوان المُتحدَّث عنهم فكانوا قبائل بادية، ثم بدأت حركتهم لترك حياة البادية والاستقرار في أماكن سُمِّيت كل واحدة منها "هجرة". وقد بدأ استقرارهم سنة ١٣٣٠هـ (١٩١٢م)؛ وذلك قبل أن تدخل تحت الحكم السعودي منطقة الأحساء والقطيف، وإقليم جبل شَمَّر، ومنطقة عسير، ومنطقة الحجاز، ومنطقة جازان، ومنطقة نجران. ومن المعروف، أيضاً، أنه - وإن كان للإخوان دور كبير في توحيد تلك المناطق - فإن اعتماد الملك عبد العزيز لم يكن مقصوراً عليهم.

- قال الدكتور إبراهيم (ص ١٨٤):

"احتلت القوات النجدية مدينة الطائف في ٧ سبتمبر ١٩٢٤م بعد حرب قصيرة فشلت خلالها القوات الحجازية في الدفاع عنها، ووقعت في الطائف مذبحة عامة راح ضحيتها الآلاف من سكان المدينة من قبل الإخوان الوهابيين الذين عَدُّوا أهل الطائف مشركين. لكن الحقيقة يرويها حافظ وهبة بأن رغبة

الإخوان في الحصول على الغنائم كان هو الدافع وراء هذه الأعمال الوحشية التي ارتكبها أتباع عبد العزيز بن سعود باسم الدين " .

وعزا ذلك في الهامش إلى محمد مرسي عبد الله وصلاح العقاد، ولم يرجع إلى وهبة نفسه الذي قال في المتن: إنه يرويها. أما العقاد، الذي أشار إلى الحادثة في كتابه المشرق العربي، ص٥٥٠، فلم يذكر عدد القتلى. وبالرجوع إلى وهبة يَتَّضح أنه قال: (إن الإخوان رَحَّبوا بفكرة غزو الحجاز "لأنهم سيطهرون بيت الله من البدع وينشرون دين الله الصحيح، ولأنهم سيغنمون الأموال وقد ذاقوا حلاوتها في تُرَبَة، كما سيغنمون أجر الجهاد من الله، ولم ينتصف شهر مُحرَّم سنة ١٣٤٣هـ حتى بدأ الإخوان بمناوشاتهم مع بادية الحجاز وأكثرها ناقم على الملك حسين. ثم أخذوا يتقدَّمون وجيوش الملك حسين لا تقف في وجوههم حتى استولوا على الطائف في ٥ صفر. ثم وقفوا ينتظرون أمر مولاهم (يعني الملك عبدالعزيز)، الذي شَدَّد عليهم ألاَّ يتجاوزوا الطائف وإلا فهو يبرأ إلى الله منهم؛ أي أنهم سيكونون عاصين في عملهم، ولا داعي إلى ذلك، فالغنائم التي استولوا عليها تحتاج إلى وقت لتقسيمها بينهم بالعدل "[1] .

وهكذا يَتبيَّن أن وهبة ذكر ثلاثة دوافع لحماسة الإخوان لغزو الحجاز، ولم يُعلِّل ما فعلوه في الطائف بالذات بأنه رغبتهم في الحصول على الغنائم فقط. ولقد ذكر بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث؛ مثل إبراهيم القاضي[2]، ومقبل الذكير[3]، وأحمد السباعي[4]، أن أعداداً من بادية الطائف انَضمَّت إلى

(١) انظر الطبعة الثالثة من الكتاب، القاهرة، ١٩٥٦م، ص٢٦٤، وانظر الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣٥م، ص ص ٢٨٨ - ٢٨٩، والطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٦م، ص ص٢٥٢، والطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٦١م، ص٢٧٢ .

(٢) تاريخ القاضي، ما يزال مخطوطا، ص٦٠ .

(٣) مسودة تاريخ لم يُقرِّر له مؤلفه عنواناً، ص٩٠ .

(٤) مصدر سبق ذكره، ج٢، ص٢٤٥ .

الإخوان أملاً في الحصول على مغانم. ومن المحتمل جداً أن قتل قسم ممن قُتلوا من أهل الطائف تَمَّ على أيدي أولئك المنضمِّين إلى الإخوان. على أن فاسيلييف ذكر بأن معطيات تفيد أن عدد القتلى كان أربع مئة[(١)]. ولم أر أيَّ مصدر موثوق ذكر بأن الإخوان قتلوا آلافاً من سكان مدينة الطائف.

- قال الدكتور إبراهيم (ص ١٨٤): "حاصر عبد العزيز (بن سعود) قوات علي بن الحسين في جدة واستولى عليها، وحاصر فلول الهاشميين في المدينة المنورة التي دخلها في ديسمبر ١٩٢٥م".

ويفهم من الكلام السابق أن استيلاء الملك عبد العزيز على المدينة المنورة حدث بعد الاستيلاء على جدة، وأنه هو نفسه الذي دخل المدينة. والواقع أن الملك وَجَّه عدداً من القادة لمحاصرة المدينة؛ وهو ما زال محاصراً لجدة. وقد اضطرت الحامية الشريفية الموجودة في المدينة إلى قبول الاستسلام على أن يَتِّم على يد أحد أبنائه. فبعث ابنه محمداً، واستسلمت له في ٨/ ٥/ ١٣٤٤هـ/ ٣/ ١٢/ ١٩٢٥م. أما جدة فكان استسلامها بعد اثنين وعشرين يوماً من ذلك التاريخ[(٢)].

- قال الدكتور إبراهيم (ص١٨٦):

"إن من أهم المواقف التي اتَّخذها ابن سعود (خدمة لبريطانيا) موقفه الذي اتَّخذه أثناء انعقاد المؤتمر الإسلامي الذي عُقد في مكة عام ١٩٢٦م. فعند ما طرح أعضاء المؤتمر مشروع قرار يدعو إلى تطهير الجزيرة العربية من الحكم الأجنبي على أن يشمل هذا القرار فلسطين وسوريا والعراق وسواحل الجزيرة العربية احتج ابن سعود على هذا القرار. ويُعلِّق صلاح العقاد على ذلك بقوله: "لا غرو فقد رأى

(١) مصدر سبق ذكره، ص٣١٢.

(٢) فَصَّلت الحديث عن ذلك كتب عديدة، ومنها كتاب تاريخ المملكة العربية السعودية، لكاتب هذه السطور، ج٢، ط٤، الرياض ١٩٩٨م، ص ص١٩٥-٢٠١، وكتابه معارك الملك عبد العزيز. ص ص٢٤٦ - ٢٧٢.

ابن سعود الشريف حسين يسقط منذ قليل نتيجة عدائه للانجليز وهو لا يريد أن يصطدم بهم".

ووضع رقماً بعد نهاية ما قال إنه تعليق للعقاد ليوثِّقه في الهامش. لكن أشير في الهامش إلى هيروتز بدلاً من العقاد. وقد يكون ذلك خطأ في الطباعة والإخراج. على أن مما هو جدير بالذكر أن وهبة كان ممن رتَّب للمؤتمر المذكور وشارك في المداولات الدائرة حينذاك. وقد قال: "إن أعضاء المؤتمر كان يرون أن يقسموا أمام الكعبة على أن يسعوا لتخليص جزيرة العرب من نفوذ الأجانب. . ، وأنهم لما سئلوا عن المراد بجزيرة العرب قالوا: فلسطين وسوريا والعراق وسواحل الجزيرة التي للأجانب فيها نفوذ. فسألني الملك عن رأيي، فقلت لمَ العجلة؟ إن تركيا ومصر والأفغان واليمن لم يصل مندوبوهم بعد، وإن من الحَكمة أن يؤخذ رأيهم في هذا الموضوع الخطير فهم أعلم منا بالسياسة الدولية. فإذا وافقوا على الاقتراح فإن لموافقتهم من القوة المعنوية ما ليس لموافقتنا. فقبل الجميع هذا الاقتراح. وبالطبع لم يقبل مندوبو تلك الدول الأربع ذلك الاقتراح لأنهم رأوا فيه توريطاً لدولهم في مشكلة هم في غنى عنها. وانتهى المؤتمر بتمنيات كان نصيبها الإهمال من العالم الإسلامي"(١).

والفرق بين ما ذكره الدكتور إبراهيم وما ذكره وهبة المشارك في ترتيبات المؤتمر المشار إليه واضح كل الوضوح. وللمرء أن يَتصوَّر موقف الملك عبدالعزيز هل يمكن أن يَسرَّه بقاء العراق والأردن يحكمان من قبل ابني الملك حسين وتحت النفوذ البريطاني أو يحكمان من قبل غيرهما مستقلين؟ وهل يمكن أن يَسرَّه بقاء جهات على ساحل الخليج؛ منها ما كان تحت حكم آبائه، تحت حكم يمنع وصوله إليها؛ وبخاصة أن الأتراك الذين كان يخشاهم قد زال نفوذهم من المنطقة العربية؟

---

(١) جزيرة العرب، ص ص٢٧٤ - ٢٧٥ .

إن لكل كاتب رأيه، لكن المُؤمَّل دائماً أن لا تُبنَى الكتابة البحثية على آراء مُسبقة، ونقلاً عن مراجع دون تأمُّل.

حول مقال
آل مُضيان شيوخ حرب *

قرأت ما كتبه الأخ الصديق فايز بن موسى الحربي في العدد الماضي من مجلة العرب بعنوان: "آل مُضيَّان شيوخ قبيلة حرب . . هؤلاء الرجال أليسوا جديرين بالذكر؟" . ومدار كتابته حول نقطتين وردتا في كتاب التاريخ للصف الثالث الثانوي. أولى النقطتين عدم ذكر آل مُضيَّان بين الإشارات المختصرة عن عدد من القادة الذين برزوا في عهد الدولة السعودية الأولى. وثانيهما موقف قبيلة حرب من حملة طوسون.

وبما أنني مُؤلِّف الكتاب المذكور، وأني بذلك المُتَّهم الأول في المسألة المُتحدَّث عنها، فقد رأيت من المستحسن إزالة ما قد يحدث لبساً عند بعض القراء؛ وبخاصة من لم يقرؤوا تاريخ بلادنا قراءة مُتأنِّية. وقبل أن أبدأ تعليقي على الكتابة أودُّ أن أشير إلى أني أُكنُّ لآل مُضيَّان كُلَّ تقدير أُكنُّه لغيرهم من قادة عشائر هذا الوطن، وأُكنُّ لقبيلة حربَ كُلَّ إجلال أُكنُّه لغيرها منَ قبائله. ثم إني أُودُّ أن أشير إلى ما يأتي:

١ - أن الكتاب مقرر لطلاب مرحلة ثانوية. ولو ذُكر فيه جميع من كانوا أمراء أو قادة في العهد المُتحدَّث عنه لكان في ذلك شطط وظلم لمن قُرِّر عليه. ولهذا استحسنت الإشارة إلى عدد منهم؛ أمثلة لا استقصاء، وقلت في مستهل تلك الإشارة: "برز عدد من الأمراء وقادة الجيوش في عهد الدولة السعودية الأولى؛ إضافة إلى القادة من الأسرة السعودية ذاتها، ومن هؤلاء . . . إلخ" .

---

* نُشر في مجلة العرب، العدد ٣٤، ج ٣، ٤، ذو القعدة ١٤١٩هـ/ فبراير ١٩٩٩م.

٢- أنه - حين ورد في كتاب بوركهارت مواد لتاريخ الوهابيين، والذي ترجمته إلى العربية (ص٩٣) ما يفيد بأن قبيلة حرب اضطرت إلى الخضوع لسعود ابن عبدالعزيز بعد استيلائه على مكة، سنة ١٢٢٠هـ - عَلَّقت على ذلك في الهامش بقولي: "كان زعماء قبيلة حرب من آل مُضيَّان قد انضمُّوا إلى سعود قبل استيلائه على مكة مَرَّة ثانية. فقد قاموا بدور كبير في إدخال المدينة المنورة تحت نفوذه في أوَّل السنة التي بايع فيها الشريف غالب الإمام سعود؛ وهي سنة ١٢٢٠هـ".

٣- أني قد اقترحت إطلاق اسم مسعود بن مُضيَّان على أحد شوارع الرياض، وكتبت مُلخَّصاً عن جهوده التي تُبرِّر قبول اقتراحي. وكان ذلك قبل أكثر من عشر سنوات، عندما كنت عضواً في هيئة أُنيط بها اقتراح أسماء لشوارع هذه المدينة.

أما بعد:

فإن تعليقي سَيتركَّز، بشكل أساسي، على خمسة أمور:

الأول: مناقشة ما أورده الأخ فايز في كتابته من حيث الصحة وعدمها.

الثاني: إيضاح جهود القادة الثلاثة من آل مُضيَّان: بادي، وبَدَّاي، ومسعود.

الثالث: أمير آل سعود على المدينة المنورة.

الرابع: إيضاح جهود القادة الذين ذكر الأخ فايز اسمَي اثنين منهما بما يفيد بأن جهودهما أقلُّ من جهود أيٍّ واحد من آل مُضيَّان بصفة خاصة.

الخامس: موقف قبيلة حرب في المواجهة مع قوات طوسون.

الأمر الأول: ما أورده الأخ فايز من حيث الصحة وعدمها.

١ - قال الأخ فايز (ص ١٠٢): "إن بَدَّاي بن مُضيَّان تَولَّى بعد أخيه بادي، وكان له دور نشيط وشهرة كبيرة في أحداث ضَمِّ الحجاز للدولة السعودية الأولى.."، ثم كَرَّر هذه المعلومة بعد سطر واحد بقوله: "وكان لهذا الشيخ دور بارز في حوادث ضَمِّ الحجاز إلى الدولة السعودية الأولى وخاصة خلال الفترة ما بين ١٢١٧هـ حتى ١٢٢٠هـ، حيث باشر قيادة القوات التي حاصرت المدينة خلال تلك الفترة".

وقد وضع في نهاية الكلام السابق رقماً يُفهَم منه أنه سيشير إلى المصدر الذي يُوضِّح الدور المذكور، وقيادة بَدَّاي للقوات السعودية التي حاصرت المدينة خلال الفترة التي ذكرها. لكنه بدلاً من ذلك اقتصر على القول بأن أمانة مدينة الرياض أطلقت اسمه على أحد شوارع الدِّرعية اعترافاً بفضله.

إن الحديث عن العلاقات بين الدولة السعودية الأولى وقادة الحجاز مُنصبٌّ على العلاقات بين تلك الدولة وأشراف مكة، الذين منعوا أتباعها من الحج أكثر من نصف قرن، وبدؤوا بحربها عسكريًا من سنة ١٢٠٥هـ. ومعلوم أن الحجاز لم تدخل كُلُّها تحت الحكم السعودي إلا سنة ١٢٢٠هـ. وكانت المعركة التي غَيَّرت مجرى القتال بين الطرفين، ونقلت الأشراف من موقع الهجوم إلى موقف الدفاع، هي معركة "الجَمَّانية" التي حدثت سنة ١٢١٠هـ، وكان أبرز قائد سعودي فيها هادي بن قَرْمَلة، زعيم قبيلة قحطان، وإلى جانبه ابن رُبَيْعان ومن تبعه من عُتَيْبة، والدويش ومن تبعه من مُطَيْر، وعربان السهول وسُبَيْع والعجمان، ورُبَيِّع بن زيد أمير جميع الدَّواسر، الحاضرة والبادية[1]".

---

(١) عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، الطبعة الثانية من قِبَل وزارة المعارف، ١٣٩١هـ، ج ١، ص ١٣٥.

أما المعركة التي انتصرت فيها القوات السعودية انتصاراً عظيماً على جيش الشريف غالب، وأجبرته على طلب الصلح والهدنة، فكانت معركة الخُرْمَة سنة ١٢١٢هـ. وكان في طليعة تلك القوات هادي بن قَرْمَلة وأتباعه من قحطان، ورُبَيِّع ابن زيد أمير جميع الدَّواسر. ومما قاله ابن بشر عن نهاية تلك المعركة: "ولم تقم له (يعني الشريف) بعد هذه الوقعة العظمى قائمة، ولم يلبث بعدها أن صالح عبدالعزيز.. وأذن لهم بالحج". وقد أُنشد في هذه الوقعة شعر كثير، ولكن ليس على اللَّفظ العربي. وقال راجح الشريف من قصيدة له عنها؛ وهي على لغة العامة:

جَوْنــا الدَّواسر مع فـريق القَحـاطـينْ
كلْنَا لهــم بالمِدّ ووفَّـوا لـنـا الـصـاعْ
الاشـراف لانــوا بعـد مـا هـم قــاسينْ
والشَّـقْ مـا يَرفـاه خَمـسـة عـشـر باعْ(١)

ثم كان انضمام عثمان المضايفي، الذي كان وزيراً وصهراً للشريف غالب، إلى الدولة السعودية، عام ١٢١٧هـ، بداية النهاية لمقاومة ذلك الشريف؛ إذ اتَّخذ عثمان من العبيلاء مَقرًا له، وانضمَّت إليه قوات سعودية في طليعتها ابن شكبان بأهل بيْشة، وابن قطنان بأهل رَنْية وسُبَيْع، وابن يَحيى بأهل تُربَة، وهادي بن قَرْملة بجيش من قحطان، وفئات من عُتَيْبة وغيرهم، وسار بالجميع إلى الطائف فانتزعها من الشريف غالب وعَيَّنهُ الإمام عبدالعزيز بن محمد أميراً لها وللحجاز. وبذلك مَهَّد الطريق إلى مكة ذاتها. ثم تلا هذا حصار مكة بقيادة

(١) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٢.

سعود بن عبدالعزيز، ولما انتهى موسم الحج انسحب منها غالب إلى جدة، ودخلها سعود في الثامن من المُحرَّم سنة ١٢١٨هـ دون حرب(١).

ولقد كان للمعركة التي هزم فيها عبدالوهاب أبو نقطة ومن معه قوات الشريف غالب بين مكة وجدة أثر كبير في فقدان الأخير كُلَّ أمل في استمرار المقاومة. ولما حاصر عبدالوهاب وعثمان المضايفي ومن انضمَّ إليهما من قوات سعودية مكة اضطر شريفها إلى طلب الصلح على مواجهة الإمام سعود ومبايعته. وكان في طليعة من دخل تلك البلدة المُقدَّسة القائدان المذكوران أبو نقطة والمضايفي(٢).

إذا اتَّضح ما سبق ذكره فإن من المعلوم أنه لم تكن للأشراف سلطة على المدينة المنورة مثل سلطتهم على بلدان الحجاز الأخرى. وليس هناك من المصادر المتوافرة ما يفيد بأن جهود بَدَّاي بن مُضيَّان تجاوزت دوراً مُهمّاً في حصار المدينة، والاشتراك مع زعيم جُهَيْنة، جابر بن جُبَارة، في انتزاع بلدة ينبع من مُمثِّل الشريف غالب فيها عام ١٢١٩هـ. على أن الشريف استعادها في العام نفسه.

٢ - قال الأخ فايز (ص١٠٢): "إن مسعود بن مُضيَّان كان من أبرز قادة الإمام عبدالعزيز وابنه سعود . . وقد عيَّنه الإمام سعود أميراً على المدينة إلى أن قُتِل وهو يدافع عنها في أواخر سنة ١٢٢٧هـ".

أما تعيين مسعود أميراً على المدينة فأمر سَتتمُّ مناقشته فيما بعد. لكن كيف يقال: إنه كان من أبرز قادة الإمام عبدالعزيز وهو لم يَتولَّ القيادة إلا بعد وفاة أخيه بَدَّاي سنة ١٢٢٠هـ، والإمام عبدالعزيز اغتيل غدراً سنة ١٢١٨هـ؟

وآخر العبارة يفهم منه أن مسعوداً قُتل وهو يدافع عن المدينة أواخر سنة ١٢٢٧هـ. والمصادر والمراجع تفيد أنه اعتُقِل بعد استيلاء قوات طوسون على

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ص١٦٢ - ١٦٥ .
(٢) المصدر نفسه، ص ص١٨٣ - ١٨٥ .

المدينة، ثم أُرسل إلى القاهرة، ومن ثَمَّ إلى اسطنبول حيث قُتِل هناك في ٢٠/١٢/١٢٢٨هـ[١].

٣ - قال الأخ فايز (ص ١٠٣) لتبرير ترجيحه بأن مبايعة بادي وبَدَّاي ابنَي مُضيَّان لعبدالعزيز بن محمد كانت سنة ١٢١٤هـ: "يذكر ابن بشر أن حرباً بعد مبايعتهم للسعوديين اتَّفقوا مع الإمام عبدالعزيز على فتح المدينة، فبنوا قصراً في عواليها، وحاصروا المدينة، وأقاموا على ذلك سنين".

وهذا القول يفهم منه أن بناء القصر كان بمبادرة من قبيلة حرب، وأنها بقيت سنين محاصرة للمدينة في زمن الإمام عبدالعزيز. فما ذا قال ابن بشر حقيقة؟

قال: "في أوَّل سنة ١٢٢٠هـ بايع أهل المدينة سعوداً؛ وذلك أن بادي وبَدَّاي ابنَي بدوي بن مُضيَّان ومن تبعهما من عربانهم أحبُّوا المسلمين، ووفدوا على عبدالعزيز، وبايعوه.. فأجمعوا على حرب المدينة، ونزلوا عواليها، ثم أمرهم عبدالعزيز ببناء قصر فيها، فبنوه، وأحكموه، واستوطنوه، وتبعهم أهل قُبَاء ومن حولهم، وضَيَّقوا الحصار على أهل المدينة، وقطعوا عنهم السوابل، وأقاموا على ذلك سنين"[٢].

ومن الواضح أن بناء القصر المشار إليه كان بأمر عبدالعزيز، لكن الأهمَّ من هذا هو أن عبارة "وقاموا على ذلك سنين" تشير إلى سنين قبل عام ١٢٢٠هـ، الذي أورد فيه ابن بشر الخبر. وهذه السنوات منها ما كان في عهد عبدالعزيز الذي انتهى عام ١٢١٨هـ، ومنها ما كان في عهد سعود، فليس في العبارة دليل يُرجِّح أن المبايعة حدثت سنة ١٢١٤هـ.

---

(١) محمد أديب غالب، من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، دار اليمامة، ١٣٩٥هـ، ص١٥٠.
(٢) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج١، ص١٨٦.

على أن ما ذكره الأخ فايز (ص١٠٣) عن الوثيقة المُؤرَّخة سنة ١٢١٥هـ، التي أشير فيها إلى مناوشة بادي بن مُضيَّان للمدينة، واضح الدلالة على أن مبايعته لعبدالعزيز كانت في تلك السنة أو قبلها.

٤- قال الأخ فايز (ص ١٠٤) تحت عنوان استيلاء ابن مُضيَّان على ينبع سنة ١٢١٩هـ: "لقد أدَّى انضمام ابن مُضيَّان للسعوديين إلى زيادة حدَّة الصراع بين السعوديين والشريف غالب، شريف مكة، ولعبت قبائل حرب دَوراً هامًا في تَوسُّع السعوديين غرباً في صراعهم مع الأشراف إلى أن انتهى الأمر بدخول الحجاز في تبعيتهم أخيراً. وما حادثة ينبع هذه سوى جزء من هذا الدور الذي قام به ابن مُضيَّان خير قيام".

لقد سبق الحديث عن موقف أشراف الحجاز من دعوة الشيخ محمد والدولة السعودية التي ناصرتها؛ منعاً لأتباعها من الحج، ثم قتالاً لهم من سنة ١٢٠٥هـ، وعن تَحوُّل هؤلاء الأتباع من الدفاع إلى الهجوم؛ ابتداء من سنة ١٢١٠هـ، ثم اضطرار الشريف غالب إلى مصالحتهم بعد معركة الخُرْمَة سنة ١٢١٢هـ.

ولو سُلِّم بأن آل مُضيَّان ومن تبعهم من قبيلة حرب قد دخلوا تحت الحكم السعودي سنة ١٢١٤هـ كما رَجَّح الأخ فايز ـ فإن من الواضح أن الصراع بين آل سعود والشريف غالب قد احتدَّ قبل ذلك الدخول. ثم إن المصادر المتوافرة لم تشر إلى أيِّ جهود لآل مُضيَّان في ذلك الصراع باستثناء دورهم المُهمِّ في حصار المدينة، التي لم تكن سلطة الشريف غالب فيها مثل سلطته في مناطق الحجاز الأخرى، ومشاركة بَدَّاي مع جابر بن جُبَارة، في انتزاع ينبع من نائب الشريف غالب سنة ١٢١٩هـ؛ علماً أن الشريف استعادها في السنة ذاتها، كما سبق أن ذُكر[1].

(١) أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، إعادة طباعة، استانبول، ١٤٠٠هـ، ج٢، ص٢٨٤.

٥ - قال الأخ فايز (ص ١٠٥): "لم يذكر المؤرخون النجديون - وعلى رأسهم ابن بشر - شَيئاً عن تعيين أمير المدينة من قبَل السعوديين بعد استيلائهم عليها مع أن المصادر الحجازية تشير إلى أنَ الإمام سعوداً عَيَّن الشيخ بَدَّاي ابن مُضيَّان أميراً على المدينة وعلى قبائل حرب المحيطين بها، ثم تُوفي بَدَّاي وحَلَّ مَحلَّه مسعود بن مُضيَّان". وأحال القارئ إلى ثلاثة كتب لثلاثة مؤلفين هم: دحلان، وبوركهارت، والأخ فايز نفسه.

وأوَّل ما يلفت النظر أنه لم يشر إلا إلى مصدر حجازي واحد هو كتاب دحلان. أما بوركهارت فمعروف أنه رحالة سويسري. وأما الأخ فايز فكتابه لا يُعدُّ مصدراً؛ إضافة إلى أنه لم يشتمل على أكثر مما في مقالته. وعلى هذا الأساس فإن المصادر الحجازية التي ذكرها تَحولَّت في الهامش إلى مصدر واحد.

على أن الأخ فايزاً لم يكن دقيقاً فيما قاله عن ابن بشر أو دحلان أو بوركهارت.

إن ابن بشر لم يذكر اسم من أمَّره سعود على المدينة عندما تَحدَّث عن دخولها تحت حكمه سنة ١٢٢٠هـ، لكنه عندما ذكر أُمراءها - وهو يَتحدَّث عن وفاته سنة ١٢٢٩هـ - قال: وكان أميره على المدينة النبوية حَسَن قَلْعي[1].

أما دحلان فقد تَحدَّث عن إغداق قادة قوات محمد علي الأموال على القبائل الموجودة بين ينبع والمدينة، وتعاونها معهم حتى "مَلَّكوهم الأرض وصاروا يسعون في خدمتهم وتَقدُّمهم إلى أن أدخلوهم المدينة المنورة"، ثم قال: "وقبضوا على ابن مُضيَّان الذي كان متأمراً في المدينة"[2].

والمُهمُّ من الكلام السابق هو:

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج١، ص٢٣٧.
(٢) دحلان، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص٢٩٥.

أن دحلان كان يَتحدَّث عن ابن مُضيَّان الذي كان موجوداً عند غزو طوسون للمدينة سنة ١٢٢٧هـ، وهو ـ وإن لم يذكر اسمه الأوَّل ـ فمعروف أن المراد مسعود ابن مُضيَّان. ولم يَتحدَّث عن ابن مُضيَّان الذي كان حَيّاً عند دخول المدينة تحت حكم سعود سنة ١٢٢٠هـ؛ وهو بَدَّاي بن مُضيَّان، بل قال: "إن ابن مُضيَّان، الذي لم يذكر اسمه الأول، كان متأمِّراً في المدينة"، أما متى تأمَّر فلم يُذكَر.

وأما بوركهارت فقد ذكر (ص٩٤) أن الزعيم الوهابي (يعني سعود بن عبدالعزيز) عَيَّن ابن مُضيَّان (ولم يذكر اسمه الأول)، الذي كان قد جعله شيخاً لكل قبيلة حرب، حاكماً للمدينة". على أنه ذكر (ص١٢٣) أن سعوداً كان قد جعل مسعود بن مُضيَّان شيخاً لكل قبيلة حرب، وأن مسعوداً لم يرغب في أن يقفل على نفسه داخل المدينة، عندما حاصرتها قوات محمد علي باشا؛ بل ذهب إلى بستان له خارجها[1]. ويفهم من عبارته أنه كان حاكماً للمدينة حينذاك.

٦ - قال الأخ فايز (ص ١٠٦): "لما وصل طوسون باشا بقوته أرض ينبع وبدأ يقيم معسكراته خارجها استعداداً للزحف صوب المدينة حدث أن فرقة سعودية مكوَّنة من قبائل جُهَيْنة وحرب الموالين للسعوديين بقيادة كُلٍّ من الشيخ جابر بن جُبَارة من شيوخ جُهَيْنة ومسعود بن مُضيَّان أغارت على العساكر واشتبكت معهم في وقعة جريئة".

وأحال القارئ إلى كتاب عبدالرحيم محمد علي وشبه الجزيرة العربية، ج١، ص٣١٣/ ٣١٤، ولم يذكر مكان الطباعة ولا سنتها ليُتأكَّد من دقَّة نقله.

والمعروف أن كتاب الزميل عبدالرحيم، الذي يحمل العنوان المذكور، جزء واحد فقط، وبالرجوع إلى هذا الكتاب في الصفحتين المشار إليهما من طبعته الأولى في القاهرة سنة ١٩٨١م لم أجد شيئاً مما قيل. والحديث في هذا الكتاب، على أيٍّ حال، يتناول الأحداث الواقعة بين سنتي ١٢٣٤ و ١٢٥٦هـ.

---

(١) انظر بوركهارت، موادلتاريخ الوهابيين، ترجمة عبدالله العثيمين، الرياض، ١٤٠٥هـ.

ولقد تَحدَّث عبدالرحيم عن وصول طوسون إلى ينبع وما حدث بعد ذلك في كتابه الدولة السعودية الأولى، الذي طُبع للمرة الثانية في القاهرة سنة ١٩٧٦م. وقد قال فيه بعد أن تَحدَّث عن استمالة طوسون لبعض القبائل: "تَمكَّنت القوات المصرية، بمساعدة القبائل التي انضمَّت إليها، من إنزال هزيمة قاسية بأوَّل فرقة سعودية تلتقي بها تحت قيادة جابر بن جُبَارة ومسعود بن مُضيَّان اللذين أسرعا إلى جانب الجيش السعودي الرئيس"[1].

ومن الواضح أن هناك فرقاً بين مدلول ما قاله الأخ فايز؛ نقلاً ـ كما قال ـ عن عبدالرحيم وما قاله عبد الرحيم نفسه.

٧ - قال الأخ فايز (ص١١١): "ويُؤكِّد محمد علي باشا نفسه استبسال المدافعين عن المدينة بقيادة مسعود بن مُضيَّان".

وأحال القارئ إلى وثيقة في فيلم بمكتبة الملك فهد.

والوثيقة التي أحال إليها سبق أن نشرها الدكتور عبدالرحيم في كتابه من وثائق الدولة السعودية الأولى في عصر محمد علي، المنشور في القاهرة سنة ١٤٠٣هـ[2]. ومن يقرأ هذه الوثيقة يجد أن محمد علي لم يُؤكِّد أن المدافعين عن المدينة كانوا بقيادة مسعود بن مُضيَّان.

أما أن مسعود بن مُضيَّان قد وقف مع من وقف من أتباع الدولة السعودية للدفاع عن المدينة فأمر ثابت. لكن ما ذكرته المصادر المختلفة لا يُرجِّح أن الدفاع عن وسطها بالذات كان تحت قيادته.

تذكر الوثيقة التي أشار إليها الأخ فايز، أن جيش محمد علي "حاصر المُتحصِّنين في داخل القلعة البالغ عددهم أربعة آلاف جندي، وضَيَّق عليهم

---

(١) انظر صفحة ٣٠٥ من كتابه المذكور.

(٢) انظر ج٢، ص ص٣٠٣- ٣٠٥ من الكتاب المذكور.

الخناق بإطلاق المدافع وإلقاء القنابل عليهم . . وحيث إنهم ثبتوا . . حصل الاضطرار إلى حفر الألغام . . حتى سَلَّ الغزاة سيوفهم واقتحموا القلعة، فأفنوا هؤلاء الطائفة الكريهة" . ولم تذكر الوثيقة من كان قائد أولئك القوم .

ويقول بوركهارت : "إن سعوداً وضع في المدينة حامية عسكرية من عرب نجد واليمن (والمقصود عسير) وسَلَّحهم بالبنادق . . وكان المُسلَّحون بالبنادق من أولئك النجديين خاصة يُشكِّلون خِيرةَ فيالق الجيش الوهابي الذين تُسنَد إليهم أصعب المهام[1]" .

ويقول ابن بشر : "إن أتباع محمد علي حاصروا المدينة ونصبوا عليها المدافع والقنابر الكبار، وهدموا ناحية قلعة البلد، وحفروا عليها السراديب وثَوَّروا فيها البارود . وكان فيها عدد كثير من جميع النواحي جعلهم سعود فيها وقت قفوله من الحج نحو سبعة آلاف رجل، لكنهم ابتُلوا بالأمراض المُؤلمة، ثم إن العساكر المصرية كادوهم بكل كيد، وسَدُّوا عنهم المياه الداخلة في وسط المدينة، وحفروا سرداباً تحت سور قلعة المدينة وملؤوه بالبارود، وأشعلوا فيه النار، فانهدم السور فقاتلهم من كان فيها من المرابطة . ثم إن أهل المدينة فتحوا للروم باب البلد، فلم يدر المرابطة إلا والرَّمْي عليهم من الروم داخل البلد، فانحاز المرابطة إلى القلعة فاحتصروا فيها، ونصب الروم عليهم القنابر والمدافع، فكثر فيها المرضى والجرحى، فطلبوا المصالحة بعد أيام، فأنزلوهم منها بالأمان . وهلك في هذه الواقعة نحو أربعة آلاف رجل من عسير وأهل بيشة والحجاز وأهل الجنوب وأهل نجد، وأمسك الروم حسن قَلْعي وعَذَّبوه بأنواع العذاب، وبعثوه إلى مصر"[2] .

ومن الواضح أن ابن بشر لم يشر إلى قيادة ابن مُضيَّان للمدافعين عن وسط المدينة .

(١) بوركهارت، مصدر سبق ذكره، ص٧٧ .

(٢) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١ ، ص ص ٢١٢ - ٢١٣ .

وقال بوركهارت ـ بعد حديثه عن نجاح قوات محمد علي في فتح ثغرة بسور المدينة نتيجة وضعهم لُغماً تحته: "إن من لجؤوا إلى القلعة من السعوديين قد استسلموا بأمان بعد انتهاء مُؤَنهم، وإنهم بعد أن خرجوا من المدينة طاردهم الأتراك وقتلوا من قتلوا منهم؛ وأغلب هؤلاء من قبيلة عسير. أما مسعود بن مُضيَّان فرغب أن لا يقفل على نفسه داخل المدينة، وذهب مع أسرته وأربعين رجلاً من أتباعه إلى بيت في بستان كان قد حَصَّنه على بعد ساعة من تلك البلدة. ولما أُخذت المدينة استسلم على شرط الأمان له ولأسرته وأتباعه الذين معه والاحتَفاظ بأمتعتهم، وهُيِّىء لسكناه بيت في ضاحية المدينة حيث وضع أسرته وأشياءه. لكن لما استسلمت القلعة نهب الأتراك بيته، وقتلوا أبناءه ورجاله، وقَيَّدوه بالسلاسل، وأرسلوه إلى ينبع. وفي أثناء مروره عبر بدر تَمكَّن من الهروب تحت جنح الظلام إلى الجبال، ولجأ إلى بدو من حرب. لكن ذَهبَ الأتراك أغرى هؤلاء فَسلَّموه إليهم بعد ثلاثة أيام ثم أُرسل من ينبع إلى القاهرة، ومن ثَمَّ إلى اسطنبول حيث قُطعت رأسه"(١).

وليس ضَرورياً أن يُقَبل كل ما ذكره بوركهارت، لكن من الواضح أن روايته تُؤيِّد رواية ابن بشر بأن عبء الدفاع عن وسط المدينة وقع على كاهل الرجال الذي كانوا في قلعتها من مناطق مختلفة.

٨ - قال الأخ فايز (ص ١١٤): "إن صح ما قيل عن إعطاء المُخصَّصات لزعماء قبيلة حرب أثناء حملة طوسون باشا فَيحتمَل أن يكون المقصود به ما دُفِع من تعويضات عن مقتل الشيخ جزا الأحمدي من قِبَل وزير محمد علي في المدينة سنة ١٢٢٩هـ".

والاحتمال الذي ذكره الأخ فايز بعيد. ذلك أن الجبرتي ذكر أن إعطاء المُخصَّصات حدث قبل استيلاء طوسون على المدينة المنورة. وكان استيلاؤه عليها

---

(١) بوركهارت، مصدر سبق ذكره، ص ص١٢٢-١٢٤.

سنة ١٢٢٧هـ، فلا يحتمل أن يكون تعويضات عن مقتل الشيخ جزا؛ لأن مقتله لم يحدث إلا سنة ١٢٢٩هـ حسب قول الأخ فايز نفسه.

الأمر الثاني: من كان أميراً لسعود على المدينة؟

قال بوركهارت؛ وهو يَتحدَّث عن دخول المدينة تحت حكم سعود بن عبدالعزيز: إنه عَيَّن ابن مُضيَّان حاكماً لها، لكنه قال: إن الرجل القَويَّ فيها هو حسن القَلْعي، الذي ظَلَّ له بعض النفوذ تحت الحكم الوهابي[١]، وقال - وهو يَتحدَّث عن استسلام المدينة لقوات طوسون -: إن سعوداً قد جعل مسعود بن مُضيَّان شيخاً لكل قبيلة حرب، ووضع تحته عدداً من القبائل الأخرى[٢]، ولم يقل، هنا، إنه كان أميراً للمدينة، بل قال أيضاً: "إن حسن القَلْعي قد اغتصب حكم المدينة قبل أن يأخذها الوهابيون"[٣]، وقال في كتاب آخر له: "إن حسن القَلْعي قد عُيِّن أغا على قلعة المدينة، فأصبح سَيِّد المدينة دون منازع. ولما أدرك عدم جدوى مقاومته لسعود - بعد استسلام البدو المحيطين بها له - دخل تحت طاعته مقابل بقائه في منصبه. وظَلَّ حاكماً للمدينة من قبَله إلا أنه لم يقترف المظالم التي كان يقترفها من قبل. ولما تَوجَّه طوسون، مرة ثانية، إلى المدينة بقوات أكبر من ذي قبل تَوقَّع حسن أن ينتصر، فتفاوض معه سراً، ووعده طوسون بإبقائه على منصبه على أن يُسهِّل لقواته الاستيلاء على المدينةَ"[٤].

وإذا اتَّضح اختلاف أقوال بوركهارت حول هذا الموضوع من مكان إلى آخر تَبيَّن أن تلك الأقوال تحتاج إلى تمحيص.

---

(١) بوركهارت مصدر سبق ذكره، ص٩٤. ومن الواضح أن لوريمر؛ وهو مؤلف متأخر العهد، قد أخذ عنه في كتابه دليل الخليج، والذي ترجمه مكتب أمير قطر ونشر دون ذكر لسنة الطباعة، ج القسم التاريخي، ج٣، ص١٠٩٤.

(٢) بوركهارت، مصدر سبق ذكره، ص١٢٤.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة الدكتور عبدالعزيز الهلابي، والدكتور عبدالرحمن الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، ص ص٣٦٠-٣٦٢.

قال الجبرتي ـ بعد أن ذكر إغداق رجال محمد علي الأموال على العُرْبان ومن ادَّعى أنه رئيس قبيلة حرب ـ: "والذي كان مُتأمراً في المدينة من جنسهم استمالوه، أيضاً، وسَلَّم لهم المدينة"(١).

وعبارة "من جنسهم" قد يراد بها أنه من حرب، وقد يراد بها أنه من أتباع آل سعود الذين كسبهم إغراء رجال محمد علي. ولذلك فليس فيها نص على أن ابن مُضيَّان كان أميراً للمدينة ذاتها.

ومن الواضح أن دحلان قد نقل عن الجبرتي ما ذكره عن إغداق الأموال وتأثيرها، وختم عبارته بقوله: "وقبضوا على ابن مُضيَّان الذي كان مُتأمِّراً في المدينة"(٢). وكلامه، على أيٍّ حال، ينصب على مسعود بن مُضيَّان، وليس فيه نص على أن سعوداً قد عيَّنه أميراً للمدينة.

أما ابن بشر فقد نص على أن أمير سعود على المدينة هو حسن القَلْعي(٣)، وحين ذكر وفاة بَدَّاي بن مُضيَّان سنة ١٢٢٠هـ، قال: "إن سعوداً ولَّى أخاه مسعوداً مكانه في بوادي حرب. وذلك يعني أن قيادتهما كانت في بوادي تلك القبيلة".

وأما مؤلف كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب؛ وهو مؤلف معاصر لكلٍّ من الإمام عبدالعزيز بن محمد وابنه سعود، فقد تَحدَّث عن دخول المدينة تَحت حكم سعود قائلاً: "وأمر (سعود) على أهالي نجد أن يقطعوا السُّبُل عن المدينة نحو خمس سنوات إلى أن طاعت المدينة على يد سعود بن عبدالعزيز، فَنَصره الله، وحكم بها رجل قَلْعي. والذي أودع اسمه القَلْعي بما أنه من أتباع السلطان الذين في القلعة"(٤).

(١) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ص ص١٤١ - ١٤٢.
(٢) دحلان، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص١٩٥.
(٣) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص٢٣٧. وانظر ج ٢، ص١٨٧.
(٤) مؤلف مجهول، كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، درسه وحَقَّقه وعَلَّق عليه عبدالله العثيمين، ط٢، الرياض ١٤١٤هـ، ص٧٢.

وقال في موضع آخر: "وأما المدينة فهي تحت حكم حسن قَلْعي، وما حولها فهي من حكم ابن مُضيَّان من قبائل حرب"[١].

ولَعلَّ الأرجح في هذه المسألة ما ذكره المؤلف الأخير؛ وهو أن المدينة نفسها كان أميرها القَلْعي، وأن ما حولها كان أميره ابن مُضيَّان.

الأمر الثالث: جهود القادة الثلاثة من آل مُضيان

من المعروف أن قبائل حرب مُتعدِّدة، وأن آل مُضيَّان كانوا قادةً من قادة حرب. ولَعلَّ أوَّل إشارة في المصادر المتوافرة عن بداية الاتِّصال بين فئة من حرب والدولة السعودية الأولى هي تلك الموجودة في تاريخ ابن غَنَّام حين قال: "إن سعود بن عبدالعزيز أغار على عربان من مُطَيْر وحرب في مكان يقال له الشَّقْرة قرب جبل شَمَّر، فأخذهم؛ وذلك سنة ١٢٠٦هـ"[٢].

وفي السنة التالية أغار حُجَيلان بن حمد، أمير القصيم، على بني عمرو من حرب[٣]. على أن دحلان أشار إلى إغارة أحد قادة الشريف غالب على قوم من حرب دخلوا "في دين الوهابي" (على حَدِّ تعبيره) قرب كُشْب؛ وذلك سنة ١٢١١هـ. لكنه ذكر أن كثيراً من تلك القبيلة جاؤوا إليه في الحناكية[٤]. وفي السنة التالية أغار على قوم "مُوهِّبين" من حرب في عُرَيق الدَّسْم[٥].

ولقد تَحمَّس كُلٌّ من بادي بن مُضيَّان وأخيه بَدَّاي لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وانضما بأتباعهما من حرب إلى الدولة السعودية، فأصبح لهما دور

---

(١) المصدر نفسه، ص١٠٥.

(٢) حسين بن غَنَّام، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، طبعة أبي بُطَين، القاهرة، ١٣٦٨هـ، ج٢، ص١٥٧، وانظر، أيضاً، ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج١، ص١١١.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٠.

(٤) دحلان، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص٢٦٥.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦٦.

مُهِمٌّ في محاصرة المدينة المنورة، وتُوفي بادي سنة ١٢١٧هـ، فَتولَّى القيادة بعده أخوه بَدَّاي الذي ظَلَّ في طليعة المحاصرين لتلك البلدة، واشترك مع الزعيم الجُهَني، جابر بن جُبَارة، في انتزاع ينبع من مُمثِّل الشريف غالب فيها سنة ١٢١٩هـ لمدة قصيرة. ومن المعروف أن المدينة استسلمت لسعود في سنة ١٢٢٠هـ، ولم تشر المصادر المتوافرة إلى جهود واضحة لأيٍّ من بادي وبَدَّاي باستثناء ما ذُكِر.

أما مسعود فقد تَولَّى القيادة بعد وفاة بَدَّاي، سنة ١٢٢٠هـ، وبعد دخول المدينة تحت الحكم السعودي، فيما يبدو، ولم تشر المصادر إلا إلى مساهمته مع آخرين في محاولة صَدِّ قوات طوسون باشا المُتَّجهة إلى المدينة المنورة.

وبذلك يَتَّضح أنه ـ مع التقدير العظيم لجهود أولئك القادة الثلاثة من آل مُضيَّان ـ فإن تلك الجهود؛ مساهمة في توسيع الحكم، أو دفاعاً عنه، كانت في محيط مواطنهم القريبة من المدينة المنورة، ولم تتجاوزه إلى مناطق أخرى.

الأمر الرابع: جهود القادة الذين أشير إليهم في كتاب "تاريخ المملكة في المرحلة الثانوية"

لقد أُشير في هذا الكتاب إلى عشرة من الأمراء والقادة؛ أمثلة لا استقصاءً، كما سبق أَن ذُكر. وليس بين هؤلاء العشرة من اقتصرت جهوده في سبيل الدولة السعودية الأولَى على منطقته فقط؛ بل كان لكُلٍّ واحد منهم جهوده المُتميِّزة في منطقته وخارجها. ولقد ذكر الأخ فايز اسمَيِ عثمان المضايفي وعبدالوهاب أبي نقطة، وكأن جهود كُلٍّ منهما لا تصل إلى جهود أيٍّ واحد من آل مُضيَّان الثلاثة: بادي وبَدَّاي ومسعود. وإذا كان قد اتَّضح مدى جهود هؤلاء الثلاثة، رحمهم الله، فإن من المستحسن إيضاح جهود كُلٍّ من عثمان وعبدالوهاب بإيجاز ليتبيَّن للقارئ إن كانت أقلَّ من جهود آل مُضيَّان أو ليست أقلَّ.

أولاً: عثمان المضايفي: كانت بينه وبين الشريف غالب صلة رحم، كما كان وزيراً له وقائداً من قادة غزواته. ومن ذلك قيادته غزوة في سنة ١٢٠٨هـ[١]. ثم انضَّم إلى الدولة السعودية عام ١٢١٧هـ.

وكان انضمامه بداية النهاية لمقاومة الشريف غالب. وقد سبقت الإشارة إلى تَزعُّمه قوات سعودية انتزعت الطائف من ذلك الشريف في ذلك العام مما مَهَّد طريق القوات السعودية إلى مكة نفسها، وعَيَّنه الإمام عبدالعزيز أميراً للطائف والحجاز؛ بل إن بوركهارت قال: "إنه عُيِّن أميراً لقبائل الطائف ومكة وما يليها شمالاً حتى منتصف الطريق إلى المدينة"[٢]. وفي سنة ١٢١٨هـ دخلت ثقيف وقبائل أخرى في طاعته[٣]. وفي سنة ١٢١٩هـ حاصر جدة - ومعه ابن شكبان - باثني عشر ألف مقاتل، كما صمد لحملة غالب على الطائف، ثم حاصر مكة[٤]. أما في سنة ١٢٢٠هـ فقد هاجم جدة مرة ثانية[٥]، ثم وصل إلى مشارف مكة في طليعة قوات تصل إلى ثلاثين ألفاً؛ منها خمسة آلاف بقيادة ابن شكبان، وعشرة آلاف بقيادة أبي نقطة، فاضطر الشريف غالب إلى المصالحة والدخول في طاعة الدولة السعودية[٦].

وفي سنة ١٢٢١هـ كان عثمان وأبو نقطة، وابن شكبان، وحُجَيلان بن حمد، وابن علي، وابن مُضيَّان، وابن جُبَارة، بأتباعهم قرب المدينة المنورة - بأمر من الإمام سعود - لإرجاع أمير الحاج الشامي إلى بلاده خوفاً من أن يتآمر معه الشريف غالب[٧].

---

(١) دحلان، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص٢٦٣ .
(٢) بوركهارت، مصدر سبق ذكره، ص٨٧ .
(٣) دحلان، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص٢٨١ .
(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص٢٨٢-٢٨٥ .
(٥) دحلان، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص٢٩٠ .
(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩١ . وقد أشار إلى دخول عثمان وأبي نقطة إلى مكة بعد الصلح وانظر ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص١٨٣ - ١٨٤ .
(٧) المصدر نفسه، ج ١، ص٢٠٠ .

وفي سنة ١٢٢٤هـ كان علي المضايفي، أخو عثمان، بأتباعه مع أبي نقطة لمحاربة الشريف حمود، حاكم جازان[١]. وفي سنة ١٢٢٥هـ حارب هو بأتباعه ذلك الشريف وهزمه[٢].

ولقد كان لعثمان جهود في صَدِّ حملة طوسون المُتَّجهة من ينبع إلى المدينة، كما كان في طليعة قوات عبدالله بن سعود في معركة وادي الصفراء. يقول الشيخ عبدالرحمن بن حسن الذي كان شاهد عيان لتلك المعركة: "أمر سعود ابنه عبدالله بأن يسير إلى قتالهم (يعني أتباع طوسون) وأمرهم أن ينزل دون المدينة. فاجتمعت عساكر الحجاز على عثمان المضايفي، وأهل بيشة وقحطان، فنزلوا بالجُدَيِّدة، فاختار عبدالله بن سعود القدوم عليهم والاجتماع بهم؛ وذلك أن العسكر المصري في ينبع، فاجتمع المسلمون في بلد حرب، وحفروا في مضيق الوادي خندقاً، وعبؤوا الجميع، فصار في الخندق من المسلمين أهل نجد، وصار عثمان ومن معه من أهل الحجاز في الجبل فوق الخندق، فحين نزل العسكر أرزت خيولهم . . ساروا على عثمان ومن معه في الجبل، فتركهم حتى قربوا منه، فرموهم بما احتسبوهم وما عَدُّوه لهم حين أقبلوا عليهم فما أخطأ لهم بندق، فقتلوا العسكر قتلاً ذريعاً . ."[٣].

وقد بذل عثمان جهوداً لمقاومة قوات طوسون بعد دخولها مكة واستيلائها على الطائف إلى أن قُبِض عليه في العاشر من رمضان سنة ١٢١٨هـ، وأُخِذ إلى مصر[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص١٩٤ .
(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص٢٠٠ .
(٣) عبدالرحمن بن حسن، ضمن الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبدالرحمن بن قاسم، الطبعة الثانية، الرياض ١٣٨٨هـ، ج ٩، ص٢٢٣ .
(٤) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص٢١٤ - ٢١٨ .

ولقد قال بوركهارت عن القبض عليه: "إن الوهابيين فقدوا بذلك أنشط وأجرأ مُوال لهم في الحجاز[١]. ولمكانته طلب سعود الإفراج عنه مقابل ألف فرانسة"[٢].

ولقد تَحدَّث الجبرتي عن عثمان بقوله: "والمضايفي زوج أخت الشريف (غالب)، وخرج عليه وانضمَّ إلى الوهابيين، فكان أعظم أعوانهم، وهو الذي كان يحارب لهم ويقاتل، ويجمع قبائل العُرْبان ويدعوهم عدَّة سنين، ويُوجِّه السرايا على المخالفين. ونما أمره واشتهر لذلك ذكره في الأقطار. ولما قبضوا عليه أحضروه إلى جدة.. ثم وصل إلى القاهرة، فضربوا المدافع من القلعة إعلاماً وسروراً بوصوله أسيراً، فلما دخل عليهم (رجال الدولة في مصر) أجلسوه معهم فَحدَّثوه ساعة.. وهو يجيبهم من جنس كلامهم بأحسن خطاب، وأفصح جواب، وفيه سكون وتؤدة في الخطاب، وظاهر عليه آثار الإمارة والحشمة والنَّجابة ومعرفة مواقع الكلام حتى قال الجماعة بعضهم لبعض: "يا أسفي على مثل هذا إذا ذهب إلى إسلامبول يقتلونه"[٣].

ثانياً عبدالوهاب أبو نقطة:

كان قد أتى إلى الدِّرعية، مع أخيه محمد، وبايعا الإمام عبدالعزيز على الطاعة، وأخذا ينشران الدعوة في عسير. ولما تُوفي أخوه انفرد بالقيادة ووَحَّد تلك المنطقة، فأصبح أميراً لآل سعود عليها. وكان له دور مُهمٌّ في العمليات العسكرية المُوجَّهة إلى الشريف غالب سنتي ١٢١٩هـ و ١٢٢٠هـ، حتى اضطر الشريف إلى المصالحة ومبايعة الإمام سعود. وكان أهمَّ شخصية دخلت مكة بعد

(١) بوركهارت، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٢٨ - ١٢٩ .
(٢) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ص ص١٤٩ - ١٥٠ .
(٣) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ص١٤٩ .

الصلح؛ إذ تبادل الهدايا مع الشريف غالب وكان مَحلَّ التقدير والإجلال[1].
وقد قال عنه مؤلف كيف كان ظهور شيخ الإسلام: "قام مع ابن سعود قومة عظيمة وقاتل أهل مكة حتى أسلموا (يعني دخلوا في طاعة الحكم السعودي)، وجميع قومه إذا اجتمعوا بقدر مئة ألف، وخيله خمسة آلاف"[2]. وقد يكون في هذا مبالغة.

وفي سنة ١٢٢٠هـ كان عبدالوهاب في طليعة قادة آخرين تَوجَّهوا ـ بأمر من الإمام سعود ـ لقتال أهل نجران بثلاثين ألف مقاتل[3]. أما في سنة ١٢٢١هـ فكان بأتباعه مع قادة آخرين قرب المدينة المنورة لِصدِّ حاج الشام، كما سبق أن ذُكِر.

وكان له دور كبير في إدخال منطقة المخلاف السليماني (جازان) تحت الحكم السعودي[4]، وإدخال مناطق من أراضي إمام اليمن الساحلية. وقد رُبطت منطقة المخلاف السليماني به إدارياً فترة، ثم نجح الشريف حمود بالانفصال عنه والاتِّصال بالدِّرعية مباشرة. ولما حدث من ذلك الشريف ما يريب الإمام سعوداً، سنة ١٢٢٤هـ، أمر عبدالوهاب بمقاتلته، فدارت بينهما معركة قُتل فيها عبدالوهاب، لكن نهايتها كانت انتصاراً لأتباعه الذين تَولَّى قيادتهم قريبه طامي ابن شُعَيْب[5].

لَعلَّه مما سبق يَتَّضح أن جهود كُلٍّ من عثمان المضايفي وعبدالوهاب أبي نقطة لا تَقلُّ عن جهود أيِّ قائد من آل مُضيَّان: بادي، وبَدَّاي، ومسعود.

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص١٨٤.
(٢) مؤلف كيف كان ظهور شيخ الإسلام، ص ص١٢٥ - ١٢٦.
(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ص١٨٦-١٨٧.
(٤) انظر عن ذلك عبدالرحمن البهكلي، نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود، تحقيق محمد العقيلي، دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، ١٤٠٢هـ، ص ص١٢٧ - ١٣٨.
(٥) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص١٩٤.

الأمر الخامس: موقف حرب من طوسون:

من يَتأمَّل تاريخ الدولة السعودية الأولى يجد أن من الحضر والبدو الذين أصبحوا تحت حكمها من لم يَنضمُّوا إليها طواعية. ولذلك لم يكن غريباً أن وُجد منهم من تَخلَّوا عن مساعدتها، أو انضمُّوا إلى خصومها، عندما رأوا أن مَن مصلحتهم فعل ذلك.

والحديث الوارد في كتاب التاريخ للصف الثالث الثانوي عن موقف حرب من طوسون منصب فقط على الفترة الواقعة بين انهزام طوسون في معركة وادي الصفراء وتَقدُّمه - مرة ثانية - من ينبع إلى المدينة. فما ذا قالت المصادر القريبة زمناً من وقوع تلك الأحداث؟

الواقع أن بوركهارت ذكر بأن بعض القبائل لم يمنعها من مساعدة طوسون، قبل معركة وادي الصفراء، إلا خوفها من بطش سعود، فقال: "إن البدو بين ينبع والمدينة؛ وبخاصة حرب وجُهَينة، مهما كانت كراهيتهم للوهابيين ورغبتهم في العودة إلى المشاركة في الإتاوات والمكاسب من قوافل الحجاج الأتراك.. كانوا مذعورين من قُوَّة سعود وبطشه. ولذا لم يجرؤوا على الحركة ما دام الأتراك لم يحصلوا على مكاسب حربية واضحة تعطيهم أملاً في نجاح حتمي إذا انضمُّوا إليهم"(١).

وكلام بوركهارت، هنا، يبقى مُجرَّد رأي خاص له. على أن طوسون تَمكَّن من استمالة فئات من عِدَّة قبائل - بينها الحُويطات، وجُهَيْنة، ومُزَيْنة - قبل معركة وادي الصفراء(٢).

---

(١) بوركهارت، مصدر سبق ذكره، ص١١٤.
(٢) طبقاً لوثيقة مؤرخة في ٥/١١/١٢٢٦هـ، عبدالرحيم، من وثائق... ج٢، ص٢٩٨.

وقد قُتل في تلك المعركة، التي حدثت في أواخر ذي القعدة سنة ١٢٢٦هـ، عدد من قَادة السعوديين بينهم هادي بن قَرْملة زعيم قبيلة قحطان. لكن قوات طوسون مُنيت بهزيمة عظيمة، كما سبق أن ذُكر.

أما ما حدث بعد تلك المعركة، مما له صلة بالأمر المُتحدَّث عنه، فقد قال الجبرتي: "وعَرَّفه (أي الباشا) كبراء العرب الذين استمالهم . . أن الذي حصل لهم ـ (رجال طوسون من هزيمة) إنما هو من العرب المُوهِّبين ـ وهم عرب حرب ـ والصفراء، وأنهم مجهودون . . والوهابية لا يعطونهم شيئاً، ويقولون لهم: قاتلوا عن دينكم وبلادكم. فإذا بذلتم لهم الأموال . . ارتدُّوا . . وصاروا معكم وملَّكوكم البلاد. فاجتهد الباشا في جمع الأموال . . ولما وصل بونابرته إلى ينبع البَرِّ أخذ في تأليف العُرْبان واستمالتهم، وذهب إليهم ابن شديد الحُوَيطي ومن معه، وتقابلوا مع شيخ حرب، ولم يزالوا به حتى وافقهم، وحضروا به إلى بونابرته، فأكرمه وخلع عليه الخلع . . " إلى أن قال: "وخص شيخ حرب بمفرده ثمانية عشر ألف فرانسة . . فعند ذلك مَلَّكوهم الأرض. والذي كان مُتأمِّراً في المدينة من جنسهم استمالوه، أيضاً، وسَلَّم لهم المدينة"(١). ولا يلزم من قوله (شيخ حرب) أن المراد مسعود بن مَضيَّان. فقد يكون المراد شيخاً آخر من مشايخ حرب.

ونقل دحلان، فيما يبدو، عن الجبرتي ما قاله عن موقف حرب. ولذلك لا داعي لإيراد ما ذكره.

على أنه ورد في وثيقة مؤرخة في ٩/ ٥/ ١٢٢٧هـ ما يأتي: "شرع في هذه الآونة في جلب العرب والعُرْبان حيث خضع من عربان جُهَيْنة أكثر من نصفها،

(١) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ص ص١٤١-١٤٢ . ولقد سبقت الإشارة إلى أن كلمة "من جنسهم" يحتمل أن يكون المراد بها من القبائل المذكورة أو من الوهابيين ويدخل ضمنهم القَلْعي.

وانحلَّ عقد عُرْبان حرب فبدؤوا يفدون إلى هنا. غير أن هذه المسألة تحتاج إلى كَمِّية كبيرة من النقود والكساوي»(١).

أما بوركهارت فقال: «أرسل محمد علي مبالغ كبيرة من المال إلى ابنه طوسون ليوزِّعها على مشايخ البدو المجاورين؛ آملاً أن يبعدهم عن الوهابية .. ونجح المَحروقي بالذهب في كسب عدد كبير من قبيلة حرب؛ وبخاصة الفرعين القَوِيَّين من تلك القبيلة: بني سالم وبني صُبْح اللذين يَحتلاَّن مَمرَّ الصفراء والجُدَيِّدة. وفي أكتوبر من سنة ١٨١٢م (مُحرَّم ١٢٢٧هـ) كان كثير من أفراد جُهَيْنة قد انضمُّوا إليه، فسار وعبر ذلك المَمرَّ الذي سبق أن هُزِم فيه، بأمان حتى وصل إلى أسوار المدينة دون اشتباكات»(٢).

وقال الرافعي: «إن طوسون تَلقَّى إمدادات مالية، بعد هزيمته في وادي الصفراء، فَمهَّدت له السبيل للاستيلاء على المدينة، فَتحرَّك من ينبع قاصداً المدينة، وانضم إليه كثير من عرب جُهَينة وحرب، واحتلَّ وادي الصفراء بدون مقاومة بفضل مؤازرة العرب الموالين له»(٣).

والرافعي، على أيٍّ حال، لم يكن معاصراً للأحداث التي كتب عنها. ولذا فإن ما كتبه ليس له وزن ما كتب معاصروها كالجبرتي وبوركهارت.

أما ابن بشر فقال: «أقبل أحمد بونابرت على العسكر، الذين في ينبع البحر مع أحمد طوسون، بعساكر كثيرة.. فضبطوا ينبع، وتبعهم بقية عُرْبان جُهَيْنة، واستالوا (هكذا أي استولوا) على ينبع النخل، ثم وادي الصفراء وبلدان بوادي حرب. ثم ساروا قاصدين المدينة، وسار معهم بوادي حرب»(٤).

---

(١) عبد الرحيم، «من وثائق» ج ٢، ص٢٦٢.
(٢) بوركهارت، مصدر سبق ذكره، ص ص١٢٠-١٢١.
(٣) عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٧٠هـ، ص ص١٣٦-١٣٧.
(٤) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص٢١٢.

ومن الواضح أن ابن بشر لم يذكر إغداق الأموال على القبائل، لكن الجبرتي أقرب زمناً إلى مجريات الأحداث المُتكلَّم عنها.

وبمقارنة المصادر المختلفة يَترجَّح أن فئات - على الأقلّ - من حرب وجُهَيْنة قد انضمَّت إلى قوات طوسون؛ سواء كان ذلك بالإغراءات المالية والهدايا، أو لأسباب ذاتية أخرى. وهذا لا يتعارض مع كون مسعود بن مُضيَّان قد بقي مخلصاً للدولة السعودية، وربما بقيت معه فئة من حرب أيضاً.

ومن كل ما سبق ذكره يَتبيَّن:

١- أن ذكر القادة والأمراء العشرة في كتاب التاريخ للصف الثالث الثانوي هو ذكر لأمثلة وليس استقصاء لجميع الأمراء والقادة في الدولة السعودية الأولى، ذلك أن من الشطط، وتحميل الطالب ما لا يستطيع حمله، أن يُذكَر الجميع.

٢- أن بعضاً - إن لم يكن كثيراً - مما قاله الأخ فايز الحربي في انتقاده الكتاب المذكور غير دقيق.

٣- أن جهود القادة من آل مُضيَّان: بادي، وبَدَّاي، ومسعود - مع تقديرها - كانت محصورة في منطقتهم: منطقة المدينة المنورة.

٤- أنه ليس بين الأمراء والقادة العشرة الذين ورد ذكرهم في الكتاب المذكور، من اقتصرت جهوده على منطقته؛ بل تجاوزتها إلى مناطق أخرى.

٥- أن جهود عثمان المضايفي وعبدالوهاب أبي نقطة، اللذين ذكرهما الأخ فايز بما يوحي أن جهودهما كانت أقلّ من جهود آل مُضيَّان، جهود لا تَقلُّ عن جهود آل مَضيَّان، إن لم تزد عليها.

٦- أن الحديث الوارد في كتاب الثانوية عن موقف حرب وجُهَيْنة منصب على فترة مُعيَّنة بين هزيمة طوسون في معركة وادي الصفراء ووصوله إلى المدينة بعد تلك المعركة. وقد اتَّضح مع مقارنة النصوص أن فئات ـ على الأقلِّ ـ من جُهَيْنة وحرب قد استمالها طوسون في الفترة المُتحدَّث عنها؛ وإن كان مسعود بن مُضيَّان بالذات ظَلَّ مُتصدِّياً له.

تعقيب على تعقيب

حول كتاب الدكتور محمد بن ثنيان الثنيان

كنت قد نشرت في صحيفة الجزيرة أربع حلقات عن قراءتي لكتاب أخي وزميلي الدكتور محمد بن ثنيان الثنيان: عبدالعزيز بن رشيد والحماية البريطانية. وكان مما قلته في الحلقة الثالثة المنشورة بتاريخ ٨/ ١/ ١٤٢٢هـ ما نصه:

"لقد أشار الدكتور محمد بن ثنيان الثنيان إلى أن وكيل ابن رشيد الذي فاتح المسؤولين البريطانيين في البصرة بشأن طلب الحماية كان اسمه فهد باشا، وأنه ظَلَّ بالنسبة لنا مجهولاً". ومن المُرجَّح جداً أن ذلك الرجل كان فهد بن هَذَّال رئيس العمارات الموجودين في العراق من عنزة. وقد حضر - فيما بعد - محادثات رَتَّبتها بريطانيا بين الملك عبدالعزيز وملك العراق. ذلك أنه هو الرجل الذي اسمه فهد واشتهر حينذاك بلقب الباشا، أو "البيق" كما كانت العامة تطلق عليه. ولقد رَجَّحت في قراءتي الأولى أن المراد بفهد باشا هو فهد بن هَذَّال. وذلك لأنه الشخصية التي تحمل لقب الباشوية حينذاك؛ معتقداً أن وكالته عن ابن رشيد في مفاتحة البريطانيين كانت مبنية على أساس أنه كان رجلاً له قيمته في جنوب العراق، ومن ثَمَّ فإنه كان المناسب للاتصال.

فكان أن عقَّب على ذلك الأخ الكريم عَيَّاد بن مخلف العنزي في هذه الصحيفة بتاريخ ٨/ ٢/ ١٤٢٢هـ. وقبل إبداء رأيي في تعقيبه أودُّ أن أُعبِّر له عن شكري الجزيل على اهتمامه، ومحاولته تصحيح ما يمكن تصحيحه، وهذا ما يرجوه ويتمنَّاه كل كاتب هدفه الوصول الى الحقيقة، وأودُّ، أيضاً، أن أُبيِّن مدى تقديري لكل قيادة كانت لها إسهاماتها في تاريخ أُمَّتنا العربية الإسلامية؛ ناهيك عن أن

---

* نُشِرت في صحيفة الجزيرة بتاريخ ١٩/ ٣/ ١٤٢٢هـ الموافق ١١/ ٠٦/ ٢٠٠١م.

تكون من قيادات هذا الوطن؛ حاضرة أو بادية. ولقد كان لقبيلة عنزة بفروعها الكبيرة المُتعدِّدة مالها من أدوار مُهمَّة، وكان لآل هَذَّال، بالذات، صدارة في منطقة القصيم، إذ اشترى منهم راشد الدريبي، عام ٩٨٥هـ تقريباً، مورد بُرَيْدة، التي أصبحت مركز الثقل في هذه المنطقة وعاصمتها الإدارية. ثم حدث أن استقر أولئك الزعماء في العراق لأسباب وظروف ليس الحديث عنها ذا صلة بموضوع التعقيب.

لقد قال الأخ الكريم عَيَّاد في مُستهلِّ تعقيبه: إن العثيمين أشار "إلى أن الشيخ فهد بن عبدالمحسن بن هَذَّال شيخ العمارات من عنزة كان وكيلاً لمصالح ابن رشيد بالبصرة وقائماً على أعماله".

ومن يقارن ما نسبه إليَّ الأخ الكريم عَيَّاد، هنا، وما ذكرته في قراءتي يَتَّضح له أني لم أقل: إن ابن هَذَّال كان وكيلاً لمصالح ابن رشيد بالبصرة"، ولم أقل: إنه "كان قائماً على أعماله"؛ بل قلت: "إن الدكتور الثنيان أشار الى أن وكيل ابن رشيد، الذي فاتح المسؤولين البريطانيين في البصرة بشأن الحماية، كان اسمه فهد باشا". وأظن القارئ الكريم يدرك الفرق بين مدلول ما قلت ومدلول ما نسب الأخ عَيَّاد إليَّ قوله. فكون فهد بن هَذَّال، أو غيره، وكيلاً عن ابن رشيد في مفاتحة المسؤولين البريطانيين في البصرة بشأن الحماية شيء، والقول: إني قلت: إنه كان وكيلاً لمصالح ابن رشيد في البصرة وقائماً على أعماله شيء آخر. وكان جديراً بأخي الكريم عَيَّاد أن يَتدبَّر ما قلته فعلاً، ثم يُعقِّب بما شاء، لا أن ينسب إليَّ شيئاً لم أقله.

على أنه من المعلوم أن شخصيةً ما يمكن أن تقوم وكالة أو نيابة عن شخصية أخرى أعلى منها مكانة، أو مساوية لها، أو أقلَّ منها - بمفاتحة جهة رسمية. ولا يلزم من قيامها بمثل هذه المهمة أنها كانت مُوظَّفة عندها أو تابعة لها.

ولقد بنى الأخ الكريم عيَّاد رأيه في نفي أن يكون الزعيم فهد بن هَذَّال قد قام بما رَجَّحت في قراءتي لكتاب الدكتور الثنيان، أنه قام به، وهو الاتِّصال بالبريطانيين في البصرة، على ما يأتي:

١- التماثل القيادي بين ابن رشيد وابن هَذَّال، فابن رشيد والي حائل، وابن هَذَّال شيخ ووالي (هكذا) قبيلة عنزة في شمال المملكة وجنوب العراق، كما أن بعض القبائل الأخرى المجاورة تخضع لنفوذه.

٢- الجانب الاقتصادي: هناك تقابل بين الجوانب الاقتصادية بين ابن رشيد وابن هَذَّال. والبعض يُرجِّح تَفوُّق الجانب المادي عند ابن هَذَّال على ابن رشيد لأن ابن هَذَّال يملك أراضي زراعية واسعة؛ إضافة إلى ثروة ضخمة من الإبل والغنم، ولأنه كان يَتلقَّى إعانات مالية ضخمة من قِبَل الحكومة البريطانية التي كانت تستعمر العراق.

٣- النفوذ السياسي: فقد كان وضع ابن هَذَّال يرتقي من شيخ قبيلة إلى شخصية سياسية مُهمَّة جداً لها نفوذها الكبير في العراق ودول الجوار.

٤- واقع العلاقة السياسية بين ابن هَذَّال وابن رشيد وبينه وبين ابن سعود: فهناك وُدٌّ معروف وعلاقة حميمة تقوم على الاحترام المتبادل بين ابن هَذَّال وابن سعود. وهناك حوادث تاريخية يرويها كبار السن الحافظون لتاريخ تلك الفترة تُؤكِّد ذلك، منها:

- أراد أحد الولاة العثمانيين أن يغزو بلاد نجد تحت حكم ابن سعود، وجَهَّز جيشاً أناخ ركبه عند ابن هَذَّال حتى يَدلَّهم على أسهل طريق يُؤدِّي إلى الدِّرعية (هكذا)، فكلَّف ابن هَذَّال أحد رجاله دليلاً للوالي، وأوصاه بأنه عندما يتوسط من كثبان النفوذ عليه أن يَنسلَّ خلسة في الليل ويرحل عنهم راجعاً. والنتيجة هي ضياع الجيش التركي وهلاكه في الصحراء. وهو ما يريده ابن هَذَّال تأييداً لابن سعود ومؤازرة له.

- بناء على تحريض من ابن رشيد قام والي (هكذا) بغداد العثماني بزيارة تَفقُّدية الغرض منها التأكُّد من صحة خبر ابن رشيد من عدمه في تقييم الولاء للسلطان العثماني في قرى نجد. وقد اصطحب معه الشيخ ابن هَذَّال في هذه الرحلة إلخ.

٥- معركة الجميماء سنة ١٩١٠م بين ابن رشيد وابن هَذَّال.

وقبل الحديث عن المراد بفهد باشا - وفق ما اتَّضح لي حتى الآن - أودُّ التحدُّث عن الأسس التي بنى عليها الأخ الكريم عَيَّاد نفيه أن يكون ابن هَذَّال هو المقصود.

لم يكن من أهداف قراءتي الموازنة بين الأمير عبدالعزيز بن رشيد والزعيم فهد ابن هَذَّال، لا قيادة سياسية، أو نفوذاً سياسياً، ولا مكانة اقتصادية، فَأيُّ مُلمٍّ بتاريخ هذا الوطن في تلك الفترة، وهي سنة ١٣١٩هـ، يدرك مكانة فهد بن هَذَّال الذي كان زعيماً لفرع مُهمٍّ في قبيلة عنزة المشهورة العظيمة إلى جانب زعماء آخرين لفروعها الأخرى لهم مكانتهم وتقديرهم، ويدرك، أيضاً، مكانة الأمير عبدالعزيز بن رشيد الذي كان حينذاك حاكماً لنجد بقبائلها المختلفة وأقاليمها المُتعدِّدة.

وكان مما ذكره الأخ عَيَّاد - في مقارنته بين المكانة الاقتصادية لكل من ابن رشيد وابن هَذَّال - أن الأخير "كان يَتلقَّى إعانات مالية ضخمة من قبَل الحكومة البريطانية التي كانت تستعمر العراق". والحادثة المُتحدَّث عنها في القراءة كانت سنة ١٣١٩هـ. وأيُّ مُلمٍّ بتاريخ المنطقة يعلم أن بريطانيا لم تستعمر العراق إلا نتيجة الحرب العالمية الأولى التي بدأت عام ١٣٣٢هـ، أما لو قيل: إن البريطانيين كانوا يدفعون مبالغ ضخمة لابن هَذَّال سنة ١٣١٩هـ فإن هذا يعني أن علاقتهم به كانت في تلك السنة وطيدة. وهذا مما يُشجِّع ابن رشيد على أن يوكله، أو ينيبه عنه، في مفاتحتهم للحصول على حمايتهم. وكان جديراً بالأخ الكريم عَيَّاد أن يَتأكَّد من الفترة المُتحدَّث عنها.

وكان مما ذكره الأخ الكريم عَيَّاد للتدليل على العلاقة الحميمة بين ابن هَذَّال وابن سعود أن " أحد الولاة العثمانيين أراد أن يغزو بلاد نجد تحت حكم ابن سعود وجَهَّز جيشاً أناخ ركبه عند ابن هَذَّال حتى يَدلَّهم على أسهل طريق يُؤدِّي إلى الدِّرعية (هكذا) إلخ.

ومن المعروف أن الدِّرعية لم تعد قاعدة للحكم السعودي بعد أن اتَّخذ الامام تركي بن عبدالله الرياض عاصمة له؛ بادئاً بذلك الدولة السعودية الثانية، وذلك عام ١٢٤٠هـ، أي قبل الفترة المُتحدَّث عنها، وهي سنة ١٣١٩هـ، بحوالي ثمانين عاماً. وعندما كانت الدِّرعية عاصمة لآل سعود - أي في عهد الدولة السعودية الأولى - وُجِّهت إلى الأراضي السعودية حملتان من العراق، الأولى بقيادة ثويني بن عبدالله، أواخر عام ١٢١١هـ وبداية عام ١٢١٢هـ، زعيم المنتفق، والثانية بقيادة علي الكيخيا، مساعد والي بغداد، سنة ١٢١٣هـ. ومن المعروف أنها لم تضع في الصحراء؛ بل وصلت إلى الأحساء، وحاصرت الحاميات السعودية فيها. أما الحملة العثمانية التي انطلقت من العراق عوناً للأمير عبدالعزيز ابن رشيد، سنة ١٣٢٢هـ، فوصلت إلى القصيم، وحاربت مع هذا الأمير في معركتي البكيرية والشنانة كما هو معروف، فهل ابن هَذَّال الذي أناخ جيش الوالي العثماني عنده، - حسب ما أورده الأخ عَيَّاد - هو الباشا فهد بن هَذَّال أو زعيم آخر من آل هَذَّال في عهد الدولة السعودية الأولى؟

وكان مما ذكره الأخ عَيَّاد للتدليل على سوء علاقة ابن هَذَّال بابن رشيد معركة الجميماء سنة ١٩١٠م/١٣٢٨هـ. ومن المعلوم أن المواقف قد تَتغيَّر بين زعيمين بين ليلة وضحاها. فصالح بن حسن بن مُهنَّا - مثلاً - كان حليفاً للملك عبدالعزيز سنة ١٣٢٢هـ، ثم انتهى الأمر به إلى أن أعتُقل وسُجن، ووَلَّى الملك بدلاً منه ابن عمه محمد العبدالله أبا الخيل؛ وذلك سنة ١٣٢٤هـ. فانضم محمد

إلى سلطان بن حمود بن رشيد وفيصل الدويش، وحاربوا الملك في معركة الطرفية سنة ١٣٢٥هـ. ثم حاصره الملك، وعزله عن إمارة بريدة.

ومن يَتتبَّع ابن بشر وحده يدرك كيف تَتغيَّر مواقف كُلٍّ من البادية والحاضرة حسب الظروف والمصالح الآنية؛ بل قد يحدث في أحيان ما لا يخطر على البال. ومن ذلك ما حدث في مناخ المُربَّع، قرب المذنب، والذي استمرت المناوشات والقتال فيه أربعين يوماً من سنة ١٢٤٩هـ؛ فقد كان أساساً ـ كما قال ابن بشر، ج٢، ص٦٠ ـ بين مُطَيْر وأتباعهم وعنزة وأتباعهم. وقد فَصَّل ذلك المؤلف الحديث عنه لأن فئات من مُطَيْر انضمت إلى عنزة، وفئات من عنزة انضمَّت إلى مُطَيْر، وفئات من حرب كانت مع أحد الطرفين، وفئات منها مع الطرف الآخر. فكان كما ختم حديثه عنه مناخاً "تنافرت فيه القرابات".

وكانت إمارة آل رشيد في سنة ١٣١٩هـ ـ وهي السنة المُتحدَّث عنها في القراءة ـ لعبدالعزيز بن متعب، الذي قُتِل عام ١٣٢٤هـ. ثم خلفه في الإمارة ابنه متعب، ثم سلطان بن حمود، ثم سعود بن حمود، ثم سعود بن عبدالعزيز، الذي وصل إلى الإمارة أواخر سنة ١٣٢٦هـ. وعلى هذا فإن معركة الجميماء، التي حدثت سنة ١٣٢٨هـ، لم تكن بين ابن هَذَّال وعبدالعزيز بن رشيد المُتحدَّث عن طلبه الحماية. بل بين ابن هَذَّال ورابع أمير بعد عبدالعزيز. فلا صلة لها بموضوع الحديث.

أما بعد:

لقد أوضحت ما وددت إيضاحه من عدم نقل أخي الكريم عَيَّاد العنزي ما نقله عني نقلاً دقيقاً، وبيَّنت ما إذا كانت الأسس التي بنى عليها نفيه أن يكون فهد ابن هَذَّال هو الذي فاتح المسؤولين البريطانيين في البصرة وكالة عن ابن رشيد ضعيفة أو غير ضعيفة. لكني - من ناحية أخرى - أكرر شكري الجزيل لأخي عَيَّاد ـ أكثر الله من أمثاله المهتمين ـ على تعقيبه. ذلك أن التعقيب دفعني إلى مراجعة المسألة

كلها. وكان أن استعنت بالله، واستخدمت المُكبِّر لقراءة الوثائق التي أورد صورها الدكتور الثنيان في آخر كتابه، فوجدت أن الذي فاتح البريطانيين؛ نيابة عن ابن رشيد، وصف بأنه مندوب، ولم يُقَل عنه "وكيل"، وأنه لم ترد إلا إشارة واحدة إلى اللقب وهي:

The Gentleman, Fahad Pasha,.. وسَبْق الاسم بكلمة the Gentleman, قد يفهم منها أن كاتب التقرير لم يكن مُتأكِّداً من أن فهداً كان يُسمَّى باشا، وإنما قال ذلك مجاملة. وسعياً إلى مزيد من البحث سألت أخي الكريم حمود بن راكان السبهان هل كان فهد السبهان يُسمَّى الباشا؟ فسأل أحد أقاربه، وأجابه ذلك القريب بأن فهداً كان يَتردَّد إلى الولايات العثمانية؛ مندوباً أحياناً من قِبَل ابن رشيد، ورَجَّح أنه قد مُنِح لقب باشا.

وفي ضوء قراءتي للوثائق الموردة في كتاب الدكتور الثنيان، والإجابة التي حصلت عليها من آل سبهان؛ إضافة الى ما ذكرته في قراءتي الأولى نقلاً عن الدكتورة سلوى الغانم تَرجَّح لَديَّ الآن أن الذي فاتح المسؤولين البريطانيين في البصرة بشأن طلب الأمير عبدالعزيز بن رشيد الحماية البريطانية كان فهد، أو فهيد، ابن سبهان.

تعقيب على وجهة نظر الدكتور سلطان بن حِثلَين في قراءتي لكتاب تاريخ قبيلة العجمان

- ١ -

كنت قد نشرت في صحيفة الجزيرة قراءة مكوَّنة من خمس حلقات عن كتاب تاريخ قبيلة العجمان: دراسة وثائقية(١). ولقد أبدى أخي الدكتور سلطان وجهة نظره في تلك القراءة في مقالة نُشرت في هذه الصحيفة يوم السبت الثامن عشر من هذا الشهر (شوال عام ١٤٢١هـ)، وتناولت وجهة نظره عدداً محدوداً من المسائل الكثيرة التي كنت قد تَحدَّثت عنها في قراءتي لكتابه.

المسألة الأولى: ما قلته عن مشاركة الدكتور كورشون في تأليف الكتاب.
وكنت قد أشرت إلى أنه قد وُضِع على غلاف الكتاب ما يفيد بأنه تأليف كُلٍّ من الدكتور سلطان والدكتور كورشون، لكن ورد في مُقدَّمته ما يضع علامة استفهام حول مشاركة الأخير في تأليفه. فقد ورد (ص١١): "وقد كان لجهود الدكتور التركي زكريا كورشون وبعض مساعديه دور كبير في استخراج العديد من الوثائق استفدنا منها في هذه الدراسة". وورد (ص١٠): "ويأتي ضمن الأسباب التي حفزت الباحث على القيام بهذه الدراسة التساؤلات العديدة التي أثيرت حول أسر الأمير راكان بن فلاح بن حِثْلَين"، وورد (ص ١١): "استفاد الباحث من مسودة الشيخ عبدالله بن فهد الدامر" وخُتِمت المُقدَّمة بذكر اسم الدكتور سلطان ابن حِثْلَين وحده.

(١) ثم نُشرت تلك القراءة ضمن كتابي قراءة في كتابات عن تاريخ الوطن، الرياض ١٤٢٢هـ، ص ص٢١٣-٢٤٩. وكان هذا التعقيب قد نُشِر في صحيفة الجزيرة بتاريخ ٢٥/ ١٠/ ١٤٢١هـ/ ١٩/ ١/ ٢٠٠١م.

فهل كان الدكتور كورشون أحد مؤلفي الكتاب - كما يفيد الغلاف - أو كان دوره استخراج الوثائق، التي استفيد منها في الدراسة، من الأرشيف العثماني فقط، وأن المؤلف هو الدكتور سلطان وحده؟

وجاءت وجهة نظر الدكتور سلطان حول هذه المسألة كما يأتي: "وضع الدكتور العثيمين علامة استفهام حول مشاركة الدكتور زكريا كورشون في تأليف الكتاب، وعَلَّل هذا التساؤل لأن مُقدَّمة الكتاب كُتبت بصيغة الفرد "الباحث"، وخُتِمت باسم الدكتور سلطان بن حثْلَين بدلاً من كتَابتها بصيغة المثنى".

فهل الدكتور سلطان دقيق في إيراد ما قلته عن هذه المسألة؟ إني لعلى ثقة بأن القارئ الكريم يرى الفرق الواضح بين ما ذكرته، حقيقة، وما قال الدكتور: إني ذكرته. فمثار سؤالي هو أن الغلاف يفيد بأن الدكتور كورشون مشترك في تأليف الكتاب، والعبارات الثلاث التي اقتبست من المُقدَّمة، إضافة إلى اختتامها بذكر اسم الدكتور سلطان وحده، تفيد بأن المؤلف واحد. وكون الدكتور سلطان قد أوضح في وجهة نظره ما قام به الدكتور كورشون من جهود في استخراج الوثائق وكتابة فصل من الكتاب لا يجيب عن السؤال المطروح الذي يهدف إلى أن يكون هناك انسجام بين ما وُضِع على غلاف الكتاب، وما ورد في مُقدَّمته. فإذا كان الدكتور كورشون قد اشترك في تأليف الكتاب فينبغي أن يُعدَّل ما ورد في المُقدَّمة من دلالات توحي بأن المؤلف هو الدكتور سلطان وحده. وإن كان دور الدكتور كورشون قد اقتصر على استخراج الوثائق - مع بعض مساعديه - من الأرشيف العثماني، كما ورد في المُقدَّمة التي لم يُبيَّن فيها إسهامه في التأليف فإنه ينبغي عدم ذكر اسمه على الغلاف، وكأنه مشترك في التأليف. إن خُلوَّ المُقدَّمة من ذكر مساهمته في التأليف، وذكرها لجهوده مع بعض مساعديه في استخراج الوثائق فقط، لا يُعبِّر عن الحقيقة التي أبداها الدكتور سلطان في وجهة نظره، ولم يسبق أن ذكرها في مُقدَّمته، وهي مساهمة الدكتور كورشون في التأليف مهما كانت

نسبته. وبهذا يَتَّضح أن الدكتور سلطان، الذي لم يُوفَّق في إيراد الأمر على حقيقته في المسألة المُتحدَّث عنها عند نشره كتابه، لم يُوفَّق، أيضاً، في إيراد ما قلته في قراءتي حولها، ولم يورد ما يُبرِّر عدم ذلك الانسجام بين ما وُضِع على الغلاف وما قيل في تلك المُقدَّمة.

المسألة الثانية: ضرب الدكتور سلطان مثلاً لإخلالي بالمنهج العلمي للنقد بتعليقي على ما ورد في الكتاب - حسب رأيه - (ص٢٩) وبحديثي عن معركة قذلة.

فماذا قلت عن هذا وذاك؟

لقد ورد في الكتاب (ص٢١) أن نزوح العجمان من نجران إلى نجد "على أرجح الأقوال في نهاية القرن الثاني عشر الهجري في عام ١١٣٠هـ".

وقلت في قراءتي تَعليقاً على هذا: "من الواضح أن العام المذكور بعيد عن نهاية ذلك القرن". فهل ما قلته خطأ؟

أما معركة قذلة فقد ذُكِر في الكتاب (ص٢٩) ما يأتي:

"في عام ١١٧٧هـ حدثت موقعة قذلة حيث ترامت الأخبار إلى أذن عبدالعزيز ابن محمد بن سعود وهو عائد من غزوته التي قام بها على سُدَير بأن جماعة من قبيلة العجمان قد تجاوزت على فريق من قبيلة سُبَيْع التي دخلت في سلك الدعوة وآمنت بها، وقتلت منهم عدداً كبيراً، فدخل عبدالعزيز بن محمد في المعركة وقتل من العجمان خمسين رجلاً".

وقد قلت في قراءتي للكتاب المُتحدَّث عنه حرفياً ما يأتي:ـ "ومما يلحظ على الكلام السابق أن كلاً من ابن غَنَّام وابن بشر، وهما المصدران القريبان من أجواء تلك الحادثة؛ زمناً وصلة بقادة الدولة السعودية الأولى، لم يذكرا حدوث قتل عدد - لا قليل ولا كثير - لرجال من قبيلة سُبَيْع على أيدي العجمان، وإنما ذكرا أن العجمان أخذوا فريقاً من سُبَيْع. وكلمة أخذوا لا تعني القتل. أما الفاخري

فإنه لم يشر إطلاقاً إلى ما وقع من العجمان على سُبَيْع، لا أخذاً ولا قتلاً، وإنما أشار فقط إلى قتل عبدالعزيز لخمسين رجلاً من العجمان وأسره لمئتين وثلاثين منهم في مكان يقال له قذلة".

وبعد أن أورد الدكتور سلطان ما قلته عن هذه المسألة قال مبيناً وجهة نظره:

"هنا نجد أن الدكتور العثيمين يعتقد بأن حادثة القتل في الكتاب لا تعتمد على مرجع يستند إليه، وكأن هذا القول منتحل بالرغم من أن هناك أربعة مصادر اعتمد عليها في نقل أحداث معركة قذلة. هذه المصادر هي الفاخري، فيلبي، خزعل، ابن غَنَّام. وبالتالي فإن هذه المعركة تَمَّ ذكرها في تلك المصادر والمراجع مع الاختلاف في الروايات".

ويبدو أن مشكلة أخي الكريم الدكتور سلطان أنه لم يحاول التأمُّل في روايات المصادر، ولا في حديثي عما قاله. فسياق كلامه في الكتاب يفيد بأن ما وقع من أخذ العجمان لفريق من سُبَيْع وما وقع من لحاق عبدالعزيز بالعجمان وقتله لعدد منهم في قذلة حادثة واحدة لأنه قال، بعد إيراد ما وقع بين العجمان وسُبَيْع: "فدخل عبدالعزيز بن محمد في المعركة، وقَتَل من العجمان خمسين رجلا". ومن الثابت أن أخذ العجمان لسُبَيْع وقع أولاً، ولما علم عبدالعزيز بوقوعه وهو في طريق عودته من غزوه لسُدَيَر لحق بالعجمان وهاجمهم في قذلة.

أما ما قلت: إن المصادر لم تذكر حدوثه فهو قتل العجمان لعدد كبير من سُبَيْع قبل حادثة قذلة، فَظَنَّ الدكتور سلطان أني أنفي وقوع قتل للعجمان في قذلة، وهذا لم يحدث مني.

ولقد ذكر الدكتور سلطان أربعة مصادر للرَّد عَليَّ في هذه المسألة. وهذه المصادر هي: الفاخري، وفيلبي، وابن غَنَّام، وخَزْعل؛ مُوهماً بأنها قد أثبتت ما نفيته. ولنبدأ بابن غَنَّام - كما يقتضي البحث العلمي - لأنه الأوَّل زمناً، فماذا قال؟

لقد قال (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، طبعة أبي بطين، القاهرة، ١٣٦٨هـ، ج٢، ص٦٤):

"فلما وصل المسلمون (والمراد أتباع الدِّرعية) إلى رغبة فإذا غزو من أهل اليمن (والمراد العجمان) قد أخذوا فريقاً من سُبَيْع في الذِّمة، ونهبه، واستولى على مال ذلك الفريق وسلبه، فأخبر ذلك الفريق عبدالعزيز في أثناء الطريق، فَشَمَّر ساعد الجدِّ والعزم، وسار في يومه . . مع من معه من أحزابه وجماعته . . لم يَثْنه البُعد والبِعاد ولا خوف ملاقاة الأجناد . . وأخذ سائراً في آثارهم مُتطلِّباً لأخبارهم، حتى وصل إلى فيفا سهلة تُسمَّى إذ ذاك قذلة، فإذا غزو اليمن قد ألقى بها رحله" . إلخ .

وبذلك يتَّضح من كلام ابن غَنَّام أمران: الأول أنه نَصَّ على أخذ العجمان المال من قبيلة سُبَيْع، ولم يذكر قتلهم لأناس منهم، لا عدد قليل ولا كثير، والثاني أن وقوع الأخذ حادثة ومهاجمة عبدالعزيز بن محمد للعجمان حادثة أخرى سببها ذلك الأخذ.

وبعد ابن غَنَّام زَمناً يأتي الفاخري، والفاخري - كما قلت في قراءتي للكتاب - لم يذكر ما وقع من العجمان على سُبَيْع، لا أخذاً وسلباً، كما ذكر ابن غَنَّام، ولا قتلاً كما ادُّعِي في الكتاب.

أما فيلبي فقد قال في كتابه ـ الذي ترجمه الديراوي بعنوان تاريخ نجد . . والمطبوع في مصر عام ١٤١٨هـ ـ (ص٨٨):

"وبعد أن مَرَّ عبدالعزيز برغابة (وصحتها رغبة) في طريقه إلى بلاده جاءته أخبار غزوة قام بها جماعة من العجمان على السبيع (وصحتها سُبَيْع) في الصحراء إلى الغرب من سلسلة الطويق (وصحتها طُوَيق) وتَغلَّب عليها (وصحة العبارة وتَغلَّبت عليهم)، فما كان منه إلا أن تَتبَّع أثر العجمان" . . إلخ .

وقول فيلبي - بغَضٍّ النَّظر عن سوء الترجمة الواضح - يَتَّفق مع قول ابن غَنَّام؛ إذ لم يذكر قتَل العجمان لأناس من سُبَيْع، لا عدد قليل ولا كثير.

وأخيراً يأتي خزعل. وهذا المؤرخ الذي لم يُتوفَّ إلا قبل مدة قصيرة، وما يقوله - إن لم يَعزه إلى مصدر - لا يصح الاعتماد عليه؛ وبخاصة إذا كان يختلف مع المصدر القريب من الحادثة وهو ابن غَنَّام. وما أورده خزعل عن رحلات الشيخ محمد؛ نقلاً حرفياً عن لمع الشهاب دون تمحيص - يُبيِّن أن كثيراً مما قاله في كتابه عن الشيخ محمد غير صحيح. فماذا قال خزعل عن الحادثة؟

قال في كتابه عن الشيخ (ص٢٤٨):

"إن صاحب نجران يَتمذهب بالمذهب الزيدي. وأما سبب إعلانه الحرب على الدِّرعية فإنه لما عاد الأمير عبدالعزيز من غزوته التي قام بها على سُدَير وعند وصوله إلى رغبة وردته الأخبار بأن جماعة من قبيلة العجمان قد تجاوزت على فريق من قبيلة سُبَيْع التي دخلت في سلك الدعوة وآمنت بها وأوسعتها قتلاً ونهباً. فأبلغ عبدالعزيز الدِّرعية بخبر هذا الحادث فأمرته الدِّرعية أن يَجدَّ في طلب المعتدين، ويسعى لاسترجاع ما استولوا عليه من أموال قبيلة مُطَير (هكذا) إلخ.

ومما يلحظ على ما قاله خزعل أنه ذكر بأن صاحب نجران كان زيدياً. وكل مُلمٍّ بالتاريخ يعرف أنه لم يكن زيدياً، وأنه ذكر بأن عبدالعزيز أمر أن يسعى لاسترجاع ما استولى عليه العجمان من أموال من قبيلة مُطَير. ومن المعروف أن قبيلة مُطَير لم يكن لها علاقة بالموضوع؛ إذ المال المأخوذ كان من سُبَيْع، لا من مُطَير. ومؤلف بمثل هذا الضعف الواضح ولم يَعزُ ما قاله إلى مصدر مع تَأخُّره عن زمن الحادثة هل يُعتَد بكلامه؛ وبخاصة وهو يخالف كلام ابن غَنَّام ثم ابن بشر من بعده؟

- ٢ -

المسألة الثالثة: ، قول الدكتور سلطان بن حثْلَين : " إن العثيمين عند تعليقه على معركة الرضيمة قال: يعتمد الحديث الموجز عن المعركة المذكورة في هذا الفصل على ما قاله عنها الشيخ عبد الله الدامر أحد نبلاء العجمان. وقد ذكر أن تلك المعركة كانت أساساً بين بني خالد والعجمان، وأن هاتين القبيلتين كانتا قطبي الرحى فيها . . ثم يضيف قائلاً: على أن كلاً من ابن بشر والفاخري وهما مؤرخان مَحلِّيان معاصران لتلك الحادثة قد ذكرا بأن معركة الرضيمة كانت بين فيصل الدويش زعيم مُطَير ومن تحالف معه من العجمان وغيرهم وبين زعيمي بني خالد محمد بن عريعر وأخيه ماجد ومن تحالف معهما من عنزة وغيرها. ثم يَتوقَّف العثيمين في مسألة أيّ الروايتين أصح وإن كان من خلال كتابته يميل إلى ترجيح رواية ابن بشر والفاخري لأنه على حَدٍّ قوله يجب أن يُؤخَذ في الحسبان التنافس الذي كان قائماً في تلك الفترة بين والي مصر ووالي العراق، وأن علاقة الدويش بالأول وطيدة وعلاقة زعيمي بني خالد بالثاني كانت جيدة" .

وفي هذا السياق تبرز لنا عدَّة أسئلة:

أولها هل حقاً تَمَّ ذكر مناخ الرضيمة بإيجاز، وأن الشيخ عبد الله الدامر ذكر أن تلك المعركة كانت أساساً بين العجمان وبني خالد كما قال العثيمين؟

والإجابة عن ذلك هي الإشارة إلى النص في الكتاب . . . التي تقول: "وقع التصادم بين العجمان وبني خالد في عام ١٢٣٨هـ في معركة مناخ الرضيمة التي كانت بين العجمان وحلفائهم من القبائل الأخرى؛ مثل مُطَير والدواسر وغيرهم من ناحية وبين ماجد بن عريعر وأتباعه من بني خالد ومن تبعهم.

ثم ذكرت رواية الشيخ عبد الله الدامر سبب القتال إلخ، وانتهت الرواية بذكر انتصار العجمان وحلفائهم. مما سبق يَتبيَّن لنا أن رواية الشيخ عبد الله الدامر لم

تكن موجزة، وأنها لم تذكر بأن قطبي الرحى هما العجمان وبنو خالد؛ بل أشارت بكل وضوح إلى خلاف ما ذكره العثيمين الذي لم يشر أيضاً إلى أن هذه المعلومات قد وردت في الكتاب.

الأمر الآخر هو لماذا لم يُرجِّح العثيمين رواية الشيخ عبد الله الدامر؟ ولماذا جعل رواية ابن بشر والفاخري هي الأقرب إلى التصديق؟" .

ثم طرح الدكتور سلطان سؤالين مما قال: "إنه تبرز لنا عدَّة تساؤلات، "الأول هل حقاً تَمَّ ذكر مناخ الرضيمة بإيجاز؟ والثاني هل ذكر الشَيخ عبد الله الدامر أن تلك المعركة أساساً بين العجمان وبني خالد؟

والكلام السابق هو ما قاله الأخ الكريم الدكتور سلطان في إبدائه وجهة نظره حول ما ذكرته في قراءتي عن معركة الرضيمة بالذات. فماذا قلت عن هذه المسألة؟ قلت:

"مما يلفت النظر عدم التقيُّد في الفصل الثاني بالحديث عما يفهم من عنوانه؛ وهو علاقة العجمان بالدولة السعودية الأولى. فقد ذُكر فيه حديث موجز عن معركة الرضيمة سنة ١٢٣٨هـ؛ وهي معركة حدثت بعد نهاية تلك الدولة بخمس سنوات (ولا أظن ذلك خافياً على الدكتور سلطان). ويعتمد الحديث الموجز عن المعركة في هذا الفصل على ما قاله عنها الشيخ عبد الله الدامر، أحد نبلاء العجمان. وقد ذكر أن تلك المعركة كانت أساساً بين بني خالد والعجمان، وأن هاتين القبيلتين كانتا قطبي الرَّحى فيها. وفي إيجاز الشيخ عبد الله لها معلومات جديرة بالتأمُّل.

على أن كلاً من ابن بشر والفاخري؛ وهما مُؤرِّخان مَحلِّيان معاصران لتلك الحادثة، قد ذكرا بأن معركة الرضيمة كانت بين فيصل الدويش، زعيم مُطَير، ومن تحالف معه من العجمان وغيرهم وبين زعيمي بني خالد، محمد بن عريعر

وأخيه ماجد، ومن تحالف معهما من عنزة وغيرها. وقد ذكر هذا، أيضاً، المؤرخ الأحسائي محمد آل عبد القادر. ولَعلَّه اعتمد على المصدرين الأخيرين. وترجيح رواية الشيخ عبد الله الدامر العجمي أو رواية ابن بشر والفاخري المعاصرين للحادثة، ومن اعتمد عليهما فيما يبدو، أمر يحتاج إلى مزيد من التدقيق. على أنه ينبغي أن يُؤخَذ في الحسبان بأنه كان هناك تنافس، في تلك الفترة، بين والي مصر ووالي العراق، وأن علاقة الدويش بالأوَّل كانت وطيدة، وعلاقة زعيمي بني خالد بالثاني كانت جيدة".

ذلك ما قلته عن الموضوع.

وأبدأ تعقيبي على ما ذكره أخي الكريم الدكتور سلطان في وجهة نظره حول قراءتي عنه بالحديث عن السؤالين اللذين أثارهما الدكتور؛ وهما:

هل حقاً تَمَّ ذكر مناخ الرضيمة بإيجاز؟ وهل ذكر الشيخ عبد الله الدامر أن المعركة أساساً بين العجمان وبني خالد؟

لقد جاء الحديث في الكتاب عن معركة الرضيمة؛ ابتداء من قول المُتحدِّث في الكتاب:

"وتَتلخَّص أحداث معركة مناخ الرضيمة" إلى آخر الحديث عنها بصفحة واحدة، وهذه المعركة قيل عنها في الكتاب: "إنها كانت نصراً حاسماً للعجمان وهزيمة ساحقة لبني خالد"، "وإن بني خالد كانوا ما يزالون يعانون من تلك الهزيمة بعد أعوام من حدوثها"، وكُرِّر هذا القول (ص٥١)، وقيل عنها (ص٢١): "إنها انتهت بنصر العجمان وحلفائهم، فبسطوا نفوذهم على الأحساء منذ ذلك التاريخ".

والقول بأن العجمان بسطوا نفوذهم على الأحساء منذ معركة الرضيمة سنة ١٢٣٨هـ لا يَتَّفق مع حقيقة أن الإمام تركي بن عبد الله أخذ الأحساء من زعماء بني خالد سنة ١٢٤٥هـ.

وأقول: إذا كانت معركة الرضيمة من الأهمِّية بالدرجة التي ذُكرت عنها في الكتاب؛ وبخاصة أن أحد قطبيها حكام منطقة مُهمَّة؛ حاضرة وباديَة، إضافة إلى من تحالف معهم من فروع قبائل أخرى، فهل الحديث عنها بصفحة واحدة موجز أو غير موجز؟

هذا الأمر متروك للقاريء الكريم. لكن من العجيب أن يلومني الدكتور سلطان على استعمال كلمة إيجاز مع أنه قيل في الكتاب نفسه: وتَتلخَّص أحداث معركة مناخ الرضيمة" إلخ. فإذا كان من كتب عنها في الكتاب نفسه قد وصف أحداثها المُوردَة بأنها مُلخَّصة فكيف يلوم من استعمل كلمة بإيجاز؟

أما السؤال الثاني وهو هل ذكر الشيخ عبد الله الدامر أن معركة الرضيمة كانت أساساً بين العجمان وبني خالد؟ فالجواب عنه كما يأتي:

لقد سيقت أحداث المعركة مُلخَّصة في الكتاب، وذُكر في الهامش (ص٤٦) ما نَصَّه: "نقلاً عن الشيخ عبد الله الدامر"، أما أن الطرَف المضاد للطرف الذي فيه العجمان كان على رأسه زعماء بني خالد فأمر لا خلاف عليه بين المصادر، بما في ذلك رواية الشيخ الدامر، وأما الطرف المضاد لبني خالد ومن معهم فكانوا - حسب رواية هذا الشيخ - بزعامة العجمان لأن سرد أحداثها جاء وكأنها ابتداء خلاف بين هؤلاء وبني خالد، وخُتم بالقول: "انتهت المعركة بانتصار العجمان وحلفائهم"، وعلى هذا فإن الشَيخ قد أوضح - كما قلت - بأن أحد قطبي المعركة بنو خالد وقطبها الآخر العجمان. وإذا كان لم يستعمل العبارة التي استعملتها فالمعنى واحد. ولقد قيل في الكتاب نفسه (ص ٤٥):

"وقع التصادم بين العجمان وبني خالد في عام ١٢٣٨هـ في معركة مناخ الرضيمة التي كانت بين العجمان وحلفائهم من القبائل الأخرى، مثل مُطَير والدواسر وغيرهم من ناحية، وبين ماجد بن عريعر وأتباعه من بني خالد ومن تبعهم".

أبعد هذا يبقى معنى لعدم اقتناع الدكتور سلطان بأن ما أثاره من سؤال حول هذه المسألة جوابه في الكتاب نفسه ؟ وهل ذكر العثيمين في قراءته عنها ما لا تفيده رواية الشيخ الدامر، وينص عليه الكتاب؟

ولقد ذكر الدكتور سلطان رأيي بالنسبة لاختلاف الروايتين قائلاً: إن العثيمين يميل إلى ترجيح رواية ابن بشر والفاخري لأنه على حَدِّ قوله: يجب أن يُؤخَذ في الحسبان التنافس الذي كان قائماً في تلك الفترة بين والي مصر ووالي العراق، وأن علاقة الدويش بالأول كانت وطيدة وعلاقة زعيمي بني خالد بالثاني كانت جيدة.

ماذا قلت، حقيقة، عن اختلاف تلك المصادر حول المعركة ؟ قلت ما يأتي:

" وترجيح رواية الشيخ عبد الله الدامر أو رواية ابن بشر والفاخري المعاصرين للحادثة، ومن اعتمد عليهما فيما يبدو - وهو آل عبد القادر - أمر يحتاج إلى مزيد من التدقيق. على أنه ينبغي أن يُؤخَذ في الحسبان . . إلخ.

وما أشرت إليه من وجود تنافس بين الواليين وعلاقة الدويش بأحدهما وعلاقة زعيمي بني خالد بالآخر لم يكن تعليلاً لترجيح روايتي ابن بشر والفاخري ومن اعتمد عليهما؛ بل هو إشارة إلى أن ذلك التنافس وتلك العلاقة كانا من أسباب - ولا أقول كل الأسباب - وقوف الدويش والزعيمين الخالدين موقفي المتعارضين. أما موقفي من اختلاف الروايات حول الموضوع فقد قلت عنه - كما ذكر سابقاً -: إن الترجيح أمر يحتاج إلى مزيد من التدقيق.

وما دام الدكتور سلطان أثار هذا الموضوع فإني أود أن أُبيِّن ما يأتي: إن الشيخ عبد الله الدامر من قبيلة العجمان. ولذلك فإن من المُتوقَّع أن يكون ضليعاً بأخبارها. لكن يبقى أمر؛ وهو أنه يفصل بين وفاته ووقوع الحادثة حوالي مئة وخمسين عاماً. أما ابن بشر والفاخري فكانا مؤرخين معاصرين لها ومُستقلَّين، فليسا من هذا الطرف أو ذاك. وإضافة إلى ذلك فإنهما كانا من المؤرخين الذين

يُكنُّون وُدّاً وتقديراً للقيادة السعودية. وكانت قبيلة العجمان، عام ١٢٣٨هـ، ذات علاقة جيدة بالإمام تركي، الذي لم يكن بعد قد أجلى بقية قوات حاكم مصر من نجد. أما الدويش فكان في تلك الفترة موالياً لذلك الحاكم لظروف ليس، هنا، مَحلٌ مناقشتها. ولو أن ابن بشر والفاخري المؤرخين لم يكونا يكتبان ما يَظنَّانه حقاً لكَان مُتوقَّعاً أن ينسبا فضل قيادة الفريق المنتصر للعجمان الموالين لآل سعود حينذاك بدلاً من نسبته إلى مُطَير التي كانت موالية لخصمهم حاكم مصر.

لقد روى الشيخ عبد الله الدامر معلومات عن ظروف معركة الرضيمة، وهي معلومات قلت عنها في قراءتي للكتاب: إنها جديرة بالتأمل. وهناك روايات مُتعدِّدة عن تلك المعركة من بينها رواية للأخ الكريم مسلط الأدغم السبيعي، الذي قال لي: إن جَدَّه سيَّاف بن مسلَّم الأدغم كان قائداً لسبيع في المعركة المذكورة. وفي روايته معلومات بعضها يختلف مع بعض ما ورد في رواية الشيخ عبد الله الدامر من معلومات عنها. على أنه لم يكن من أهداف قراءة الكتاب الدخول في تفصيلات حوادثها والمقارنة بين هذه التفصيلات في الروايات المُتعدِّدة لترجيح ما تَترجَّح صحته. ولذلك اكتُفِي في تلك القراءة بالقول: إن ترجيح رواية الشيخ عبدالله الدامر أو روايةِ كلٍّ من الفاخري وابن بشر "يحتاج إلى مزيد من التدقيق".

ومهما اختلفت تفصيلات الروايات حول ظروف معركة الرضيمة فإنه عندما حان وقت الحسم فيها - بعد طول مناخ - كان على رأس أحد الفريقين زعيما بني خالد، وكان قد أصبح - فيما يبدو - أبرز شخصية قيادية في الفريق الآخر زعيم قبيلة مُطَير، فيصل الدويش؛ الذي كان ثقله في المنطقة حينذاك واضحاً جلياً. ولَعلَّ هذا هو الذي جعل ابن بشر والفاخري يقولان: إنه كان على رأس الفريق المواجه لفريق الزعيمين الخالديين ومن معهما.

على أن الأهمَّ في الموضوع كله هو أن معركة الرضيمة لم يكن من نتائجها بسط العجمان نفوذهم على الأحساء كما قيل في الكتاب (ص ٢١)؛ إذ بقيت تلك المنطقة - كما ذُكِر سابقاً - تحت حكم بني خالد حتى عام ١٢٤٥هـ.

ولَعلَّ من المستحسن أن أختم تعقيبي بالإشارة إلى ما ظَنَّه الدكتور سلطان بي من أني أحصر مصادر تاريخ الجزيرة العربية في بعض المصادر فقط. لقد كان بحثي في الندوة الأولى لتاريخ الجزيرة العربية التي عقدت قبل ربع قرن بعنوان: "الشعر النبطي مصدراً لتاريخ نجد". ومَنْ قرأ كتابي عن نشأة إمارة آل رشيد، مثلاً، يَتَّضح له أني ممن استخدم جميع أنواع المصادر المتوافرة من كتب تاريخية وكتب رحلات، ووثائق، وشعر، وروايات شفهية. لكن من يبحث بتجرُّد عن الحقيقة التاريخية لابد أن يقارن، ويُرجِّح ما تَترجَّح لديه صحته من تلكَ المصادر. وإن أملي لكبير في أن يكون في تَأمُّل أخي الكريم الدكتور سلطان فيما نشرته عن كتابه ما يفيد في إعادة النظر وتصحيح ما يراه بحاجة إلى تصحيح.

تعقيب على مقالة الأستاذ منصور الخريجي *
حول ما كتبته عن ترجمته لكتاب رونكيير

- ١ -

كنت قد نشرت ثلاث حلقات في صحيفة الجزيرة الغراء بعنوان قراءة في كتاب عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل. وهذا الكتاب ترجمة قام بها الأستاذ منصور الخريجي لكتاب الرحالة الدانمركي باركلي رونكيير الذي زار أجزاء غير واسعة من الجزيرة العربية عام ١٩١٢م. وقد بدأ رحلته من البصرة، فالزبير، فالكويت. ثم سار جنوباً بغرب حتى بريدة حيث عاد من هناك عبر إقليم سدير، فالرياض، إلى أن وصل إلى العقير على الساحل الشرقي لجزيرة العرب. وبيَّنت في تلك القراءة ما رأيته في الترجمة المذكورة؛ مشيراً - بصفة خاصة - إلى بعض الأخطاء الواردة في تسمية عدد من الأماكن والأخطاء اللغوية غير القليلة التي كان من المستحسن تلافيها، وملمِّحاً إلى بعض الأمور التي كان يجدر بالمترجم الكريم أن يعلِّق عليها لوضوح خطورتها وبعدها عن الحقيقة. واختتمت تلك الحلقات بقولي: "إن أملي كبير في أن يكون ما كتبته مفيداً للقارىء الكريم، وأملي أكبر في أن يستمر عطاء أستاذي الفاضل، منصور الخريجي، حاضراً؛ وبخاصة أنه مؤهل لتقديم ما هو جيد ومفيد".

ولقد عَلَّق الأستاذ منصور الخريجي على ما كتبته في تلك الحلقات، ونشر تعليقه في الجزيرة يوم الاثنين الخامس والعشرين من صفر عام ١٤٢١هـ. وهآنذا أدوِّن هذا التعقيب على تعليقه استمراراً لكتابة ما قد يكون مفيداً للقارىء الكريم.

* نُشرت في صحيفة الجزيرة في حلقتين أسبوعيتين، أولاهما بتاريخ ١٠/ ٣/ ١٤٢١هـ الموافق ١٢/ ٦/ ٢٠٠٠م.

١- كنت قد كتبت في الحلقة الأولى من قراءتي لكتاب الأستاذ منصور ما يأتي :

" لقد سعدت بمعرفة الأستاذ الأديب منصور بن محمد الخريجي أول مرّة عند ما درّسني اللغة الإنجليزية مع زملائي من طلاب السنة الأولى في كلية الآداب بجامعة الملك سعود؛ وذلك حين كان معيداً في تلك الكلية. وكان نعم الرجل؛ خلقاً ومعرفة. ثم ازدادت روابط أخوّتي وتقديري ومحبتي له مع مرور الأيام. وكنت ممن سعد بقراءة كتابه اللطيف ما لم تقله الوظيفة، الذي جاء ممتعاً جميل الأسلوب والسرد" .

ويعلم الله أني لم أكتب الكلام السابق إلا إظهاراً لفضله واعترافاً بجميله. ولكني فوجئت بأنه رأى كتابتي عن كتابه وكأنها "محاولة جاهدة" لإظهار تَفوُّقي عليه. وبقدر احترامي له فإني آسف لفهمه لكتابتي الفهم الذي عبَّر عنه.

٢- قال الأستاذ منصور في تعليقه: إنه غَيَّر عنوان كتاب رونكيير من عبر الأراضي الوهابية على ظهر جمل إلى عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل بعد أن لم يجد اعتراضاً ممن استشارهم وفي مُقدَّمتهم صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز. ولقد ذكر هو نفسه في تعليقه: "أن الأهم في الترجمة هو دقَّتها أو عدم دقَّتها" ، كما قال: "إن على من يَتصدَّى للترجمة أن ينقل ما يترجمه بأمانة" . وما دام هذا هو رأيه - كما دَوَّنه في تعليقه - فإني لم أطلب منه إلا تحقيق ما يراه: دقَّة الترجمة والأمانة في نقل ما ترجم. ولا أظن أحداً يتفق مع الأستاذ منصور بأن تغيير عنوان كتاب رونكيير من عبر الأراضي الوهابية على ظهر جمل إلى عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل يَتَّفق مع ما قال في تعليقه إنه يراه، وما طلبته منه في قراءتي لكتابه.

ثم قال الأستاذ منصور:

"أما أن أجعل عنوان الكتاب عبر الأراضي السعودية على ظهر جمل - كما اقترح الدكتور عبد الله - فهذا غير ممكن لأن اسم المملكة العربية السعودية لم يكن قد استخدم في ذلك الوقت؛ وهو عام ١٩١٢م".

ومن يرجع إلى ما قلته في قراءتي للكتاب المُتحدَّث عنه يجد أني كتبت:

"إن الأستاذ الكريم الخريجي لم يُوفَّق - في نظري - في تغييره عنوان الكتاب إلى ما غَيَّره إليه. فالكتاب يَتحدَّث عن رحلة اقتصرت على جزء غير واسع من جزيرة العرب؛ وهو جزء من أراضي نجد الواقعة حينذاك تحت حكم الملك عبدالعزيز، رحمه الله، وجزء قليل من شرقي الجزيرة العربية كان تحت حكم العثمانيين. ولذلك فإن تغيير العنوان من عبر الأراضي الوهابية على ظهر بعير إلى عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل لا يبدو مقنعاً. وإذا كان هناك من يجدون حرجاً في استعمال كلمة الوهابية - ولست من هؤلاء؛ بل أرى الانتساب إلى الدعوة التي نادى بها المصلح العظيم محمد بن عبدالوهاب، رحمه الله، انتساباً مُشرِّفاً - فقد كان في إمكان الأستاذ منصور أن يجعل العنوان عبر الأراضي السعودية على ظهر بعير. ذلك أن بعض المؤلفين يطلقون، أحياناً، وصف الوهابيين على السعوديين؛ إضافة إلى أن رونكيير قصد الأرض التي يحكمها ابن سعود..."

ولقد عَلَّل الأستاذ منصور عدم إمكانية استعمال كلمة السعودية في العنوان المذكور بقوله: "إن اسم المملكة العربية السعودية لم يكن قد استُخدِم في ذلك الوقت؛ وهو عام ١٩١٢م". وهذا القول، أو التعليل، غريب أن يَصدر من رجل في منزلة الأستاذ منصور؛ علماً وأدباً وفهماً. ذلك أني لم أقل: عبر أراضي المملكة العربية السعودية حتى يكون لقوله، أو تعليله، وجه من الصحة؛ بل

قلت: "الأراضي السعودية" ، ولا أظن أن الفرق بين التعبيرين يخفى على الأستاذ منصور أو على القارىء الكريم .

لقد أقامت أسرة آل سعود دولة انطلقت من الدرعية لتشمل مناطق واسعة من جزيرة العرب . وسُمِّيت تلك الدولة لدى كثير من الكتاب الدولة السعودية الأولى . ثم قُضِي على تلك الدولة ، ولكن الإمام تركي بن عبد الله ، رحمه الله ، أعاد الحكم السعودي بدولة سُمِّيت الدولة السعودية الثانية . والدولتان قبل اتِّخاذ البلاد اسم المملكة العربية السعودية ؛ بل قبل بداية حكم الملك عبدالعزيز ، رحمه الله . فهل يقال لماذا وُصِفت كلٌّ من الدولتين بالسعودية؟

وعنوان رسالة أستاذي سابقاً، وزميلي لاحقاً، الدكتور محمد الشعفي : الدولة السعودية الأولى . . . وقد نال بها الدكتوراه من جامعة ليدز . ورسالة صلاح العقاد التي نال بها الدكتوراه من جامعة باريس عنوانها الدولة السعودية الأولى . وعنوان رسالة بيلي وايندر ، والتي نال بها الدكتوراه من جامعة بيركلي ، العربية السعودية في القرن التاسع عشر ، وعنوان أحد كتب فيلبي Saudi Arabia وهو عن البلاد السعودية من قيام الدولة السعودية الأولى إلى نهاية حكم الملك عبد العزيز . أبعد كل ما سبق يبقى وجه من الصحة لقول الأستاذ منصور بأن وصف الأراضي التابعة للملك عبد العزيز بالأراضي السعودية - قبل اتِّخاذ البلاد اسم المملكة العربية السعودية وصف غير ممكن؟

-٢-

أوضحت في الحلقة السابقة سبب حديثي عن أستاذي منصور الخريجي وثنائي عليه ، كما أوضحت سبب اعتراضي على تغييره اسم عنوان الكتاب الذي ترجمه ، وضعف دفاعه عن ذلك التغيير ، وسأواصل في هذه الحلقة ذكر ما لم يُوفَّق فيه الأستاذ في تعليقه على قراءتي للكتاب الذي ترجمه .

١ - كنت قد بيّنت بعض الأخطاء الواضحة في أسماء بعض الأماكن الواردة في الترجمة؛ وذلك نتيجة نقلها من حروف لاتينية إلى حروف عربية، كما بَيَّنت كثيراً من الأخطاء النحوية.

وقد عَقَّب الأستاذ منصور على ذلك في تعليقه قائلاً:

"عذري هو أن المسؤول في مكتبة العبيكان الذي تَولَّى أمر الكتاب هو شاب مجتهد ومثقف أكدَّ لي أن لديهم مختصين أكفاء في الجغرافيا واللغة العربية، وأنهم سوف يقومون بالمراجعة والتصحيحات اللازمة. وهو ما لم يحصل".

ومن الجدير بالذكر أن المترجم الكريم قد أورد كلمة قصيرة عنوانها: شكر (ص٧) من الترجمة؛ ونصها:

"أودُّ أن أقدِّم شكري وامتناني للأخ سليمان محمد العيسى الذي لم يبخل عَليَّ أبداً بوقته وجهده في كل مَرَّة كنت بحاجة لهما. فقد ساعدني في تنقية الكتاب مما اندسَّ بين صفحاته من غلطات نحوية وقصور في التعبير كنت أقع فيه بين آن وآخر. ولا يفوتني، أيضاً، أن أُعبِّر عن امتناني وتقديري للإخوة العاملين في إدارة الطبع والنشر في مكتبة العبيكان لما أبدوه من صبر وأناة ومساعدة كريمة إلى أن ظهر هذا الكتاب للوجود".

فهل كان المسؤول عن الأخطاء اللغوية - على الأقل - صديق الجميع الأستاذ سليمان العيسى أو أحد المختصين الأكفاء في الجغرافيا واللغة العربية في مكتبة العبيكان؟ وسواء كان المسؤول عن تلك الأخطاء الواضحة الكثيرة الأستاذ سليمان أو غيره فإن المُهمَّ لدى القارىء هو أن هذه الأخطاء موجودة في الكتاب. وقراءتي للكتاب اهتمت بالتنبيه إليها، وليس من المُهمِّ لدى القارىء مثلي أن يعرف من هو المسؤول عن وقوعها.

٢- قال الأستاذ منصور :

" يقول الدكتور عبد الله في مكان آخر من دراسته : أما أن أتباع الشيخ محمد أطلقوا على أنفسهم جماعة الدعوة فأمر لم أره في كتاباتهم . وهو بهذا يَردُّ على ما قلته في مُقدَّمتي من أن أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانوا ، أحيانا ، يطلقون على أنفسهم " الموحدون " (وصحتها لغوياً المُوحِّدين) أو " جماعة الدعوة " . وأنا لا أرى غرابة في إطلاق مثل هذه المُسمَّيات على أناس كانوا ضالين ، ثم اتَّبعوا طريق الهدى الذي بَيَّنه لهم الشيخ محمد ورجعوا إلى الإسلام الصحيح " .

وتابع قائلاً :

" وأنا أحيل الأخ عبد الله إلى كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر الحنبلي إلخ . . .

وكما كان تعليل الأستاذ منصور لعدم إمكانية وصف الأراضي التابعة للملك عبد العزيز - قبل اتِّخاذ البلاد اسم المملكة العربية السعودية - بأنها سعودية تعليلاً غير مُوفَّق أو مقبول فإن رَدَّه على قولي بأني لم أر في كتابات أتباع الشيخ أنهم وصفوا أنفسهم " بجماعة الدعوة " غير مُوفَّق ولا مقبول . لقد أظهر الأستاذ الكريم قولي " أما أن أتباع الشيخ محمد أطلقوا على أنفسهم " جماعة الدعوة " فأمر لم أره في كتاباتهم " وكأني أردُّ على قوله : " إن أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانوا ، أحياناً ، يطلقون على أنفسهم المُوحِّدين أو " جماعة الدعوة " . ومن الواضح أني لم أشر إلا إلى اسم " جماعة الدعوة " ، الذي قلت عنه : إني لم أره في كتابات أتباع الشيخ محمد . أما تَسمِّيهم بالمُوحِّدين فلم أنفه . فكيف يجمع الأستاذ منصور بين الأمرين؟ بل كيف يخطر على باله أنني أنفي تَسمِّيهم بالمُوحِّدين وأنا من بين أناس عديدين أشاروا إلى هذا التَّسمِّي . ويَتَّضح هذا في كثير من كتاباتي وفي طليعتها رسالتي للدكتوراه عن الشيخ محمد ، رحمه الله ،

بل لَعلَّ ما قاله الأستاذ منصور في مُقدَّمته (ص١٤) من تَسمِّي أتباع الشيخ محمد بالمُوحِّدين منقول من كتابي عن ذلك الشيخ الجليل، وهو الكتاب الذي أشار الأستاذ نفسه إليه (ص١١) من تلك المُقدَّمة.

٣- كنت قد كتبت في قراءتي للكتاب الذي ترجمه الأستاذ منصور ما يأتي:

"ومما ورد في مُقدَّمة دي جوري - وكان يجدر بالأستاذ منصور أن يُعلِّق عليه - أنه أشار إلى زيارة الرحالة جوارماني إلى عنيزة سنة ١٨٦٤م (١٢٨١هـ)، ونقل عنه حديثه عن أميرها من آل زامل قائلاً (ص٣١):

"لم يكن لديه (أي لدى ذلك الأمير) الهدف المزدوج للاستقلال وإحياء العقيدة بدلاً من الإصلاح فقط، أو على الأقل لو أخفى هدفه الثاني حتى يحصل على الأول لما وجد نفسه وحيداً في مواجهة فيصل بن سعود وطلال بن رشيد. لقد حاول أن يأتي بعقيدة تعتمد على وحدانية الله فقط مُدَّعياً أن الخالق لا يحتاج إلى واسطة بينه وبين أبنائه؛ حاثًّا مواطنيه على إنكار القرآن وكل الكتب المُقدَّسة الأخرى لأن كتاب الله يُقرأ من خلال أعماله. وكان هذا القول هو الذي أثار غضب العلماء المسلمين وأدَّى إلى هزيمته".

وبعد أن أوردت هذا النص، وأبديت ما عليه من مآخذ لغوية أبرزها سقوط "لو" قبل "لم يكن،" قلت: "على أن المُهمَّ، هنا، هو كلام دي جوري، الذي ترجمه الأستاذ منصور إلى العربية. فهذا الكلام كان من الأحسن - إن لم يكن من الواجب - ألاَّ يُترك بدون تعليق نظراً لخطورته واحتمال أن ينخدع به من لا يعرف شيئاً عن تاريخ هذا الوطن".

فجاء تعليق الأستاذ منصور على ما كتبته كما يأتي:

"لا أظنني في حاجة، هنا، أن أقول حقيقة واضحة هي أن عملي مقصور على الترجمة فقط وليس على دراسة تاريخية. فأنا لست مؤرخاً ولم أحاول في ترجمتي أن أُفنِّد أو أعترض أو أُصحِّح تاريخياً أو غير تاريخي".

وغير خاف على القاريء الكريم أني لم أطلب من الأستاذ منصور أن يقوم بدراسة تاريخيَّة. على أنه قد عَبَّر في مُقدَّمته للترجمة عن نظرته إلى كتابات الرحالين الغربيين، وحاول أن يُقوِّم ما كتبه رونكيير بالذات بصفة عامة، وأورد تعليقات قليلة في هوامش الترجمة. فهو فيما قام به لم يقصر عمله - كما قال في تعليقه - على الترجمة فقط، ولقد أشدت بما قام به، فقلت:

"لقد أحسن الأستاذ منصور صنعاً في إيضاحه (ص١٨) أن "رونكيير قدم إلى الجزيرة العربية ولديه أفكار وآراء عن العرب عموماً وديانتهم والوهابية بصفة خاصة، ولا مجال لتغييرها".

وكان من التعليقات التي ذكرها الأستاذ منصور على ما ورد في كتاب رونكيير تلك التي في الصفحات: ٢١، ٢٧، ٧٧ و ١٧٣؛ وهي تعليقات على أمور أقلّ شأناً وخطورة مما ورد من كلام عن أمير عنيزة من آل زامل، الذي قيل عنه (ص ٣١): إنه حاول أن يأتي بعقيدة تعتمد على وحدانية الله فقط مُدَّعياً أن الخالق لا يحتاج إلى واسطة بينه وبين أبنائه؛ حَاثًّا مواطنيه على إنكار القرآن وكل الكتب المُقدَّسة الأخرى لأن كتاب الله يُقرأ من خلال أعماله".

فهذا الكلام عن ذلك الأمير لا يحتاج إلى دراسة تاريخية، بل يكفي أن يقال في الهامش، مثلاً،: "إن ما قيل أعلاه عن الأمير غير صحيح". وعدم صحته من الأمور التي يعرفها العامي؛ ناهيك عن أستاذ فاضل مثل الأستاذ منصور. فكيف يُعلِّق الأستاذ الكريم على أمور قليلة الشأن ويستنكر إذا قيل: إنه كان من المستحسن أن يُعلِّق على هذا الكلام الخطير البعيد عن الصحة؟

ولقد ختم الأستاذ منصور تعليقه بقوله:

"وفي كُلِّ الأحوال على من يَتصدَّى للترجمة أن ينقل ما يترجمه بأمانة. أما المجالات التاريخية أو أيُّ مجالات أخرى فهي أمور مختلفة لا تدخل ضمن عمل المترجم".

وإني لأوافق الأستاذ على أن الأمانة مطلوبة في الترجمة. لكنه وقد عَلَّق على أمور قليلة الشأن في هوامش ترجمته كان جديراً به أن يُعلِّق على أمر خطير بعيد عن الصحة ولا يحتاج إلى دراسة تاريخية لنفيه. على أني أرجو أن في ما بَيَّنته في قراءتي لترجمته لكتاب رونكيير من أخطاء واضحة في أسماء بعض الأماكن والتعبيرات اللغوية ما يفيد القارىء، وأرجو، أيضاً، أن يجد فيه الأستاذ منصور بالذات ما قد يُشجِّعه على الاستفادة منه بحيث يتفادى تلك الأخطاء في طبعة الكتاب الآتية إن قُدِّر له أن يطبعه.

تعقيب على مراجعة الدكتور عبد الله بن محمد المنيف*

لتحقيق لمع الشهاب

ما أسعد الكاتب أن يجد من يَهتمُّ بما كتب، ويبدي ملحوظات على كتابته. ذلك أن المستفيد الأول مما يُبدَى من ملحوظات هو الكاتب نفسه. وفائدة القارىء هي الهدف المنشود للكاتب ولمن أبدى تلك الملحوظات.

وأخي الكريم الدكتور عبد الله بن محمد المنيف تكرَّم، فَاهتمَّ بالكتاب الذي حَقَّقته، وطبعته دارة الملك عبد العزيز؛ مشكورة عام ١٤٢٦هـ؛ وهو كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب، وأبدى ملحوظات عليه نُشِرت في مجلة الدارة (العدد الأول، السنة الثالثة والثلاثين ١٤٢٨هـ).

وتقديراً لاهتمام أخي الكريم عبدالله، وأملاً في زيادة فائدة القُرَّاء الكرام، رأيت من المناسب كتابة هذا التعقيب المختصر على ملحوظاته اللَّطيفة، جزاه الله خير الجزاء وأكثر من أمثاله.

قسَّم أخي الدكتور عبدالله ملحوظاته إلى قسمين: عامة وتفصيلية.

أولاً: الملحوظات العامة:

وقد ذكر فيها:

١- أن المُحقِّق لم يحاول البحث عن نسخة أخرى.

٢- أنه لم يضبط عنوان الكتاب.

٣- أن مُقدَّمة المُحقِّق في حاجة إلى تجديد لأن ما ورد فيها يكاد ينطبق على الوضع الثقافي قبل عشرين عاماً؛ مثل قوله (ص ١٣): إن نيبور كان أوَّل من ذكر الدعوة مع

* نُشِر هذا التعقيب في مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة ٣٣، عام ١٤٢٨هـ، ص ص٢٣١ - ٢٤٨ .

أن الفرنسيين يُعدُّون أكثر وأوَّل من تَعرَّض لأخبار الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية الأولى، وأن المُحقِّق أشار إلى أن جورج رنتز هو أوَّل من كتب علمياً عن الدعوة، وقد أشار في الهامش إلى رسالته، أيضاً، دون غيرها من الدراسات.

٤- الاعتماد على بعض الفروقات التي أوردها أبوحاكمة وآل الشيخ في تحقيقهما للكتاب من قبل. وبهذا أثقل الهوامش كثيراً بهذه الفروقات.

٥- أثقل مُقدَّمته بكثير من النقد والنقول المكرورة عن التحقيقات السابقة.

٦- غابت عنه دراسات مُهمَّة عن الكتاب؛ مثل دراسة عبدالواحد راغب المنشورة في الدارة عام ١٣٩٦هـ، ودراسة مصطفى عبدالغني المنشورة في كتابه عام ١٩٨٠م.

٧- عدم العودة إلى محاضرة الشيخ الدكتور سلطان القاسمي، الذي قال: إن صاحب اللَّمع اسمه الريقي؛ نسبة إلى ميناء ريق.

٨- عدم الترجمة للأعلام الواردة؛ خاصة العثمانية منها. انظر ص ٥٣ هـ٦ و٧ و ص٥٥ .

تلك هي الملحوظات العامة التي أوردها أخي الكريم الدكتور عبدالله بن محمد المنيف على تحقيقي لكتاب لمع الشهاب.

بالنسبة لنسخ الكتاب فالذي أعرفه أنه لا توجد له إلا نسخة خطية واحدة موجودة في المتحف البريطاني. فإن تَبيَّن في المستقبل وجود نسخة أخرى فجدير أن يستفاد منها.

وأما بالنسبة لما قيل عن حاجة المُقدَّمة إلى تجديد.. إلخ، فَأودُّ أن أشير إلى أنني قلت في تلك المُقدَّمة عن نيبور (ص٨): إن كتابته هي أُولى الكتابات التي نقلت أخبار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى أوروبا؛ وذلك في كتابه الذي

ترجمة عنوانه: رحلات عَبْر جزيرة العرب وأقطار أخرى في الشرق، وأشرت باختصار في هامش تلك الصفحة إلى نيبور ومَهمَّة رحلته، وإلى أن كتابه طُبِع في كوبنهاجن سنة ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م. وما قلته ما زال دقيقاً. فنيبور كان أوَّل أوروبي نقل أخبار دعوة الشيخ محمد ووضع أنصاره إلى أوروبا. ذلك أن كتابه طُبِع - كما ذُكر سابقاً - عام ١٧٧٢م. أما الفرنسيون - الذين قال عنهم الأخ عبدالله إنهم يُعَدُّون أوَّل من تَعرَّض لأخبار الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية الأولى - فلم يظهر من الدراسات حتى الآن ما يبرهن على أنهم نشروا شيئاً عن تلك الدعوة وهذه الدولة قبل بداية القرن التاسع عشر الميلادي؛ أي بعد ثلاثين عاماً على نشر كتاب نيبور.

وكنت قد تَحدَّثت عن المصادر الأوروبية، التي أوردت معلومات عن الشيخ محمد، في رسالتي للدكتوراه التي نلت درجتها من جامعة أدنبرا سنة ١٩٧٢م. ومن تلك المصادر المصادر الفرنسية، التي من بينها ما ترجمة عناوينها: تاريخ الوهابيين، لكورانسيز المطبوع في باريس عام ١٨١٠م، و وصف باشوية بغداد لروسو المطبوع في باريس عام ١٨٠٩م، ومذكرات عن أصل الوهابيين لريموند المطبوع في القاهرة سنة ١٩٢٥م. وقلت: إن تلك المصادر تعطي معلومات عن هجمات أنصار دعوة الشيخ على الأراضي الواقعة شمال الجزيرة العربية في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي؛ أي بعد وفاة ذلك الشيخ بحوالي عشر سنوات، لكنها ليست ذات قيمة بالنسبة للفترة المبكرة من نشاط أنصاره، وإنها - في الواقع - تسهم في إعطاء معلومات خاطئة عن مبادئهم، كما قلت: إنه يبدو أن تلك المصادر قد تَأثَّرت ببعض ما كتبه نيبور؛ مثل الادِّعاء بأن الشيخ محمداً كان ينكر قدسية القرآن ورسالة محمد، ﷺ.

وأما ما قلته في مُقدَّمة تحقيق اللَّمع عن رنتز (ص١٤) فهو: إنه أوَّل من كتب أطروحة جامعية نال بها درجة الدكتوراه من جامعة بيركلي سنة ١٩٤٨م؛

وترجمة عنوانها: محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩٢) وبداية الامبراطورية التوحيدية في جزيرة العرب. وما قلته ليس هناك ما ينفي صحته. ذلك أن المقول عن الأطروحات الجامعية. ولا توجد أطروحة عن الشيخ قبل أطروحة رنتز.

وأما الإشارة في هامش صفحة ١٤ إلى الرسالة التي نلت بها الدكتوراه فقد قلت: "ممن كتبوا رسائل جامعية عن الشيخ محمد كاتب هذه السطور". وهذه العبارة لا تحصر الكتابة في رسالتي للدكتوراه. والإشارة إليها لأسباب منها أن الكتاب المعتمد عليها والمنشور باللغة العربية متداول بين أيدي القراء؛ وبخاصة في المملكة، وأنه يشتمل على دراسة للأوضاع المختلفة في وسط الجزيرة العربية قبل ظهور دعوة الشيخ محمد، وعلى دراسة لحياته بالتفصيل، وعلى عرض وتحليل لما كتبه من مؤلفات في الدين، وعلى فصل كامل عن آرائه هو وأنصاره من جهة وآراء خصومهم من جهة أخرى في مسائل عقدية مُهِمَّة. واشتماله على كل ذلك - إضافة إلى كتابة أصله قبل ٣٥ سنة يشفع لمن أشار إليه. ومن المعلوم أن هناك كتابات كثيرة عن الشيخ من جوانب مختلفة. ولو لم تكن منها إلا ما قُدِّم في الأسبوع الذي أقامته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عنه، عام ١٤٠٠هـ، لكفى كثرة.

وأما ما ذكر في الهوامش عن أبي حاكمة وآل الشيخ فالمراد بذكره إيضاح ما إذا كانا قد التزما بما قالا: إنهما سيلتزمان به. فقد قال أبو حاكمة في مُقدَّمته لتحقيق كتاب اللَّمع (ص١١): "إنه صَوَّب إملاءه على مقتضى القواعد الإملائية المعاصرة. أما الأخطاء النحوية فتركها على حالها مشيراً إلى صوابها في الحواشي". وأوضح آل الشيخ في آخر مُقدَّمته منهاج تحقيقه قائلاً: "حاولت قدر جهدي أن يَظلَّ الأصل كما هو دون تعديل أو تغيير في النص الذي جاء في المخطوطة حتى بالنسبة لمخالفة قواعد اللغة العربية أمانة في النقل وإيماناً منا بعرض

النصوص كما وردت عن واضعها" . وإيراد ما أُورد في الهوامش عن هذين المُحقِّقين الفاضلين قُصد به المساعدة على معرفة مدى التزامهما بما قالا من عدمه .

وأما ما قيل عن إثقال مُقدَّمة تحقيقي بكثير من النقد والنقول المكرورة عن التحقيقات السابقة فالذي كُتب فيها عن تحقيق أبي حاكمة رأي للدكتور عبدالرحمن زكي وآخر للشيخ حمد الجاسر ، وثالث لي . وقد أوردت رأي الدكتور زكي لأن له سبقاً في الكتابة عن تحقيق أبي حاكمة ؛ إذ نُشرت كتابته عام ١٩٦٨م ؛ أي قبل ٣٨ عاماً ، ولأن ما قاله يشتمل على ما ينبغي التنبيه إليه . وأوردت رأي الشيخ حمد لأنه حجة في تاريخ هذا الوطن ، ولأن له سبقاً في الكتابة عن ذلك التحقيق ؛ إذ نشر كتابته الأولى عن تحقيق اللَّمع سنة ١٣٨٦هـ ؛ أي قبل ٤٢ عاماً ، ولأنه أوضح الكثير من أخطاء المُحقِّق وأخطاء الكتاب نفسه .

وأما إبداء رأيي في تحقيق أبي حاكمة وتحقيق آل الشيخ فأظن أني غير مُؤاخَذ على ذلك . وقد كتبت عن تحقيق أبي حاكمة صفحتين ، وعن تحقيق آل الشيخ صفحتين ونصف الصفحة . ولا أظنُّ في ذلك إثقالاً على القارىء . وكنت قد تَحدَّثت عن لمع الشهاب ضمن حديثي عن المصادر في رسالتي للدكتوراه التي قَدَّمتها إلى جامعة أدنبرا عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م . وقلت عنه : إنه مشتهر لدى الدارسين لحياة الشيخ محمد ، وإن مؤلفه يبدو من المُرجَّح جداً حسن الرِّيكي ، الذي ذُكر في آخره أنه حَرَّره . وبعد أن عرضت محتوياته مفصلة ؛ مشيراً إلى ما فيها من أخطاء تاريخية قلت : إنه - إضافة إلى تلك الأخطاء - يفتقر إلى تاريخ الحوادث ، وإنه - رغم عدم شدَّة عداوته مقارنة بمصادر معادية أخرى - ليس محايداً كما يعتقد أبوحاكمة . بل إنه يَعدُّ دعوة الشيخ محمد بدعة ، وردَّه في آخر الكتاب على ما قال : إنه من أصول تلك الدعوة وفروعها دليل على عدم حياده .

وكنت قد ألّفت كتاباً عنوانه العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت، وصدرت الطبعة الأولى منه عام ١٤١٠هـ. وقلت في مُقدَّمته (ط٤، العبيكان ١٤١٨هـ، ص ١٩):

"تَحدَّث (أبو حاكمة) عن الرِّيكي على أنه "ناسخ"، وأنه "نسخه" سنة ١٢٣٣هـ". ومن يرجع إلى أصل الكتاب يجد أنه قيل في آخره: "وقع الفراغ من تحرير هذا الكتاب . . . كتبه العبد الجاني حسن بن جمال بن أحمد الرِّيكي". وكلمتا التحرير والكتابة تختلفان عن كلمة النسخ؛ إذ يقصد بهما، عادة، التأليف. ثم إن الرِّيكي قد ذكر بأنه فرغ من تحرير الكتاب في السادس والعشرين من مُحرَّم سنة ١٢٣٣هـ. وكان قد أورد خبراً حدث قبل هذا التاريخ بأربعة أيام فقط. وهذا مما يُرجِّح أنه هو المؤلف؛ إذ من المستبعد أن يُتمَّ ناسخ نسخ مؤلف في تلك المدة القصيرة. وبناء على ذلك فإن من المُؤكَّد تقريباً أن الرِّيكي هو مؤلف الكتاب".

وأما ما قيل عن قول الشيخ الدكتور سلطان القاسمي عن صاحب كتاب اللَّمع: إن اسمه الريقي فصاحب الكتاب نفسه كتبه الرِّيكي بالكاف. فهل يلام المُحقِّق إذا أورد الكلمة كما كتبها صاحب الكتاب نفسه؟ ومن المعروف أن سكان تلك الجهات يستعملون، أحياناً، الكاف محلَّ القاف.

أما ما قيل عن عدم ترجمة المُحقِّق للأعلام فإن الأخ عبدالله لم يذكر إلا ثلاثة من هؤلاء. وقد بَيَّن المُحقِّق أنه لم يجد في المصادر المتوافرة لديه معلومات عنهم.

ثانياً: الملحوظات التفصيلية:

١- قال الأخ الكريم الدكتور عبدالله المنيف: إن تاريخ ابن غَنَّام روضة الأفكار طُبع في الهند سنة ١٣٣٧هـ، وليس سنة ١٣١٩هـ كما ذُكر في تحقيق اللَّمع. وما قاله هو الصحيح، فجزاه الله خيراً على هذا التنبيه. وكان ذكره عام ١٣١٩هـ خطأ مطبعياً.

٢- قال الأخ عبدالله: "أشارت إحدى المصادر (وصحة العبارة: أشار أحد المصادر) الفرنسية إلى أن مؤلف كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، الذي سبق أن حَقَّقه كاتب هذه السطور ونشرته دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٠٣هـ، لم يكن مجهولاً كما ورد مُحقَّقاً؛ بل إن مؤلفه سليمان النجدي. ولم يذكر الأخ عبدالله ذلك المصدر. ولَعلَّه قصد الإشارة إلى كتابة الزميل الأستاذ الدكتور محمد خير البقاعي، التي نُشرت في صحيفة الجزيرة بتاريخ ٢٢/ ١٢/ ١٤٢٦هـ. والدكتور البقاعي رَجَّح في كتابته القَيِّمة أن يكون اسم ذلك المؤلف سليمان النجدي. وربما تَوصَّل - إن شاء الله - إلى ما يجعله مُتأكداً من ذلك. على أن هذه الكتابة - كما يُرَى - لم تُنشَر إلا بعد ثلاثة وعشرين عاماً من نشر ذلك الكتاب مُحقَّقاً.

٣- قال الأخ عبدالله في تعقيبه المُقدَّر: أشار المُحقِّق إلى أن عنوان المجد لابن بشر طُبِع مختصراً، ثم توالت الطبعات، إلا أن المُحقِّق لم يذكر إلا طبعة واحدة؛ وهي التي اعتمد عليها مع أنها ليست الأجود. أما تاريخ الطبع فكان عام ١٣٢٨هـ".

أما تاريخ طباعة كتاب عنوان المجد فما قاله الأخ عبدالله صحيح. وما ورد في هامش تحقيق اللَّمع خطأ واضح أنه مطبعي؛ إذ لا يعقل أن يكون الكتاب طُبِع عام ١٢٣٨هـ ومؤلفه قد تُوفِي عام ١٢٩٠هـ.

ولقد قلت في إشارتي إلى تاريخ ابن بشر: إنه "طُبِع عِدَّة مرات منها الطبعة الثانية من قِبَل وزارة المعارف السعودية عام ١٣٩١هـ بتحقيق عبدالرحمن آل الشيخ؛ وهي المعتمدة في هذا العمل". فالإشارة إلى تَعدُّد طبعاته موجودة، لا كما قد يفهم من عبارة الأخ عبدالله عدم وجودها. والمُحقِّق لم يكن في صدد

دراسة تاريخ ابن بشر وتحقيقه حتى يذكر كل طبعة من طبعاته؛ بل كان يريد الإشارة إلى الطبعة التي رجع إليها من تلك الطبعات.

٤- قال الأخ عبدالله: ذكر المُحقِّق أن ابن بشر ذكر سوابقه مُتفرِّقة في ثنايا الكتاب في أكثر نسخ كتابه، إلا أن آخر نسخة من الكتاب - وقد تكون بخطه - جعل فيها ابن بشر سوابقه في أوَّل كتابه، فأصبح منطقي التسلسل يبدأ من عام ٨٥٠هـ وينتهي بعام ١٢٦٧هـ.

والذي ذكره المُحقِّق (ص١٢) هو أن "مما يلفت النظر أن المؤلف ابن بشر لم يغفل تسجيل الحوادث التي وقعت قبل سنة ١١٥٧هـ. بل إنه سَجَّلها؛ ابتداء من عام ٨٥٠هـ، لكنه وضعها مُتفرِّقة في ثنايا حديثه عن الدولة السعودية؛ وذلك في أكثر نسخ تاريخه". ومن تَأَمَّل نسخ تاريخ ابن بشر المخطوطة والمطبوعة يجد أن أكثرها ينطبق عليه ما قيل عن وضعه السوابق مُتفرِّقة في ثنايا كتابه. ولقد نَصَّ ذلك المؤرخ نفسه على ما قام به؛ إذ قال (ص١٦ من طبعة وزارة المعارف الثانية، التي ذكر مُحقِّقها آل الشيخ، رحمه الله؛ أنها نسخة المتحف البريطاني): "إن بعض من سبق من علماء نجد أرَّخوا تأريخات، ورسموا ترسيمات قَصَّروا فيها عن المطلوب، ولكن لا تخلو من فائدة في معرفة بعض الحوادث والأماكن وسني الجدب والخصب ومعرفة اختلاف أهل نجد وافتراقهم وتَغيُّر عقائدهم قبل ظهور هذا الدين (أي دعوة الشيخ محمد) ومعرفة نعمته بعد ذلك وما جاء في ضمنه. وهي قبل هذا الكتاب متصلة به. فلا رأيت أن أتركها ولا أبدأ بها هذا الكتاب لأن السنين التي بعدها هي التي لأجلها وُضِع الكتاب... فهي أحق بالتقديم لفضلها وفضل أهلها.. فأردت أن أدخل السنين السابقة بين سني هذا الكتاب منتشرة فيه متتابعة؛ كل سنة سابقة تحت كل سنة لاحقة، والعلامة عليها قولي: "سابقة". ووردت عبارة ابن بشر هذه، أيضاً، في نسخ أخرى من كتابه بينها طبعة البابطين عام ١٣٧٣هـ.

على أن سوابق ابن بشر وردت قبل السنوات التالية لها في النسخة الخَطِّية، التي قَدَّم لها مشكوراً تقديماً جيداً الأخ عبدالله المنيف، وأصدرتها مكتبة الملك عبدالعزيز قبل أربع سنوات. ومُحقِّق كتاب اللَّمع، كاتب هذه السطور، في ذكره لتاريخ ابن بشر لم يرد دراسة هذا التاريخ - كما سبق أن ذكر - حتى يَتوجَّب عليه دراسة مخطوطاته وطباعاته المختلفة.

٥- قال الأخ الدكتور عبدالله: "ذكر المُحقِّق أن دحلان من أشدِّ المؤرخين تَحاملاً على الدعوة الإصلاحية، وإن كنت أعتقد أنه لو اطَّلع على ابن عبدالشكور لوجد أنه يفوق دحلان عداوة وتَحاملاً وألدُّ خصاماً".

ولقد اطَّلعت على كتاب ابن عبدالشكور، واطَّلعت على كثير من الكتابات؛ مخطوطة ومطبوعة، المتحاملة على دعوة الشيخ محمد وأنصاره. وبعضها أشدُّ حدَّة من هذا المؤلف ومن دحلان. ومن بين هؤلاء الحَدَّاد. على أني واثق كل الثقة أن القارىء الكريم لن يفهم من عبارة: "من أشدِّ المؤرخين تحاملاً" أن المراد القول بأن دحلان أشدُّ المؤرخين تَحاملاً. ولقد جمع - رحمه الله - بين ما ذكره في تاريخيه خلاصة الكلام و الفتوحات الإسلامية من قدح بالدعوة وصاحبها وأنصارها وبين ما كتبه عنها مستقلاً في كتاب عنوانه: الدُّرَر السنية في الرَّد على الوهابية.

٦- قال الأخ الدكتور عبدالله: "صَحَّح المُحقِّق كلمة "العضلات"، وقال: إن صحتها المضلات، وأنكر على من سبق في تحقيقه للكتاب آل الشيخ، وقال: إنه ذكر أنها المعضلات مع أن المُحقِّق لو رجع إلى لسان العرب لَتبيَّن له صحة الكلمة".

ومن يرجع إلى الموضع الذي أشار إليه الأخ عبدالله (ص٤٧، هـ٢) يجد أن عبارة المُحقِّق: "هكذا وردت في الأصل (أي العضلات). وأوردها آل الشيخ "المعضلات" دون إشارة إلى كتابتها في الأصل. ولعل صحتها: "المضلات".

فالعبارة تَدُلّ على أن آل الشيخ أورد كلمةً غير التي في الأصل دون إشارة إلى تغييره لها. وهذا خلاف ما التزم به في مُقدَّمة تحقيقه. ثم إن الكلمة في الأصل ليس فيها إلا حرف واحد بين أل التعريف والضاد. وهذا الحرف يمكن أن يقرأ عيناً أو ميماً. وقراءتها ميماً أقرب إلى الصحة على أساس حمد الله المبين لما يضل وكاشفه. وما دامت كلمة "المضلات" منسجمة من حيث المعنى مع العبارة فهي أقرب إلى الصحة لأنها، أيضاً، سالمة من إضافة حرف إليها لتصبح "المعضلات". وأما أن كلمة "المعضلات" بحدٍّ ذاتها عربية صحيحة فأمر معروف، لكن هذا لا دخل له بمسألة قراءتها في المخطوطة.

٧- قال الأخ عبدالله: "إن إنكار أسماء الأبناء يجب أن يكون بحذر لأن الأسماء قد تكون لأبناء ماتوا صغاراً، ولم يكن لهم ذكر"؛ وذلك في تعقيبه على ما أشار إليه كاتب هذه السطور (ص٧٢، هـ١) من أنه لم يكن للشيخ محمد ولدان هما ناصر وعبدالوهاب.

وعبدالرحمن آل الشيخ، الذي هو من أسرة الشيخ محمد وعالم بنسبه، لم يذكر في كتابيه علماء الدعوة و مشاهير علماء نجد ناصراً وعبدالوهاب من أولاد الشيخ محمد، وكذلك عبدالله البسام في كتابه علماء نجد.. لم يذكرهما. لكن يَظلُّ ما قاله الأخ عبدالله وجيهاً. فنفي الأسماء إذا وجدت في مصدر ما ينبغي أن يكون بحذر، ويبقى تعليله، أيضاً، وجيهاً. وكان الأولى بكاتب هذه السطور أن يقول: إن المصادر الأخرى كآل الشيخ والبسام لم تذكر الولدين ناصراً وعبدالوهاب من أبناء الشيخ محمد. وعدم ذكرهما ذلك - إضافة إلى أخطاء مؤلف اللَّمع بنسب الشيخ وكثير من سيرة حياته؛ وبخاصة أسفاره وبداية دعوته في نجد - يُرجِّح أنه لم يكن له ولدان بهذين الاسمين.

٨- قال الأخ عبدالله: إن اسم عمرو (ص ٦٣) الوارد في سلسلة نسب الشيخ محمد صحته عمر، واسم حَيّ البُحَيْري (ص٧٤) صحته البُجَيري. وما

قاله صحيح، فله الشكر على التنبيه إلى ذلك، وله الشكر، أيضاً، على تنبيهه إلى ترتيب رقمي الهامشين ٢و٣ في صفحة٨٦ . على أن آل الشيخ، رحمه الله، وضع الاسم عمرو في هامشه على اللَّمع (ص١٨، ص١). ولعلَّ ذلك كان خطأ مطبعياً.

٩- قال الأخ عبدالله: إن زعيم بني خالد ورد (ص ص٨٧ و٨٨ و٩١) باسم عَرْعَر - وهذا خطأ - دون توضيح في الهامش لصحة الاسم المتعارف عليه في المصادر التاريخية وعند أهل المنطقة؛ وهو عَرَيعر.

والواقع أن اسم ذلك الزعيم قد ورد باسم عَرْعَر ليس في اللَّمع فحسب؛ بل في مصادر أخرى. فنيبور أورده بالحروف اللاتينية (Arar ج٢، ص١٣٢). والمؤرخ الأحسائي محمد بن عبدالقادر أورده كذلك في تحفة المستفيد (ج٢، ص ص ١٢٨-١٣٠). وبعض الأشعار العامية المعاصرة لذلك الزعيم أوردته، أيضاً، باسم عَرْعَر (انظر خيار ما يلتقط من الشعر النبط، ج١، ص ص٧٠-٧٣). فما دامت هذه المصادر قد أوردته باسم عَرْعَر فما الدَّاعي لتغييره إلى عُرَيعر خلافاً لما أورده صاحب اللَّمع.

وكون بعض المصادر؛ وبخاصة التي كانت ضدَّه حينذاك، قد سَمَّته عُرَيْعراً بالتصغير لسبب من الأسباب، لا ينفي كون اسمه عَرْعَراً. وكون اسم عُرَيْعر أصبح مألوفاً ليس غريباً. فأحياناً يُصغَّر الاسم، ثم يصبح هو اللَّقب للأسرة مع مرور الوقت. وجد أسرة كاتب هذه السطور - مثلاً - كان اسمه عثمان، فصُغِّر، وأصبحت أسرته آل عثيمين.

١٠- أخذ الأخ عبدالله على كاتب هذه السطور رسم كلمة العُجْمان بضم العين، وقال: إن المعروف أنها مكسورة.

ولقد أورد الاسم بالضم "العُجْمان" شيخنا حمد الجاسر، رحمه الله، في

معجم قبائل المملكة، ج٢، ص٤٥٢، والمؤرخ الزِّركلي، رحمه الله، في شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ج١، ص ص ٦٤، ٧٥، ١٠٣ و٢٠٢ . وكون العامة تنطق الاسم بكسر العين ليس دليلاً على أن كتابته بضمها خطأ . ولو كتبت بعض الأسماء وَفْق نطق العامة لوجب أن تكتب بُرَيْدة: "إبْرَيْده"، وعُتَيْبة "إعْتَيبه" وهكذا.

١١- قال الأخ عبدالله: أضاف المُحقِّق (ص١٧٦) عنواناً جعله بين قوسين عن وفاة الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود مع أن هذا العنوان ليس موجوداً في المخطوط.

وما قاله صحيح، لكن جعل ما أضيف إلى الأصل بين قوسين يعني أنه ليس منه. بل إنه - إضافة إلى هذا - قد ذُكر في الهامش ما يأتي: «مابين القوسين لم يكن في الأصل، لكن لأن المؤلف تَحدَّث فيه عن وفاة عبدالعزيز أضيف إلى العنوان».

١٢- قال الأخ عبدالله؛ تَعقيباً على ما ورد (ص١٧٦، هـ٥) من أن وفاة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانت - اعتماداً على ابن غَنَّام - في شوال سنة ١٢٠٦هـ: كثيراً ما يَتكرَّر في المصادر جعل وفاته في شوال. وهذا بخلاف الصحيح؛ إذ إن هذا التاريخ المنقول عن ابن غَنَّام هو تاريخ ابتداء المرض به. أما تاريخ وفاته الحقيقي - كما يذكر ابن بشر - فهو في ذي القعدة من السنة المذكورة.

فما الذي قاله ابن غَنَّام؟

قال (ج٢، ص١٥٤ من طبعة أبي بطين): "وكان ابتداء المرض به، رحمه الله، في شوال، ثم كان يوم الاثنين من آخر الشهر وفاته" . وبذلك يَتبيَّن أن ما قاله ذلك المؤرخ هو أن ابتداء المرض وحدوث الوفاة في شوال. أما ابن بشر فقال: وكانت وفاته في ذي القعدة من السنة المذكورة (١٢٠٦هـ). ومن المعلوم أن

ابن غَنَّام كان معاصراً للشيخ محمد، وعاش أواخر حياته في الدِّرعية. أما ابن بشر فَوُلد بعد وفاة الشيخ بأربع سنوات. فهل يعتمد الباحث على المصدر الأوَّل؛ وبخاصةَ أن صاحبه كان مُقرَّباً من المُتحدَّث عنه، أو على من أتى بعده؟

١٣- قال الأخ عبدالله: "إن المُحقِّق عَلَّق على كلمة الأوغان الواردة في المتن، فجعلها (ص٢٧٥) الأفغان"، وهذا غير صحيح. فالأوغان هم سكان السليمانية في شمال العراق، وهم إحدى القبائل العربية المعروفة.

لقد بدا لي أن صحة الاسم الأفغان؛ وبخاصة أنها وردت مع الترك وأهل بخارى. على أنه من المعلوم أن بلدة السليمانية لم تُنشأ - كما ذكر الأستاذ علي الصيخان في تعقيبه المنشور في الدارة، العدد ٤، ١٤٣٢هـ، على مراجعة الأخ عبدالله المنيف - إلا عام ١١٩٩هـ، وأن الأوغان، أصلاً، من سكان خراسان، وأن من المرجح أنهم غير عرب.

١٤- قال الأخ عبدالله: إن المُحقِّق تَحلَّل من ميزة تمييز الشيخ حسين بن محمد ابن عبدالوهاب أنواع التمر باللَّمس، وقال: إن ذلك أمر مُتيسِّر. ثم سأل الأخ عبدالله: ما قول المُحقِّق فيمن يُميِّز من أهل البادية بين نوع النبات الذي تُوقَد به النار وتُعمَل عليه القهوة؟

ما واقع هذه المسألة؟ لقد ذكر صاحب اللَّمع أن الشيخ حُسيناً، الذي كان أعمى، كان يُميِّز الأحمر من البُسْر من الأصفر بالقوة اللَّامسة. وعَلَّق المُحقِّق على ذلك بقوله: "إن صح ما ذكره المؤلف فمن المحتمل أن أصناف النخل كانت محدودة العدد في الدِّرعية حينذاك، وأن تَشكُّل أحجام بُسْرها كان معروفاً. ولذا خبر الشيخ مع مرور الوقت تلك الأحجام وأُخبر بألوانها، فأصبح يعرف البُسْر بِلَمْس حجمه". هل ينطبق كلام المُحقِّق مع ما نقله الأخ عبدالله عنه؟ إن

الاحتمال الذي قاله المُحقِّق وارد. ذلك أن من غير المُرجَّح - إن لم يكن من المستبعد - أن يعرف الأعمى الَّلون بمجرد الَّلمس. أما تمييز أهل البادية - وغير البادية ممن تَهمُّهم القهوة - بين قهوة عُملت على نوع من الحطب ونوع آخر فهذا يساعد في حصوله الشَّم والذَّوق.

١٥- قال الأخ عبدالله: ذكر المؤلف نعومة عباءة الإمام سعود بقوله: يشبه الكلل. فَعلَّق المُحقِّق قائلاً: الكلل يبدو اسماً معروفاً زمن المؤلف في منطقة الخليج. والمعروف أن الكلل يقصد به ورق يَعرفه المُحقِّق جيداً.

وكاتب هذه السطور يقول: لو أنه يعرفه جيداً لقال ذلك.

١٦- قال الأخ عبدالله عن فهارس الأعلام: يبدو أن جهة النشر - وهي دارة الملك عبدالعزيز - هي التي قامت بذلك، فوقع فيها ما وقع من خلل يَدلُّ على عدم معرفة لدى من قام على الفهرس.

وكاتب هذه السطور يسعده أن يطمئن الأخ عبدالله بأنه هو الذي وضع الفهارس. فإن رأى القارىء الكريم فيها ما رآه من خلل فمسؤوليته تقع عليه وساحة الدارة بريئة منه.

وفي الختام لا يسع كاتب هذه السطور إلا أن يُكرِّر التعبير عن شكره للأخ عبدالله المنيف على اهتمامه بالكتاب المُحقَّق وبتحقيق مُحقِّقه؛ سائلاً الله أن يكون في هذا التعقيب على مراجعته ما يفيد.

مما صدر للمؤلف

صدر للمؤلف في مجال تخصصه؛ وهو تاريخ المملكة العربية السعودية، ثلاثة وعشرون كتاباً؛ ستة عشر تأليفاً، وأربعة ترجمة من الإنجليزية إلى العربية، وثلاثة دراسة وتحقيقاً. وهي:

أ - تأليفاً:

١- أنتِ يا فيحاء ملهمتي، عنيزة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٢ - بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، ط ٢، ١٤١١هـ.

٣- تأمُّلات في التاريخ والفكر، الرياض، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٤ - تاريخ المملكة العربية السعودية (من جزأين)، ط ١٤، ١٤٣٠هـ.

٥- خواطر حول الوطن والمواطنة، الرياض، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٦ - الشيخ محمد بن عبد الوهاب : حياته وفكره، ط ٢، ١٤١٢هـ.

٧- العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت، ط٤، ١٤١٨هـ.

٨ - عن الوطن وإليه، نادي القصيم الأدبي ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٩- قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد، ط ١، ١٤٢٢هـ.

١٠- قراءة في كتابات عن تاريخ الوطن، ط ١، ١٤٢٢هـ.

١١- محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، ط ٢، ١٤١٣هـ

١٢- مراجعات في مصادر التاريخ السعودي، ١٤٣٠هـ.

١٣- معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد، ط٣، ١٤١٩هـ

١٤- من وحي رحلات إلى خارج الوطن، الرياض ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٥- نجد قبيل ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب، الرياض ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٦- نشأة إمارة آل رشيد، ط ٢، ١٤١١هـ.

ب - ترجمة:

- بعثة إلى نجد، تأليف سانت جون فيلبي، ط ٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- توحيد المملكة العربية السعودية، تأليف محمد المانع، ط٣، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٧م. هـ.
- من حديث بوركهارت عن الخيل والإبل العربية، تأليف بوركهارت، ط ٢، ١٤١٣هـ.
- مواد لتاريخ الوهابيين، تأليف بوركهارت، ط ٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

ج - دراسةً وتحقيقاً:

- كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، لمؤلف مجهول، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، تأليف حسن الريكي، ط ١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- نبذة تاريخية عن نجد - أملاها ضاري الرشيد وكتبها وديع البستاني، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

وصدر له تسع مجموعات شعرية بالفصحى هي:

- بوح الشباب، ١٤١٥هـ، وإعادة طبع ١٤٢٢هـ.

- دمشق وقصائد أخرى، ١٤٢٤هـ.

- صدى البهجة، ١٤٢٤هـ.

- عرس الشهباء وقصائد أخرى، ١٤٣٢هـ.

- عودة الغائب، ط ١، ١٤٠١هـ.

- في زفاف العروس، ١٤٣٢هـ.

- لا تلوموه إذا غضبا، ١٤٣٢هـ.

- لا تسلني، ١٤١٥هـ، وإعادة طبع ١٤٢٤هـ.

- مشاعر في زمن الوهج، ١٤٣٠هـ.

وصدرت له مجموعة شعرية بالعامية عنوانها نمونة قصيد، ١٤١٦هـ.

وإضافة إلى ما سبق ألّف أربعة كتب كانت مقررة في مراحل التعليم العام، وهي:

١- تاريخ المملكة العربية السعودية، للسنة السادسة الابتدائية.

٢- السيرة النبوية والخلفاء الراشدون، للسنة الأولى المتوسطة.

٣- جوانب من التاريخ الإسلامي، للسنة الثالثة المتوسطة.

٤- تاريخ المملكة العربية السعودية، للسنة الثالثة الثانوية.

وصدر له سبعة كتب تتناول قضايا عربية سياسية هي:

١- خواطر حول القضية، الرياض ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢- عام من الذل والانخداع، دمشق ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٣- كتابات عن التصهين، بيروت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٤- مقالات عن الهم العربي، دمشق ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٥- أنت في مقالات عن فلسطين والعراق وقضايا مصيرية، بيروت، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٦- مقالات عن قضايا عربية، بيروت ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٧- بيع الأوطان بالمزاد العلني، دمشق، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.





هذا الكتاب:

بين دفّتي هذا الكتاب موضوعاتٌ، ومقالاتٌ، وقراءاتٌ، وردودٌ متنوعة، لم يسبق لبعضها أن نُشِر، وفيه تعقيباتٌ للمؤلف تجاه بعض التحقيقات العلمية، وفيه أيضاً، وصفُ لبعض الندوات والمحاضرات في مجال التاريخ الوطني.

والكتاب يعطي تَصُوراً شاملاً لبعض الجوانب والوقائع والأحداث التي مرّ بها وسطُ الجزيرة العربية قبل ظهور الدعوة السلفية، وقيام الدولة السعودية الأولى، وما تلا ذلك من أحداث. وما تضمّنه من معلومات يجعله مطلباً للمتخصصين والباحثين.

ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض وهي تقدّمُ هذا الكتاب، يحدوها الأمل في أن تتحقق به الفائدة المأمولة، ولاسيّما أنّ مؤلفه متخصص في الموضوع المكتوب عنه.

المؤلف




ISBN 978-603-8118-03-0
9 786038 118030